

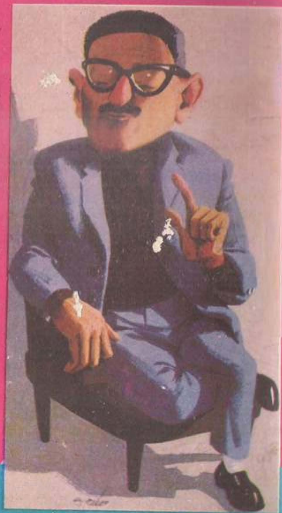
مؤلفات الفريد فرج

٧

رواية
□ حكايات الزمن الضائع
في فترة مصرية
□ مجموعة قصص قصيرة



الطبعة الأولى: ١٩٨٥م - ١٩٦٥هـ



٧

مؤلفات الفريد فرج

رواية

□ حكايات الزمن الضائع

في فترة مصرية

□ مجموعة قصص قصيرة



مكتبة المطبعة الحديثة

١٩٨٩

١١

١٢

رواية
حكايات الزمن الضائع
في فترة مصرية

مقدمة

فى خريف ١٩٧٦ عدت الى القاهرة بعد غيبة بالخارج . وتنقلت بين الأماكن التى أحببتها . وأحاطتني البشاشة التى ألفتها . . .

قضيت اياما اتحدث واحكى وانصت ، الى ان داهمنى فجأة شعور بالوحدة ! . . كأنما أفقت لأرى نفسى أتحدث وحدى آخر الليل ، وقد رحل السمار . .
الاسعار ترتفع باصرار عنيد كل يوم ، ومع ارتفاعها تنكمش الثروة ، ويفقد التواصل قيمته بقدر ما تفقد قيمتها العملة .

شئ مافى ملامح الناس اتبين بعد التدقيق أنه يتغير — لم تتبدل الملامح ، ولكن وجوها كثيرة أجهدت نفسى لاتذكرها وانطق باسمائها . .

٥

كان للانتخابات المرتقبة عجيج فى الصحف
والاذاعة ، واستعدادات نشطة لاقامة طقوسها ، ولكنى
عجبت من انى لم أجد الكثيرين يتحدثون عنها ،
والآخرون يذكرونها بفتور .

بعد ثلاث سنوات من السفر فى أرجاء العالم أعود
مفتربا واهن الصلة . قررت العودة الى جذورى والذهاب
الى قرىتي « كفر آمون » والبداية من أصولي .

ركبت التاكسى بعد الظهر مع أربع من رفاق
السفر . . . وكل منهم وصل الى مقصده ثم ضل التاكسى
بى الطريق .

لم اكن اعرف قبلها أن قرىتي بهذه الضالة بحيث
تاهت فى شبكة الدروب الصغيرة المتربة .

لاحظت بقليل من الاضطراب أن الليل يقبل اعمق
ظلمة من المعتاد ، فقلت للسائق :
- الدنيا ظلام !

فلم يعلق . وانشغل بالانحراف يميننا وشمالا وهو
لا يخفى ضجره . . . حتى وصل الى جسر خشبى أضاءه
بكشافيه القويين وقال :

- ها هي !

— جسر قریتی کفر آمون ..

نزلت ووضعت یدی علی حافته فشعرت بسرور
غمرنی • هذا شيء أعرفه تماما ويعرف شقاوة طفولتي
•• كل نتوء فيه ، كل خدش •• وعبير من الذكريات ••

— من هناك ؟

برز من الظلام خفير يصيح •

قلت : فلان •

قال : فلان من •

كانما القى علی مسرتی دلو من الماء البارد ، فهذا
سؤال ما اعتدته قط فی هذا المكان •• ليتم شعوري
بالاغتراب ابتلعه صاغرا ، وتأملته فيما بعد مع مائر
الأسئلة •• لأعلم بعد أسابيع فی الكفر ان المكان هو
المكان ، القاهرة هي القاهرة والناس هم الناس •• لم
تتغير فی الواقع ملامح أى شيء •• ولكن تغير الزمان !
لهذا اكتب قصتي •

لهذا اكتب قصة قریتی ، وأعرفكم بحكاياتها ••

الفصل الأول

« كفر آمون » قرية منسية . .

لم تصبها قوانين الاصلاح الزراعى . . لا سلبا ولا ايجابا ، فلم تجد الحكومة فيها من يملك أكثر من عشرين فدانا - وهو العمدة بالمناسبة - فقدرت أنها قرية تتمتع بالسلام الاجتماعى ، ولا ضرورة لتوزيع أرض على معلميها .

« وكفر آمون » قرية نائية . .

مع انها تقع فى المثلث الجغرافى الذى يربط بين التل الكبير وبلبيس وقرية رزنة ، وهى مواقع ذات شأن فى تاريخ الثورة العرباية ، فلم يكن بها من يجرى لسانه بذكر هذه الثورة الا شيخ طاعن فى السنين

منذ سنوات كان يقول انه ولد أيام « هوجة عرابي » .
فاذا صادف وسأله أحد الشباب على « الهوجة » وما جرى
بها ، نهره الشيخ بحزم :

— هذا تاريخ منسى ! انتبه لحالك انت !

ويغزق فى صمت ..

وربما كان بعض شيوخ القرية يروون بعد المغرب
امام الدكان — وهو مكان يتخذ كمقهى للقرية ، اذا حلا
السهر ودارت أكواب الشاي ، أن شبابا خرجوا من البلدة
ذات ليلة « أيام سعد باشا » واشتركوا فى قطع خط
السكة الحديد بين بلبيس والزقازيق . فاذا ثار فضول
أحد القاعدين فسأل : « من هم ؟ » .. ندم المتحدث
وتراجع قائلا بصوت غارق :

— هذا زمان مضى ، وجل من لا ينسى !

حكايات اغرقها على مر السنين تحوط ريفى غير
مفهوم .. فى بحر النسيان .

الا أن الحياة تجدد الحكايات برغم كل احتياطات ..
فقد كان بعض الشباب يذكرّون منذ سنوات —
همسا.والفم قرب الأذن ، واذا ما فتر حذرهم الغريزي

— انهم باتوا فى حجز الشرطة بالمركز ذات ليلة بسبب
« النقاية » !

وغالبا ما ينبرى أحد الموجودين للمتحدث ينبهه :
— اسكت والا الكلام يصل العمدة !

فيسكت المتحدث فى أكثر الأحوال .

وأصل هذه الحكاية التى جرت فى خريف ١٩٥٢ ٠٠٠
أن تلميذا من مدينة دكرنس التى تبعد خمسين ميلا عن
الكفر او أكثر . زار ابن خالته الفلاح بالقرية وقرأ له
فى صحيفة كانت معه قانون الاصلاح الزراعى وافهمه
أن القانون يسمح للفلاحين بأن ينشئوا فى قراهم
نقابات لهم . وقد دهش ابن كفر آمون من الفكرة ،
وكانت حركة الجيش فى يوليو قد زعزعت حذر الفلاحين
وتحوطهم وأثارت وجدانهم وأطلقت الأحاديث ، فعمد
ابن الكفر — خلافا لكل احتياط — الى دعوة أصدقاء له
من شباب القرية الى داره ليقرأ لهم قريية فى الصحيفة
التى معه ٠٠ على سبيل المباهاة بقرييه وصحيفته —
ربما ٠٠ او بسبب اعجابه واهتمامه بالفكرة ٠٠

كان الوقت عصرا .

والعمدة ايقظوه من قيلولته فنهض مخلوع القلب

ليرى بعينيه لوريات الشرطة وقد دهمت البلدة ،
وضباط الحملة يصيحون به من يمين ومن شمال :

— أين اجتماع النقابة يا عمدة ؟!

— أين مقر النقابة يا عمدة ؟!

فبهت العمدة ، وأخذ يردد بصوت مرتعش وهو
غائب الانتباه لم يصح تماما بعد :

— تفضل يا بيه فى الدوار • شرفت البلد يا بيه •
تفضل فى الدوار ••

كانت أبواب البيوت تطرق بعنف، وتقتحم اعتبارا
•• حين صاح أحد العسكر :

— أهم !

فكان ضابط فى صحن الغرفة ، ورأى تلميذ
دكرنس الذى كان يخطب ربما، سبابته مرفوعة ، وبيده
الأخرى صحيفة ، وحوله فلاحون •• الا انه فاغر فمه
من الدهشة •

— نزل اصبعك !

صاح الضابط وشهر سدسه ، فعلم الجنود انها
اشارة الهجوم •

خرج جميع الموجودين صفا واحدا وارساغهم
مربوطة فى حبل واحد يقبض على طرفه الأمامى
شاويش ، وعلى طرفه الخلفى الشاويش ، وحول الصف
جنود المركز بأسلحتهم ، وفيما يليهم أهالى القرية
يصيحون ويصخبون ، بينما أطفال القرية يحاولون
اختراق الجميع فيتلاقون الركلات .

تلك الليلة بات المضبوطون فى حجز الشرطة
بالمركز .

ومع أن خبرهم وصل الى القاهرة ذاتها فصدر الأمر
بالافراج عنهم ، وأخلت النيابة سبيلهم فى الصباح
بضمان العمدة ، فقد حبست القرية قصتها فى الحال
تحت أقفال ومزاليج الاحتياط والحذر ، لم يعد يذكرها
فى لحظات الطيش الا شاب غير متزن فيردعه السامعون ،
أو يذكر بها العمدة – اذا احتدم جدال بينه وبين فلاح
فضاق به .. يتوعده بقوله :

– تسكت والا أودى بك فى النقابة ؟!

فيسكت الفلاح على الفور .

حتى هذه الحكاية تكاد تنسى أيضا ..

القرية أعرضت تماما عن التاريخ ، ولا تطمئن

لحواديته .

ولكنها لا تكف عن الشرثرة والشكوى شأن قرى
الريف وسامر الفلاحين .. غير انها أثرت أن تشكو
جهرًا وبلا أى احتياط أو ملل من .. الجغرافيا ! ..
من أن الجغرافيا ظلمت كفر آمون .

فقرى البر كله تكبر وتسمن ، وكفرنا لا يكبر
ولا يسمن ..

«كفر سمعان» على بعد ميلين .. السكة الزراعية
تمر من أمامه ، والسكة الحديدية تخترقه .. لذلك أختير
« كفر سمعان » فى السنوات الماضية مقرا « للموحدة
المجمعة » . وهى العيادة الطبية والمدرسة ومجلس
القرية ، ويزحف اليه العمران ، ويسكنه الموظفون
الأفندية . لقد امتدت اليه حتى الكهرباء وبنى به سوق
كبير .

والسahرون أمام الدكان فى كفر آمون يسمرون
على ضوء فتيلة خابية ، يلمحون من مجلسهم أضواء كفر
سمعان على البعد ، فلا يسمعون بعد الشكوى الا لتندر
بأنفسهم .

فقد زعم بعض الشبان مثلاً انهم رأوا ذات صباح على
السكة الزراعية أمام كفر سمعان قافلة من سيارات
السينما ، بها ممثلون (يختلفون كل مرة يحكون فيها

لحكاية حول تحديد أسمائهم فيتشاجرون ويتمايرون)
٠٠ وتحدثوا عن آلات سينمائية عجيبة فى السيارات
(يختلفون دائما فى وصفها ويتشاجرون ، ثم يطلقون
الفكاهات) ٠٠

ومرة يتزيد أحد الرواة فيؤكد انه طلب من المخرج
تصوير قريرتهم « كفر آمون » -
فسأله المخرج :

- هل تطل قريرتكم على النيل . أو حتى على ترعة
تظللها أشجار الصفصاف أو أم الشعور ؟
- لا .

- أبها قصر لباشا تحت الحراسة أو لكبير يقبل
التصوير به ؟
- لا .

- هل بقريرتكم بنات جميلات ؟
- لا يابيه ، اسم الله على مقامك نساؤنا كلهن
يشبهن الخفراء ! ويسبق الراوى السامعين الى الضحك
الصاخب !

ومع ذلك تعيش قريرتنا حياتها ككل القرى الأخرى
فى العمل وفى المرح ، وتدفع بتلاميذها الى مدرسة كفر

سمعان ، ومنهم من يصل الى مدارس المركز والمحافظة .
والقاهرة ذاتها ، حيث ينالون شهادات تؤهلهم اوظائف
حاكمة ، تنسيهم بالضرورة قريتهم الصغيرة الفقيرة .
وحتى اقاربهم هنا ، أما ينتقلون اليهم حيث يسكنون
فى المدن الكبيرة ، وأما يكفون عن رواية أنبائهم الالماما ،
وتعبيرا عن الحنين أو مباهاة بهم أو تزجية للوقت . .
بينما هم فى الحقيقة لا يعلمون عنهم شيئا هاما .
ودفعت القرية بشبابها الى الجيش ، ورددت معهم من
بعيد أحاديث الهزيمة وأحاديث النصر . . ولكن هؤلاء
الشباب لم يعد معظمهم بعد الخدمة للقرية ، فقد اكتسبوا
فى الجيش مهارات وقدرات عملية أهلتهم للعمل فى المدن
الكبيرة ، وفى الأقطار العربية اذا واثى الحظ . . ونسوا
بالتدريج مسقط رأسهم .

وبمرور الأيام تنساهم أيضا كفر آمون !

فأى قرية هذه التى فتر احساس أبنائها المفترين
حتى باسمها ؟!

ترددت فى أن أروى عنها هذه الحكاية . بل خطر
لى مرة أن أروى الحكاية وأنسبها الى قرية أخرى مرموقة
ومذكورة لأضمن لروايتى ألا تصيبها لعنة النسيان .

لكنى تخرجت أن أسلب كفر أمون الفقيرة المنسية ، أنا
ايضا ، شيئا تملكه وتستطيع أن تعطيه باسمها •

ومع ذلك فكلما كنت أغشى محافل أدبنا وفننا
المعاصر ، حيث يستأثر بأسطع الأضواء شباب عصاميون
متألقون وفتيات جميلات، حياتهم العاطفية درامات أسرة
مؤثرة ، أخرج أن ادعو الى هذا الحفل المعقود بحروف
المطابع وشاشات السينما والتليفزيون •• مجموعة من
الفلاحين ذوى الاقدام المشققة ، وحمارهم الظريف
العنيد • فاذا هاتف يهتف بى : حتى وان أثرتم النسيان
•• ان هؤلاء الفلاحين هم المنبع والمصدر لحياة الشباب
القاهري اللامع •• ولحياتهم العاطفية والانفعالية ،
وأصل الثروة العقلية والانسانية والمادية للمصريين •
فأعود لأفكر فى اصدقائى البسطاء ••

هكذا عزمت ان استأذنكم فى أن ادعو ضيوفى ،
ليروا حكاياتهم •

حدثنى رواة القرية قالوا :

تبدأ القرية نشاطها فى الصباح بالنقار ! وهذا
ما يجرى عادة بين مرزوق الفلاح العجوز وابنه اليافع
سيد كل صباح • لا يهم موضوع النقار • فأى موضوع

يلتقط من وحي اللحظة يصلح للتفريغ عن ضغوط
النفس • ولكن اليوم •• يرى سيد أباه مرزوقا قاعدا
يقرقش كسرة خبز جاف ، بينما يدفع بظاهر يده كومة
فول حراتى تحت رأس حماره ! والاخير يلتهم الوجبة
السخية بشهية مفتوحة ••

— انت تفطره فول يا با ؟!

— لا • أبدا • هذه شوية فول كدا ••

— يا با حطهم فى جسمك انت •

— الله •• شىء بارد صحيح ! يعنى انا احتاج الفول
وأعطيه لحمارى ؟! انتبه لروحك انت !

— أنا ؟! طيب ••

ارتدى جلابيته وخرج • ولم يشأ ذلك اليوم
بالذات ان يسترسل حتى ينقلب النصار الى شجار • كان
متلهفا على الوصول الى الفيط والانفراد بنفسه ليعاود
الحسبة التى يحسبها منذ أيام ، بمختلف احتمالاتها ••
ليعلم كيف سيستخلص من بيع محصول الذرة — بعد
سداد الديون والأداءات — مهر الزواج من زينب •

ولكنه لم يستطع أن يفلت من فكرة أن أباه لم يعد يطيقه لأنه لم يعد يطيق سيرة زواجه .

انقضى زمن كانت ترفرف فيه روح السلام بالدار .

كانت أمه روح السلام هذه . كانت تتطوع عن الاب الشكس وعن الأبن الملول بامتصاص صدمات النقار والعراك المكتوم . . وتتلقى نيابة عنهما ضربات اللسان ، وتشع نسيمًا يرطب الجو على هيئة دعوات للثنين بطول البقاء وبالصحة والسعادة .

ماتت الأم . وتركت لهما أرضها فدانًا ونصف فدان غير قراريط يملكها الأب . . والحمار .

ومع غيابها أنبتت الشياطين في كل ركن من البيت والغيط وحشة ونزاعًا وشعورًا بالغرابة . . تفرجها من وقت لآخر مباريات النقار المعقودة دائمًا بين الأب وابنه ، تتلمس الأسباب .

هذه الوحشة كانت توقظ في قلب سيد لهفة الجنس والزواج .

ولكن فكرة زواج سيد كانت تثير مخاوف الأب أن تسقط عنه السيادة نهائيا في بيته . يؤله أن سيادته مزعزة حتى من قبل زواج الابن .

— مالك ملهوفة كدا يا بنت !؟

فاتحة المراك !

كانت بهانة تخض قربة اللبن المعلقة بمسمار فى الحائط ، ودجاجاتها تمرح حولها ، وهى كعادتها تضرب فخذها بكفها الأخرى وتشكو الزمان .

قالت البنت : الله ! املا الماء . .

تصعبت الأم ورمتها : آخذ عقلك يهنا به .

— رجعنا للمناقرة يا أمى ؟

— طيب والنبي ما أنوله غرضه . . ان ما دفع المهر خمسة وعشرين جنيها . . ان شالله حتى يبيع الحمار !

— هو الحمار حماره يعنى !؟

— حماره أو حمار أبيه . . يعرف خلاصه .

— الله !!

حطت زينب البلاص على كتفها وخرجت قبل ان تسترسل الأم . لكن أمها صاحت خلفها :

— قطيعة ! على رأى المثل . . ربت الخائبة للغائبة .

واستأنفت تندب حظها بصوت مسموع بعد ابتعاد
البنت :

— واعمل ايه انا فى وحدتى من بعد ما تفورى
يازينب يابنت بهانة ؟ ولا احتكم من دنيائى غير على
جلاييتى ! (رمت بنظرة نحو ركن الغرفة حيث تدفن
بضعة جنيهاات لا تعلم ابنتها عنها) يادى السنة السوداء!
يعنى الحمار عنده اعز من ولية شقيانة غلبانة كحالتى؟
.. انكشعى بره !!

رمت الصيحة الأخيرة لدجاجة كانت قفزت على
فخدها ، ففرت مذعورة .

زواج ؟! أى زواج ؟! قالت زينب لنفسها .. بنت
مثلى بلا أرض وبلا أقارب ، غريبة عن البلد ، جاء أبوها
القرية ليعمل أجيرا ثم مات . أخذت الأم تتحايل على
المعاش حتى سترها الله وصارت تبيع فى سوق كفر
سمعان وسوق المركز جينا تصنعه ودجاجة تربيته ،
وتساعد امرأة العمدة يوم الحنيز ..

القرية كلها تقف ضد زواجها من سيد . فى كل
بيت بنات . فما بال هذه الغريبة تأخذ الشاب ؟! وأى
غربة ! فالغريب بلا أرض أشد غربة .

— بسم الله الرحمن الرحيم • أعوذ بالله من
الشیطان الرجیم !

• رأت سید أمامها فجأة فاضطريت •

— تتعوذی منی یا بنت ؟!

قالها مماحكا ، ولكنها انفجرت :

— اسمع یاسید • ان كان لك غرض منی روح کلم
أمی • هی تقول لك أدفع المهر خمسة وعشرين جنيها
ان شالله حتی تبیع الحمار ••

تحفز سید مفضبا •

— هی أمك •••

— اسمع أقول لك ! اياك تعيب أمی لا !

ومضت بخطوها الموقع ، عالية القامة ، على رأسها
البلاص ، غاضبة • فرمى سید وراءها :

— أبیع الحمار ؟! جاءها خابط !



لازمه غضبه طول النهار • ولما وافاه أبوه فی
الحقل بعد صعود الشمس •• كان الحمار مقبلا یجرى
أمامه متدللا مترنحا یمین المدق ویساره ، وأبوه بالكاد

يلاحقه ، ويبيده عصا توت رفيعة ، يصيح من خلال
لهاته :

– قف يا ابن العفريته !

– اضربه على جثته يا با !

– هو جأى أهه • لاتكدر روحك انت •

كان سيد يستغرب ويخاف قليلا •• تطور علاقة
مرزوق بحماره • فالرجل المعجوز بعد موت زوجته غلب
عليه الصمت ، وفقد شهيته للعمل • قدر سيد ان
الحزن ، أو ربما الشيخوخة هي السبب ، فلم يأبه ••
ولكن عدم اهتمام الابن كثف الشعور بالفراغ والوحشة
فى قلب مرزوق ، فأصبح أحوج مما كان فيما مضى الى
الحنان •• لم يكن له بنت أو طفل صغير أو أخت ،
فافتقد فى حياته كل رقة • واذا به – وما أعجب قلب
الانسان – يرق قلبه هو • ويتحول هذا القلب الحشن
الى منبع حنان عجيب كأنما بطريق الاحلال ! ولكن
خشونة سيد ومخالفته لأبيه ونقاره وقلق مرزوق على
سيادته فى بيته صرفت حنان الأب عنه ، فتحول الشيخ
الى حماره •• يدلله ، يطعمه بيده ، يفسله فى القناة ،
ينزله على الجسر ، يسميه «الحدق» •• ويحدثه أيضا •

ومما ألقى الرهبة فى قلب الابن انه وجد أباه أحيانا يتبادل الحوار مع حماره من طرف واحد... ويضحك! كأنه يسمع من حماره فكاهات .

ثم اعتاد هذا الشيء فلم يعد يخيفه ، ولكن ما برح يغيظه تدليل أبيه للحمار وقت الشغل .

جذب سيد الحمار من مقوده بعنف ، وصار يضع فى كيسيه المعلقين على جنبه ثمار الذرة الطيبة التى جمعها ، ويدفع الحمار باليد وبالقدم متذمرا .

– بالراحة عليه ! هذا لحم ودم يابنى .

– والله لأبيعه فى السوق ! خلاص أنا قررت أبيع الحمار . ما عاد ينفعنى .

صاح الأب منكرا : تبيع الحمار ؟!

– الحمار حمارى والكلمة كلمتى . والقراريط أيضا التى أملكها فى هذا الغيط عن أمى ، ان أردت سأبيعه وأطفش من دى البلد واشتغل عاملا فى المركز .
أنا حر !

– انت جنتت ! أنا عارف جنونك . طيب والله لا أنولك غرضك . أنا أزوجك على كيفى أنا . ناس

أبو محفوظ مالهم ؟! ناس لهم أصل وفرع وأرض في
البلد . لن تتزوج بنت البياعة ياسيد يابن مرزوق ؟
قال يبيع الحمار ! اخسر !

تراجع سيد هائبا .

— اذا كنت أنت أفسدته يابا . .

— هكذا ؟ طيب أوع لما نرتاح الأول .

قعد مرزوق وجذب الحمار جنبه ، وفرش منديله
وبه الفول الحراتي وقال اولده :

— تعالى كل فول .

— لا أشتهيه .

جذب مرزوق مقود الحمار بقربه :

— تعال انت يا ولد يا «حدق» كل بالهنا يا «حدق»

فصاح سيد منكرا : يا اخواتي !



في المغرب كانت بهانة ماتزال تندب حظها ، بينما
ابنتها ترص الجبن وتجمع البيض .

– أنا عارفه انى مالى بخت • عمرى ما شفت يوم
يسر خاطري ، وآخرتها ••

– ثلاثة وعشرين بيضة يا أمه •

– آخرتها انبخس فى كل بيع وشرا • لا أحد خاب
خيبتي ولا خيبة بنتى ••

– وأربعين قطعة جبن •

– يا شوم الزواج •• ويا شوم النسب ••

– كفاية يا أمى •• ها هو مشى وما عاد يرجع ••
افرحى •

انشرح وجه بهانة فورا وهتفت :

– صحيح مشى يا بنت ؟ خلاص مشى؟ والنبي
مشى ؟ ••

هزت زينب رأسها منكرة : آه منك آه !

فى المغرب كان مرزوق وولده فى الدار يقشران
كيزان الذرة ، وينزعان حبوبها ويكومانها فى أنية ،
ومرزوق دائم التلفت الى حماره يلقي له ببعض
الحبوب •

– كل يا ولد ، كل يا حدق ••

— كل .. كل .. كل . كفاية يا بابا . دا أكل ثقل
حمارين اليوم !

— تحسده ؟

— أى والله صدقت .. أنا أحسده صحيح . لأنه
أحسن منى .

— آه يا صغير العقل . اسمع يا ولد . غدا أنا طالع
المركز أشتري الكيماوى .

— الكيماوى ؟! هذا وقته ؟

— وأزور سيدى أبو الخطاطيف بالمرة . غدا المولد

— أى هكذا ! انت تريد تأخذ الحمار وتتفرجا فى
المولد على الغوازي والمسخرة ، وأنا شقيان هنا ! أنا
تايه عنك ؟

— اخرس خالص !

— لكن انا لا أخاف عليك . أنا خائف على الحمار
ينطفه منك أولاد الحرام .. وعصابة الشحط طايحه
فى الناحية كلها .

— لا يا شيخ ؟! أنا ولد صغير ؟! أنا مثلك ولد
صغير ؟!

– اللهم طولك ياروح ..
– مالى أنا والشحط ؟ أنا أروح فى النهار وأعود
ان شاء الله فى النهار .
اسكت انت !



كان العمدة فى مضيفته يتوسط أربعة من فلاحى
القرية المرموقين ، وخادمه الخاص مسعد يدور عليهم
بأكواب الشاي الصغيرة ويتحدثون .
– شيخ الخفر رشوان أبو سالم تأخر يعنى .
قال العمدة بلهجة ذات احياء :
– هو عند عظيم بيه بالمركز يحدثه فى عبارة
الانتخابات .

قال آخر : وتظن يا حضرة العمدة عظيم بيه ينجح؟
صاح العمدة منتفضا : الله ؟ لابد أن ينجح ! كل
ما نعيده نزيده ؟! طيب قسما بالله ان مانجح فى الدائرة
المهيبة دى ، ليعرف شغله معكم . قلت آه بقى ؟!
فرد الرجل مستسلما تماما : نحن قلنا شيئا لا سمح
الله ؟ السؤال حرام ؟!

وقال الرجل الأول ملطفاً الجو : حصل خير يا حضرة
العمدة • ياجماعه شيخ الخفر تأخر والسكة خطيرة في
الليل •

فقال العمدة : ولد يا مسعد • اطلع يا ولد على رأس
السكة شوف شيخ الخفر وهو جاي •

انفلت مسعد خارجاً • اجتاز دروب القرية جرياً ،
فما ان انعطف ناحية الدكان ، حيث اجتمع بعض
الشباب والرجال يشربون الشاي ، سألهم أحدهم :

— ولد يا مسعد •• رايح أين ؟

— أبحث عن شيخ الخفر •

— هو ضاع منكم ؟ يقطع خبركم !

اعتاد مسعد مثل هذه الهجمات ، لم يعد يعبا لها ،
فمضى ••

أما شيخ الخفر رشوان أبو سالم فقد تأخر عند
البيه لأن الأخير كان مشغولاً جداً بضيوف عنده يبحثون
احتمالات ونظام العملة الانتخابية • فلما ذكره سكرتيره
مستجير أفندى للمرة الثالثة أن شيخ خفر «كفرأمون»
في الانتظار بناء على استدعاء البيه له ، استأذن ضيوفه
واستقبله بمكتبه ربع ساعة وطلب اليه تأييد القرية •

كان الوقت قد أمسى حين انطلق شيخ الخفر على حماره فى السكة الزراعية يستأنس فى الظلام بأضواء السيارات القليلة العابرة ، فاذا اختفت السيارات خيل للشيخ أن أشجار الذرة على جانبى الطريق تزداد ارتفاعا ! فيستعيز بالله مع الشيطان •

ولما أدرك القنطرة التى ينحرف منها الى الدرب المؤدى للمقرية بين الحقول ، ودق الحمار الواحها فصدر عنها طنين •• انشق الظلام فى لمح البصر عن أربعة رجال ملثمين انتزعوا بندقيته من فوق كتفه وأنزلوه عن حماره وخطفوا محفظته وساعة الجيب الفضة ••

•• بأيد خشنة كصيححاتهم المرعبة :

— أنت مع ؟!

— رد • ردت المياه فى زورك !

— دا يظهر خدام البيه الأخرس •

يسمع ضحكات مكتومة • جسده يرتجف وظهره يعرق •

— الأكيد ان الهيئة هيئة الأخرس ، لكن الشارب شارب شيخ الخفر •

– سبحان الله ! ولما انت خدام البيه الآخرس . .
تضع نصف رطل شوارب كشيخ الخفر بأى حق ؟!

أحس بشاربه يكاد ينتزع . وضحكات خشنة
مكتومة . خاف أن تخذله ركبتاه فيجثوا على الأرض .
– ماذا تريدون ؟

هو نفسه أنكر صوته حين سمعه . وأحس بالكلمات
تشق حلقه الجاف كالسكاكين .

– اخلع !

– ماذا أخلع ؟!

– القفطان .

– نهار اسود !

قبضة على رأسه جعلته يشعر بالدوار ، فما أفاق
كان قد خلع القفطان وصار بالفانلة الصوف والسروال
الواسع .

– خلاص يا معلم ، الزبون تهيأ للمقابلة .

برز المعلم كقطعة ظلام انفصلت عن الظلام .

– يا رشوان يا أبو سالم • غدا الصباح ترجع
لعظيم بيه تقول له الشحط ورجاله يريدون حقهم
كالاخرين • عظيم بيه يصرف لمن هب ودب لأى سبب ؟
– لينجح •

– طيب على الطلاق من بيتى ما ينجح الا أن دفع لى
ولرجالى ألف جنيه صحيحين •
سمعت ؟

– أقول له • حاضر •
– قول له الشحط حلف بالطلاق •
– حاضر • أقول له •
– اتركوه •

– اعطنى القفطان الله يستركم ! القفطان يا ابنى
•• القفطان ! ••

تاھت صرخته فى دوى عيار نارى أطلقه أحدهم
فى الهواء ، فأطلق سيقان الحمار بهمه نحو القرية
كإشارة بدء سباق، واختفى الرجال فى الذرة بالقفطان •
ففى لمح البصر عاين شيخ الخمر الفضيحة مقبلة لتدهمه
فارتعدت فرائصه ، وانطلق فى سباق الريح خلف

حماره ، متمنيا على الله أن يلحقه قبل أن يدخل اللعين
القرية ، ويصل البيت بلا راكبه ، فتطلق نساؤه أصواتا
منكرة تلم البلد وهو داخل اليها عاريا !!

كان مسعد خادم العمدة على أول الدرب حين سمع
دبيب الحمار يدوى فى الليل فقال : ها هو شيخ الحضر !

وقبل أن يستنرق فى دهشته من أن يدخل الرجل
القرية بهذه السرعة . انقض عليه شبح الحمار بلا راكب
فتوقاه بالكاد . وأدرك عنى القصور المصيبة ! فانطلق
مخلوع القلب فى السباق خلف الحمار .

والحمار كأنه يطير بلا أجنحة . مر بالقاعدين جنب
الدكان فاستنفرهم وتصايحوا :

— حلق يا جدع - امسك يا ولد - حوش عندك ! -

ولكنهم فوجئوا بمسعد يجرى ويصيح : يا بابا
العمدة ! الحق يا بابا العمدة !

فخرج البعض من بيوتهم .. والحمار يخترق
الدروب ، والضجيج من حوله يفزعه فيضاعف مرعته
نافرا من الصيحات :

— ما جرى : لصوص ؟ اوع ..

— دا خدام العمدة يجرى وراء حمار طافش ..
ويبكى !

وقعت بلبنة وصرخت امرأة ، فقرّر فلاح ، احتساباً
لكل احتمالات المهالك المخوفة أن يستنفر أهل الكفر ،
فاستجمع كل ما فى حنجرته من قوة ليصيح :

— حريقة !!

فوقفت البلد على قدم .. وخرج العمدة وضيوفه
يتسابقون من الجزع الى باب الدوار — والعمدة يصيح
فى الذى يجرى هنا والذى يجرى هناك :

— ما جرى يا ولد ؟ البلد خربت والا ايه ؟

— حمار طايح فى البلد يا عمدة ؟ والولد مسعد
يضرب بالصوت ..

— يا با العمدة ! الحق يا با العمدة !

سقط مسعد عند قدمى العمدة يلهث ، وتجمع
الناس :

— ما حمار الا هذا الولد .. قم قامت قيامتك ..

ورفسه العمدة بقدمه فرفع مسعد وجهها مبلا
بالدموع :

— شيخ الخفر يا حضرة العمدة ..

— ماله ؟

— تعيش انت ..

وأجهش في البكاء : فشقت القرية أصوات النساء ..



لكن شيخ الخفر ظهر بعد دقائق في مضيضة العمدة .
كان يلهث قليلا . وجاء مخترقا الدروب يقرأ السلام
على كل من يصادفه بهدوء : « السلام عليكم » .. الا أن
صوته مزعزع .. فأثار الموضوع كله دهشة وعجبا ..

وما فتئت القرية بعدها تردد حكاية مؤداها أن شيخ
الخفر دخل القرية تلك الليلة عاريا بلبوص . ولم
يستطع أن يعطى تفسيراً لنسائه اللائى الحفن بالسؤال ،
جزعا عليه ، أو ربما من الغيرة .. ضربهن فأسكتهن ..

أكد لي محدثي من رواة « كفر آمون » ، انها حكاية
نبتت كالنبته الشيطانية لم يروها أحد .. فعلى أن
أصدق اذن انها حكاية لم يتناولها الفلاحون ، وانما
تناقلتها الشياطين !

✓

الفصل الثاني

قال رواية كفر آمون . .

مع شروق الشمس كان مرزوق وحمارة على رأس
الدرب الخارج من البلدة ، وسيد ابنه يرافقه ليوصيه :

— اوع لنفسك يا با . خل بالك من الحمار . اوع
للقرشين في جيبك . أولاد الحرام كثيرون . انت رأيت
عشية ما جرى لشيخ الخفر . لا تتأخر . مسافة السكة
وارجع على طول . المركز هايص لاجل الانتخابات
وزحام . اوع للحمار . .

— اسكت يا ولد ! انت تقريني في المدرسة ؟! أبوك
واع يا ولد !

- طيب • مع السلامة • مع السلامة • •
 قفز مرزوق فوق حماره الذى انطلق به ، الا انه
 استدار بنصف جذعه ليوصى ولده :
 - خل بالك انت من الفيط • ثبت ميعاد السقاية
 مع الشيخ علوان • اوع للزرعة يا ولد • •
 صاح به سيد :
 - انتبه للسكة قدامك يا بابا !
 ثم خاطب نفسه :
 - والله أنا خايف الحمار يسحبوه من تحتك ، او
 القرشين يخطفوه منك • • تكون مصيبة • القصد •
 ربنا يهيألك السلامة •



هبت نسيمات خريفية منعشة نشطت خواطر مرزوق
 فوق السكة الزراعية • والفلاحون لا يتخرجون من
 ارسال خواطرهم بصوت مرتفع اذا انفرد الواحد منهم
 بنفسه فى الخلاء ، فكأنه يخاطب رفيق سفر خفى •
 ما أن أوغل مرزوق فى السكة حتى رأى قادما من
 بعيد راكبا حمارا • بينما وقف فلاح على رأس غيطه
 بين القادم من القرية ، والقادم الى القرية ، يردد الطرف

بينهما • وظلل الرجال الثلاثة أعينهم بأيديهم ،
وضيقوها •• وانطلقوا في حديث مسموع • قال
مرزوق :

— من الجأى من المركز الآن ؟ الوقت ما يزال مبكرا
وهذا جأى ! يكون الحاج عائدا من زيارة بنته المريضة
فى المركز ؟ ممكن • أو يكون أحمد البقال جأى بالتموين
من المركز • لكن البقال يجىء بالتموين فى أول الشهر ،
ونحن فى آخر الشهر •• يظهر انه الحاج • لا • يظهر
انه ليس الحاج ••

وكان القادم يقول ويده تظلل عينيه :

— الله ! من الطالع من الكفر الى المركز اليوم ؟
يكون أحمد البقال رايح يجىء بالتموين ؟ لكن هذا ليس
أول الشهر • الله • يظهر ان هذا مرزوق • لا • يظهر
انه ليس مرزوقا ••

وكان الفلاح فى حقله يقول :

— الله ! من رايح المركز اليوم ؟ الحاج ؟ لا •
فالحاج بايت فى المركز • طيب ومن الجأى من المركز ؟ •
عم أحمد البقال ؟ عم أحمد البقال لم يخرج بعد من
البلد • طيب •• الجأى نة ول انه الحاج •• والرايح ؟
هذا حمار عجران • حمار من العجران هذا ؟

فلما اقتربا ، هتف مرزوق :

— الله • هذا الحاج ! كيف حالك يا حاج ؟ كيف حال
من كنت عندهم ؟ طيبون الحمد لله ؟ سليمة ان شاء الله ؟
أوحشتنا يا حاج • رايح السوق والله نشترى شروة •
آخر النهار ان شاء الله نرجع • كيف حالك يا حاج •••
الخ • بينما الحاج يهتف فى نفس الوقت دون ان ينتظر
آية اجابة :

— الله • هذا مرزوق • كيف حالك يا مرزوق ؟ انت
رايح السوق والا اه ؟ تشتري حاجه يعنى ؟ والله الجماعة
تعبانين شوية يا مرزوق • الحمد لله على كل حال • كيف
حالك يا مرزوق • ترجع متى بالسلامة ؟ اوحشتنا ••
كيف حالك ••

واستدار الاثنان بجذعيهما يواصلان الهتاف .
بينما الفلاح كان يواكبهما طول الوقت هاتفا :

طيب هذا ، وقلنا الحاج •• وراكب العجرا ن هذا
يكون مرزوق أبو سيد ؟ أى والله هو بعينه مرزوق أبو
سيد • ماذا يفعل فى المركز والدنيا زحمة ؟ غريبة !
كيف حالك يا حاج ؟ طيبون يا حاج • الحمد لله على

السلامة • كيف حال من كنت عندهم يا حاج ؟ •
يا مرزوق يا أبو سيد ، أين العزم ان شاء الله ؟ • الخ •
والجميع يتبادلون التلويح بالأيدي ••



•• المركز

يحب مرزوق غائبان المركز لما يتلأأ به من ألوان •
هاهى من بعيد فرقة الموسيقى النحاسية «حسب الله» ،
بزيتها التقليدى كأنها فرقة الخديوى عباس •• تتقدم
عربة عليها اعلان فيلم جديد وحولها الأطفال يصيحون :
هيه ! الشرطة هنا ، اثنان اثنان ، راكبان فرسين
مزينين •• يمران بأطراف السوق •• والسوق يبيعون
به الأشياء الغالية التى لا تشتريها القرية الا فى الأفراح
الهامة •• القماش الملون ، وحلاوة دمياط ، والبخور
•• جلبه من بعيد •• رجال يهتفون : « يحيا عظيم
عبد العظيم » مظاهرة - ابتعد يا مرزوق •

حتى سيارة النجدة بصيحتها المتصلة ، ولمعانها
الأخاذ •• حلوة •• وقفت الى جانب الطريق فتقدم منها
صول الشرطة مسرعا وأدى التحية بأناقة • البيه المأمور
يطل من الشباك •

— تمام يا سعادة البية .

— فتح عينيك . المظاهرات مسموح بها لكن الشغب

لا . اليوم مولد وسوق وزفت . اوع أحد يمس مظاهرة
عظيم بيه .

— حاضر يا أفندم .

تخية أنيقة . وانطلاق السيارة بصيحتها المثيرة .

في ركن قصي من الميدان كان سفروت وأخوه
يراقبان الموقف . لم يرهما أحد برغم اختلاطهما
بالزحام : ولم يسمعهما أحد برغم ان سفروت قال
لأخيه :

— يا داهية سوداء ! البوليس هايج النهارده
هوجج !

— يمني يقطعوا علينا !؟

— انا عارف !؟

— طيب على الطلاق لأوقع لك صيدة على قد مقامك
اليوم . وتكون ليلتنا ورد .

— انتظر لما تمشي الحفاريت .

— عفاريت تشيلهم ! بص يا ولد بص . ما رايك
فى هذا ؟

- وأشار الى شيخ سمين فى جبة زاهية .
- هذا تلقاه مفلس ومدعى الغنى .
- طيب فوت بنا فى المولد .

مضيا نشطين . بينما دخل الميدان من الجهة الأخرى
شرطى وبرفقتة رجل يرتدى معطفا أبيض ، هو كاتب
جمعية الرفق بالحيوان .

— يا أخى البلد هايجه اليوم . جاءتھا داهية !
قال الشرطى :

— هايجه هايجة . والله ان حكمت أسحب حمار
أى عمدة من تحت رجلية . انت يا ولد انت ! قرب هنا .
فرجنى حمارك . .

نشط الشرطى ورفيقه فى فحص الحمار ، وقد
روع صاحبه الفلاح ، وأخذ يصيح مستغيثا بالمارة :
— والنبي يا سعادة الأفندى أنا مفطره فولا وفاطر
أنا بصلة . والنبي حمار سليم كالجنى . .
قال الأفندى :

— انت تحمله صخر ؟! الحمار مجروح .

– أيتي يا أفندي ؟

– قلوبهم ليس بها رحمة !

قال الشرطي :

– لا عندهم رحمة ولا شفقة ولا مروءة ولا قرش
أبيض .

– يا أفندي كل شيء موجود . يا عالم بمن اصطبحت
في يومي الأغبر ؟ !

– يومك أغبر ؟ ! طيب . اسحب البهيمة الى قسم
الشرطة يا عسكري .

– شرطة ؟ ! لا يا بيه ! أنا في عرضك يا بيه . .
تدخل فاعلو الخير بقولهم :

– والنبي تسيبه يا شاويش . لاجل خاطري .
هذا رجل غلبان . الحمار أصح منه يا عالم . .

صاح العسكري :

– امش انجر انت وهو . مالكم انتم ؟ طيب والله
أحبسه لكم في الشفخانة (١) خمسين يوما ، كل يوم

(١) الشفخانة : مستشفى الحيوانات التابعة لجمعية الرفق بالحيوان .

صاحبه يدفع بريزة (١) صاحبة مصاريف علاج ..
يا وجه الاجرام !

انخلع قلب الفلاح ، فدفع بيده فى فتحة صدره
واخرجها ليضعها فى يد الشرطى ..
وصاح الشرطى :

— امش ، داهية تأخذك انت وحمارك ! امش !

وجرى الفلاح غير مصدق بالنجاة .
وصاح أحد فاعلى الخير :

— يا عالم يا ظلمة !!

ثم جروا جميعا هاربين قبل أن يصدر أى رد فعل
من الشرطى . وقال كاتب الجمعية ذو المعطف الأبيض:

— أعطاك كم ؟

— شلن . (٢)

وفتح كفه ليريه له .

— شلن يا مغفل ؟! والله ما اشتغل النهار هذا بأقل

(١) بريزة : عشرة قروش .

(٢) شلن : خمسة قروش .

من بريزة على الرأس ! قلت اه ؟ أروح القسم أجي
بالامباشي حسن ؟

— طيب يا أفندي طيب ، هو استفتاح وخلص ،
حاضر . حاضر . .



في حديقة سراي عظيم بيه ، اجتمع تحت مظلة
بلاج مع المأمور ومعاونيه الملازم ومستجير أفندي سكرتير
عظيم بيه . رشف عظيم بيه رشفة من فنجان القهوة
ورمى أمامه نظرة صارمة خطيرة :

.. لابد أن يقبض على الشحط فوراً ! يهدد الناهبين
ويسمم الجو ! كيف تكون انتخابات حرة تحت وطأة
ارهاب الوحش ؟!

— لو سيادتك كلمت السيد مدير الأمن ، وعززت
طلبى لقوة اضافية من المحافظة . . القوة التي تحت
يدى لا تكفى للمقيام بكل الأعباء ، وملاحقة الشحط في
نفس الوقت . لابد من تدخل قوة اضافية .

— ليكن ، ولكن الشحط . .

— سيادتك تطمئن ، اذا وصلت قوة تعززنا من

المحافظة ، سأمشط. كل حقول الذرة واقود الحملة
بنفسى .

— ليكن . هات التلفون يا مستجير أفندى .



كان الشرطى وموظف الشفخانة قد لفتا انتباه
الصبية والأطفال فلما كمنا خلف الجميزة ، فى المدخل
البحرى للمدينة . انتشر الاطفال على الطريق حيث
كانت قافلة من الفلاحين تتقدم وهم يسوقون بهائم
مختلفة . . ففجأة اندفع الاطفال نحوهم صارخين :

— ارجع ! ارجع ! رجال الشفخانة هنا . ارجع !

فاندفع الفلاحون فى النيطان متفرقين كأن العفاريت
تطاردهم ، وجرى الشرطى ورفيقه نحو الاطفال يسبان
ويتوعدان ويصيحيان :

— طيب يا ابن اللثيمة . غارك يا ابن الكلب !



وقف مرزوق فى مدخل زقاق الملاهى مبهوتا . .
خفق قلبه فجأة ودارت عيناه من حوله . قال لنفسه :
المحفظة بها ثلاثمائة واربعون قرشا ، لكنها مربوطة

جيذا حول وسطى • نعم أشعر بها • والحمار مقوده فى
عنقه وطرفه فى يدى ••

لف المقود لفتين على كفه وهذا روعه ، وتقدم
خطوة ، وجذب الحمار •

تطايرت النيران حوله وصرخ الناس ••

امامه مباشرة ثلاثة رجال شبه عراة ، أقوياء
البنيان . يملأون افواههم بالبترول وينفثون النار ،
ثم يصيحون :

— صلى على النبى ولا تخف • النار لا تحرق المؤمن •
والمؤمن يجود على المؤمن • والجود من الموجود يا مؤمن •
صلى على النبى !!

وتتهاطل الملاليم وتندفع ألسنة النيران •

تتسع عينا مرزوق فتملآن وجهه ثم يغمض فجأة
على صوت انفجار مدوى •

التفت خلفه • المدفع • شاب مفتول يدفعه فيرتد ••
دفعة اقوى ويرتد •• فيصيح : « يا قوة الله » ، وتندفع
كتلة الحديد الى اعلى •• خاطفة كطليقة ، الى عنان
السماء •• انفجار مدوى ! يدوى من بعده التصفيق •

ومن بعيد .. المرأة المشتهاة . آه يا مرزوق ..

جذب حماره بقوة تدفقت فى عروقه . وشق طريقه فى لحم الزحام .. ها هى .. تلوح وتختفى خلف الرؤوس ، عارية أو تكاد ، بكل يد مصباح فلورسنت ، من غير سلك ، يشعل بأمرها ، يطفى بأمرها .. ترفع المصباحين .. تدور بهما ، ظهرها وبطنها محاطان بالترتر المتراقص ، وصدرها عليه شعرها منسدل ، أصفر كالذهب ، أو لعله اسود كالابنوس . مرزوق عيونه دامعة . ولون شعرها مه زائوية أصفر كالذهب ، ومن زائوية اسود كالابنوس .. ينسدل ويستطيل ليصل الى الفخذ ، ثم ينحسر وهى تدور .. فهل يتغير شكلها ؟ نفذ رأسه وضيق عينيه . آه لا بد من الاقتراب !

جذب الحمار وشق طريقه فى سخونة الزحام .

قال سفروت : بص بص يا ولد الرجل المهكع هذا .

— هذا فقران . تلقى معه ثلاثين قرشا فى محفظة

سبعة أدوار ..

— بص بص .. دا خلصان خالص ! اسمع .

لا شأن لنا بفلوسه . المهم الحمار . حمار يساوى عشرين

جنيها • لا نطلع من المولد بلا حمص • تعال • قرب •
جذب مرزوق الحمار الذى أخفاه عن عينيه الزحام ،
فناداه : قرب يا حدق • • بص يا حدق !

وصاح شاب فى الميكروفون :

— قرب • • قرب • • الأميرة المسحورة • العجوبة
الغندورة • تشعل بالكهرباء • تشعل من غير كهرباء •
بقرش تعريفة • ادخل يا جدع • تشعل المصابيح
باللمس • جسمها يضئ بقوة الكهرباء • طريق للداخل
وسع طريقا للداخل • قرب قرب !

خاطر مجنون • • خلع له سفروت المقود من حول
عنق الحمار ورماء حول عنق رجل قصير سمين جدا
جحظت عيناه المتطلعتان للأميرة المسحورة • • وسرعان
ما انسل اللسان بالحمار ، وسفروت يدمدم ساخطا :
— الله يلعب أبو الشغل • • فاتنى منظر المهزلة
التي ستقع !

الأميرة ماتزال تدور ، تشعل مصباحا وتطفىء
مصباحا ، وترمى نظراتها على جمع لاهث ، شعرها
يتهدل وترميه لليمين واليسار • • ذهب وأبنوس !

ملابسها الملونة كأنها بقوة سحرية تنكمش أو تنحسر
فيطل من تحتها لحم مشدود بالكهرباء • يجذب مرزوق
المقود دون أن يتلفت :

— شى ! حيا يتبع الكلب شى !

والرجل السمين جاحظ العينين جحظت عيناه أكثر،
وانتبه الى أن الشيطان قد تمكن من عنقه يخنقه ، فرفع
يديه الى عنقه يتقيه ، فأمسك بجبل مشدود حول عنقه ،
جذبه فانجذب • • شده بقوة استمدها من ذعره ، فاذا
هو وجها لوجه أمام مرزوق ! • • مضت دقيقة قبل أن
يفهم كل منهما الموقف ، ويتأكد ان الجبل الذى فى يده
ينتهى الى يد الرجل الآخر • دقيقة كهوة انكشفت فجأة ،
فهوى بها الاثنان ، ليصرخ كل منهما فيرمى بالشرر فى
وجه صاحبه ، ثم بدأت اللطمات والقبضات معززة
بالصیحات واللعنات • فى زحام مغلّق المسالك تماما • •
فكل رجل أصيب رد العدوان بالعدوان، وأنبتت الأرض
العصى ، بل والكراسى هنا وهناك • وتفجرت كتلة
البشر • والتقط الميكروفون بالصدفة صرخة الأميرة
المتفجعة حين أحست بالمنصة تميد من تحتها ، بينما
الميكروفون يجار بصیحات الشاب المعلن وقد لصقه بقمه
المفتوح يصرخ فيه :

— الرحمة يا عالم ! النصبه تنهدم ! الحقونا ..
صرخة الميسكروفون أقامت المولد كله على قدم ،
لحقت سفروت وأخيه فحثتهما على مضاعفة السرعة ،
والحمار بينهما ، عبر السكة الزراعية ، والقناة ..
ليدركا كثافة الذرة ويختفيا بها . لكن الحمار ما أن
رأى القناة ، وجدار الذرة الكثيف رأى العين ، حتى
أصابته كما أصاب المولد لوثة هلع - فمد ساقيه الأماميتين
ومال بثقله الى الخلف والاخوان يجذبانّه ويدفعانه ..
من أذنيه ومن مؤخرته ، واستل سفروت من ملابسه عود
توت رقيق وانهاهال به على جسده بوحشية ، فانفجر فى
أذنيه صوت صارم :

— قف عندك . ارجع يا مفترى ! ..

نظر الاخوان .

فاذا بكاتب الشفخانة والشرطى يجريان نحوهما
ويلوحان ويصيحان كالمستغيثين برزق حل لهما .

صاح سفروت :

— شى يا تبع الكلب !

والشرطى يصيح :

– ارفع يدك !

صاح أخوه : بنا !

خليا الحمار وقفزا فوق القناة واقتحما الذرة
كصاروخين •

وقف الشرطي والكاتب يجفغان العرق حول الحمار،
قال الأخير ساخطا :

– طيرتهما يا فالح •

– اصبر شويه ، لابد سيرجعان •

– وان لم يرجعا ؟

– لا يرجعان ؟! يكونان سارقينه ••

– والعمل ؟

– أنا عارف ؟ يوم مهيب من أوله ! ••

التفتا ناحية الصباح والضجيج • فرسان الشرطة
قد أحاطوا بالزحام المتفجر وانهالوا على كتلته بالسياط،
بينما الصفارات تتنادى •• وفوق الرؤوس ماتزال
الكراسى تتطاير ، والعصى والنباييت تتقاطع باصرار •

– لا حل الا ان نأخذه الى قسم الشرطة ونحرر
محضرا بالواقعة •

– وما فائدتنا من ذلك ؟

– يعنى نتركه للصوص ليسرقوه ؟

والمركز سيعلفه ؟

– سيحوله للشفخانة وخلص •

– زبون وسخ !

وانهال الشرطى على الحمار صفعا ••

– ياللا يا وسخ • اتفوه عليك ! ••

وجذبه من أذنه • فمن عجب أن الحمار انقاد له

بيسر وهدوء •• نحو قسم الشرطة • أما سفروت

وأخوه رمى كل منهما نفسه على الأرض بين أشجار

الذرة يلهثان بشدة :

– والعمل يا ولد ؟

– كنا تحايلنا عليهما بخمسة قروش وخلص ••

– وان فتعوا لنا سين وجيم ؟

– عليه الموض ••



فضت الشرطة كتلة البشر المتفجرة بعد أن تحطمت
المنصة وكراسى المقهى المجاور .. وتفرق الناس ،
ومرزوق على بعد مجروح الرأس قاعد على الرصيف
بيده مقود فارغ ، وعيناه أفرغ ، تحملقان فى غير
الموجود .. كأنه وحده فى الظلام تحت شمس ساطعة .

قال له عابر سبيل :

— حظ بلاغ فى قسم الشرطة .

رفع عينين دامعتين ، وقال بصوت لم يسمعه أحد :

— ان حظيت بلاغ فى الشرطة تهرب به الحرامية
للصعيد .. يا خسارتك يا حدق !

وجرف شعور بالفقد صدره وأحشائه فى قسوة
.. بينما اقترب منه الصبية وأحاطوه بصيحات منغمة
عابثة :

— يا رجل يا عجوز منخارك قد الكوز !



قال لى رواة الكفر ان الحمار اذا سرق فى الأرياف،

ياخذه سارقوه الى « المصبغة » حيث يقوم الصباغ بتغيير
لونه ، ويصعب بذلك التعرف عليه .

فواعجبا لذكاء الانسان في ابتداع كل أنواع
الحرف !

الفصل الثالث

فى الظهر كان سيد فى الغيط حين دق قلبه دقتين
قويتين ، فقال : اللهم اجعله خيرا ..

فى العصر استبد به قلق غير مفهوم ، فأخذ يتجول
فى دروب القرية ناحية مدخلها ويحدث نفسه :

— نصحتك يا بابا فلم تسمع لى • غلطتى انى تركتك
تروح • طيب وكنت أعمل ايه ؟

— انت بتكلم روحك يا سيد ؟

— أبوى طلع المركز وغاب ..

— انت خايف عليه ؟ هو عيل صغير ؟

— نعم عيل صغير • الرجل كبير وأصبح طفلا •

ترك محدثه ومضى ..

ود لو تحدث الى زينب ، ولكن خشى أن يكون فى هذا مظهر ضعف نحوها - خاصة بعد أن تفاصما حول المهر الذى تطلبه أمها . كم هو وحيد !

واعترته مشاعر غامضة نحو أبيه ، حب وكراهية .. خوف عليه وخوف منه .. وقلبه مايزال يشفق أن يعترف انه آن الأوان ليسوس آباء سياسة الأكبر للأصغر !

ينخطر له هذا الخاطر فيكون له وقع الكابوس .. ينفضه من رأسه ويستعيد بالله .. الآن وجد نفسه أمام المسجد ، وقد وجبت صلاة المغرب ، فدخل وصلى ثم عاد الى الدار .

ضاقت به الدار فخرج الى الدرب وفرش قطعة حصير وقعد . بعد قليل شعر بضيق وتوجس : أى مصيبة يمكن أن تكون وقعت لأبيه ؟! اللهم اجعله خيرا ..

طرد وساوسه وخرج يتمشى ويدقق النظر فيما تسفر عنه أستار الليل الهابط .

أما مرزوق فقد عصره شعور بالخيبة واحساس
بالكارثة لم يدع فى مشاعره ما يآبه به لعبث الأطفال
حوله ٠٠

شئ يحفر فى جوفه ، يجرف قلبه وأمعاه ، وشعور
بالعجز ٠٠ أعماه وأصمه وأخرسه وأفقده الاحساس
بما يجرى حوله ٠٠ ومع ذلك فمن غير أن تتحرك مقلته
كان يتفقد أعضاءه وينكرها ٠٠ هذه يدى ؟ التى طالما
ضربت بالفأس وأنبتت الخير ؟ وهذه قدمى التى دارت
فى البلاد والأسواق وسعت للفلاح والخير ٠٠ ؟ هذا أنا
مرزوق أبو سيد الذى أنجب الأولاد وعلمهم الزراعة ،
واختارهم الله الى جواره الا واحدا ليختبره ولينجيهم
من مختلف الأمراض التى صمقتهم آلامها ٠٠ فتجلد
وصبر ولم ير رجل فى الكفر دموعه على خده ؟ ماذا
جرى له يتمنى الآن أن يجهش بالبكاء بديلا عن لقاء
ولده وجها لوجه ٠٠ وأن يقول له : «عوضك على الله» .
فيقول الولد بكل امتثال : «بركة الى انت سالم ياابا» .
ولكنه رأى بعين رأسه سيدا آخر يقول فى نفس
الوقت :

— انت خبت وخيبتنا ياابا معك !

فقسمته السكين نصفين ، وحزت في لحمه فسقط
في بركة من دمه • نهض مذعورا • • توجه نحو القرية
• • ماشيا أول الأمر ، ثم تذكر « الحديق » فألهب قدميه
شيء جعله يجرى ، بخطوات قصيرة سريعة ، كخطو
الحمار ! • • وانهمرت دمعتان على خده ، أحس بهما
احساس اليقين وهو يتخيل عصا توت رفيعة تجلد الحديق ،
وأحس سياطها على جسده هو ، فأغمض عينيه غير
مصدق • •

ولم يتمهل مرزوق إلا حين وجد نفسه في أزقة
القرية المظلمة • • آفاق فجأة ، فإذا الشجر كله يحتويه
ثانية ويشل حركته فيقف • أخذ نفسه واقترب من
الدار • رأى سيدا كالشبح واقفا • • حديق كل منهما
في الآخر منكرا • •

صاح سيد فجأة :

— جرى ايه يا بابا ؟

— عوضك على الله يا بنى • لا تفضب !

— الحمار ؟ !

— لكن الفلوس معى (قدم له المحفظة بيده)

الحمد لله ..

لم يمد الولد يده للمحفظة •

— ضيعت الحمار يا با ؟!

سقطت المحفظة على الأرض مع صيحته .. وصرخ

مرزوق :

— سرق منى • الشدة يا بنى !

— طيب والله مالك بيت فيها ان لم تجى بالحمار •

ضيعت الحمار وجاى تستعوضنى لاجل اشيل أنا بدله ؟!

يا ليت كان الحمار ضيعك وجاءنى • يا ليت كان هو

ضيعك وجاءنى !

— هكذا يا ولد هكذا ؟!

— والله مالك بيت فى الدار الليلة ان لم تجى

بالحمار !

— هكذا يا ولد هكذا ؟! هكذا يا ناس هكذا ؟!

خفت صوت مرزوق وارتاع ، اذ رأى كأن قوة

خفية قادرة تسحب الولد من أمامه .. ثم أدرك ان نفس

القوة القادرة تشعبه هو أيضا الى الخلف ! ورغم ضيق

الموقع الذى يقفان فيه ، فها هو الولد يبتعد وصوته
يخفت .. وها هو نفسه يتراجع كالمجذوب ، والمسافة
بينهما تتراعى ..

دهمه الاحساس بالشيخوخة المعينة ، كأنها حجر
سقط عليه من حائق ، وأحس أن رجليه اللتين حملتاه
من المركز تخذلانه .. ولم يعد يرى .. تاه عن نفسه
وعما حوله الى أن سمع صوته ذاته ، متهدجا ، واستغربه
كأنه يسمع صوت رجل آخر لا يعرفه ..

— ابن ظهري يا حضرة العمدة طردنى !

— طردك ؟! طردك من دارك ؟! تكلم ! ..

أفاق مرزوق نصف افاقة ، وتلفت حواليه ..
ها هو العمدة فى مضيافته يرمى بعينيه الشرر وشيخ
الخفراء والحاج وأبو سويلم والخفير ، وضيف غريب ..
ولكن كيف جاء هو الى هنا ؟!

— تقول طردك ؟!

تلثم مرزوق واضطرب ، :

— اصل أنا ضيعت الحمار .. سرق منى يا حضرة

العمدة فى سوق المركز • أولاد الحرام سرقوه •• ابنى
قال لى ياليت الحمار كان ضيىك وىاءنى •
ومع ان العمدة لم يهتز فى حىاته كىها لمصيبة فلاح ،
فانه الآن ىنتفض واقفا وىصىح :

— أهى حصلت ؟! الولد ىطرد آباءه ؟! البلى راحى
خلاص ؟! أولاد الوىم ىتهجمون على عظمى بىه نفسه ،
ىشتمون وىطردون آباءهم ، لا ىنصاعون لأى حكم ••
رح هاته ىا خفىر ! •• والله عال • عشنا وشفنا !!
قال الحاج :

— لا •• والشحط طايى فى البلى ، ىتهجم على
الغلبان ىسرق حماره ، وىتهجم على شىخ الخفر نفسه •
صاح شىخ الخفراء :

— الله ! انتم مالكم سىرة غير سىرة شىخ الخفر ؟
عملتم منها حكاية ؟! ••

وفى جو التصايى حضر سىد فى القاعة ، وكان
مرزوق أسبق الى الكلام بعد ان زلزل صىاح الموىوڊىن
جنانه ، فقال ىحاول تدارك الصدام بتلطىف الجو :
— ىا حضرة العمدة سىد ولد طىب ، لولا ان الشىطان
شاطر ••

— ما العبارة يا ولد ؟ طردت أباك ؟!

قال سيد :

— لا تتدخل بيني وبين أبي يا حضرة العمدة .

صفعة دوت على وجهه نثرت الدموع من عينيه .
فكان العمدة قد نجر القاعة كلها بكفه !

في لمح البصر ، كان مرزوق قد اختفى لم يطق
الموقف ففر ، وسمع سيد قبل أن يفيق من الصدمة ،
صوت العمدة :

— اجر وراعه يا ولد .

— انتم تريدونه ؟

ولفح هواء الليل البارد وجه سيد ، ونداءات كأنها
من عالم آخر ، زغم انها ثصك أذنيه ، تتقاطع حوله :
— يا مرزوق يا أبا سيد .. يا مرزوق يا أبا سيد ..

ولم يدز هل هو دائخ بالسخط والغضب ، أم
بالهلع أن يفقد أباه .. جرى هنا وهناك مع من
يجري .. وكل رجل وقع نظره عليه ، وكل موقع نظر
فيه .. استغربه !

وقع فى نفسه فجأة انه فى بلد غير البلد ، وبين
ناس غير الناس ، ولأول مرة منذ سنوات يزفر من
اعماق قلبه كطفل . .



من ذا يستطيع أن يفسر ما وقع من العمدة ؟ . .
حدثنى الرواة أن مثل هذه الشكوى تثير عادة فى
،جلسه روح الفكاهة والدعابة ، لا تثير روح العنف –
حسب ما يعرفونه عنه .

وحدثنى الحاج ، وقد كان حاضرا مع ضيوف
العمدة يرحبون بكاتب الجمعية التعاونية لكفر سمعان،
ويستفسرون منه حول شئون تهمهم . .

حدثنى انهم لم يثيروا أبدا فى جلستهم تلك الليلة
الأحاديث التى صارت توتر جو القرية فى الأيام الاخيرة
فلم يتحدثوا عن الانتخابات ولا عن الشحط ولا غيره .

وكان الحاج قد تلقى منذ أيام خطايا من ابن عمته
أحمد أفندى الموظف بالقاهرة – وهم يعرفونه – وفيه
انباء استغريها ، فأراد أن يرفه عن المجلس بها . .

كان الولد ابن أحمد أفندى – يعرفون طفولته

لشقاوته - قد سافر الى امريكا مبموثا ، وتقطعت
أخباره ..

وما هو يبلغ أباه أخيرا أن بعثته انتهت ، وأنه
أرسل خطاب استقالة من وظيفته بالجامعة المصرية ،
وقرر الاستقرار في أمريكا .

يقول لأبيه : لا تنزعج لاستقالتي فقد وجدت
وظيفة هنا كمهندس بترول بمرتب قدره ألفا دولار في
الشهر .

ران الصمت والتمعت العيون فأعاد قراءة الرقم :
« ألفان » .. ضحك الجميع ، يدارون دهشتهم ،
وسألوا : يعنى كم ؟

سرعان ما أخرج كاتب جمعية كفر سمان من جيبه
نوتة ، دون أن يكون أحد قد خصه بالسؤال ، وأخذ
يحسب الحسبة بعد أن أعلنهم أن الدولار يساوى سبعين
قرشا « بفلوسنا » . فلما أنكروا ذلك غير مصدقين ،
أقسم لهم .

حينئذ تتالت التعليقات والضحكات ..

– أول مربوط الشهرية ألف وأربعمائة جنيه ؟
هذه لم يأخذها الملك فاروق في زمانه !

– لالا لا . . اطلع الدولار هنا غير الدولار في
بلاده . . يكون الدولار هنا أغلى .

– تعرف يا حضرة العملة ، ان كان هذا صحيحا ،
يكون أيضا بنزين أمريكا الذى يشتغل فيه ابن أحمد
أفتدى شيء ، وبنزين البلد هنا شيء ثانى . .

– يا سلام !

– ايوه . كالفرق بين الماء الوسخ الذى يجرى في
الترعة قبلى بلدنا ، وماء النيل الذى يغنى له محمد
عبد الوهاب .

وبين الضحكات التى انفجرت فى عصبية دخل
مرزوق يشكو ابنه بسذاجة ، ويتحدث عن سرقة حماره
الاعرج . . فتدهور الموقف بلا سابق انذار ، وعلى
خلاف أى توقع !



بعد انقضاء الحاضرين ، وفى الطريق الى البيت
أخذ كل منهم يهز رأسه عجباً مع الآخرين ومن نفسه .

أما العمدة فقد دلف الى داخل بيته فوجد بناته
الثلاث ورؤوسهم تكاد تتلامس ، ملتفات حول الراديو
الترانزستور الذى يضعه على منضدة الى جوار فراشه ،
وصوت مغنية يلعلع : «قطعنى تحتت . . أنا ملك يديك» ،
فصرخ صرخة أرعبتهن فنفرن الى غرفتهن ، وأسكت
الراديو وهو مازال ينتفض ويصيح :

— سأؤدبكن يا اتباع السخرة ! أعوذ بالله من ذى
الفناء ومن ذى البلد ! أعوذ بالله . .

الفصل الرابع

تناهت الى أسمع مرزوق وهو يجرى فارا من البلد
صيحات الباحثين عنه :

« يا مرزوق يا أبو سيد » • كأنها آتية من عالم
آخر • • بعيدة • • غير ذات معنى • •

رمى بها ذهنه خلف ظهره وهو يحتشد للتركيز في
قضية واحدة : العثور على الشحط فورا •

ومظان الشحط معروفة لأهل الناحية • انها نفس
المواقع التي يحذر الفلاحون بعضهم البعض من سلوكها
في الليل لأنها أوكار اللصوص •

كان مرزوق يجرى ويسمع أصداء خواطره التي
تجرى معه .. يسمع نفسه يقول :

— قطعت يعنى أرزاق الخلق يا شحط ؟! نهبت
الحكومة .. نهبت الأهالي .. والآن تنهب مرزوقا
أبا سيد فوق البيعة ؟! لكن أنا لها ، يكون فى علمك .
أنا سالكاك ولو كنت فى طاق تحت الأرض . دا أنا
مرزوق .. وحمارى « الحديق » عزيز وغالى . لا بد من
قصر وسطهم يا كفرة . طيب يا عصابة .. طيب
يا شحط . أنا وانتم والزمان ..

الآن اندفع يصرخ كان فى حلقه شيطانا .

— يا شحط ! دا أنا مرزوق أبو سيد . اخرج
أقول لك .. يا شحط !

كان وابور الطحين العتيق المهجور يردد صدى
صيحاته ولكن لا ينبس . شبح مخيف من العمارة الخربة
فى الليل تصفر فيها الريح ، وتجرى صيحاته بين
مداخلها الفامضة المظلمة ، فتردد وقد اكتست مع خراب
العمارة وحشية ووحشة ..

ارتعش مرزوق قليلا ، وشمل المكان بعينيه وأنصت

.. لم يسمع الا خشخشة صدره اللاهث ، ارتد على عقبه وجرى كما جاء ، رجلاه تسبقان عزمه ، وعزمه يسبق رجليه .. الى المقابر الأثرية !

هنا ترتفع الكيمان فوق مقابر المصريين القدماء .. منطقة آثار مات فيها مفتش الآثار بمرض غير معروف فأغلقت مؤقتا ، ولكن الرجال فى الكفر والبلاد المحيطة به يتحدثون الليالى عن الكنز المرصود تحت خرائب الكيمان . وعن منامرات شباب مخاطرين اقتحموا مدينة الموتى ثم اختفوا بأكوام من الذهب .. انتقلوا الى بلاد بره لينعموا بالثروة . وفى قول آخر اختطفهم الجن ، ملعونين من الفراعنة ، ليتعذبوا فى جحيم لهم تحت الأرض حتى يموتوا مشوهين !

وقف مرزوق . قلبه يدق بالخوف :

— يا شحط ! أخرج أقول لك . أنا مرزوق أبوسيد
يا شحط ! أخرج أقول لك ..

أحس بصوته يهب كالنسيم فوق الخرائب يتخللها ببطم وفى نعومة كزحف الديدان ، ثم يبتلمه الظلام فلا يرتد اليه .. ارتعش ، لكنه انصت بانتباه ..

ثم جرى • الساقية المهجورة قبلى الكفر •• جرى
الى هناك •• شبعها فى الليل •• على هيئة خير باد ،
وانس تحطم ، وحياة جف ماؤها •• مثيرة للشؤم •
ثلاث مرات ينتشلون جثث القتلى مع بثرها •• أضواء
النجوم البعيدة تلمع وتبدى وتخفى أجزاءها لتصنع
منها صورة مقبضة ••

— يا شحط ! اخرج أقول لك •• أنا مرزوق ••
أخرج أقول لك • يا شحط !

همسات الأرواح المزهقة •• ثم لا شيء ••

جرى ••

الآن بحذاء التربة ، عن يمينه الماء الجارى ، وعلى
صفحته لمعة ثابتة ترافقه •• ضوء نجمة ، يتلأأ ويجرى
بحذائه كأنه عين جن ساهرة •• شرثرة فى رأس غازية
يرتعش جسدها على ايقاع مجنون ، تهتز الا انها ثابتة
اللمعان • أخذته موجة من العطر النفاذ • الذرة
الطايب ، حوله ، أمامه ، خلفه ••

أحس بألم الجوع ، وبالشلل يسرى فى رجليه •
أحس انه فقد الشعور بساقيه ، انهما انفصلا تماماً

عنه • غاب قليلا ثم ارتد • • وامتدت يده بغير ارادته
فانتزعت كوز ذرة •

طلق نارى لعلع فى الليل •

انبطح مرزوق على الأرض اذ قفز فوق كتفه تماما
ذئب ذعر فجأة ، واذا بهما ، مرزوق والذئب • • كل
منهما انبطح فى خور على جانبى المدق المرتفع • • لحظة
ترقب • • ثم جرى كل منهما مستترا بالمدق • • فلما
اצל كل منهما يستطلع • • رايا نفسيهما وجها لوجه !
يلهثان ، مرعوبين • • انبطحا وواصلوا الجرى فى الخورين
ثم توقفا • • لانامة • • اطلا - وجها لوجه ! عوى الذئب
من الروع والدهشة وألقى بجسمه الى الوراء متمرغا ،
بينما فتد مرزوق النطق ورمى نفسه على ظهره فرأى
النجوم • • لعلعت طلقة نار فقفز الذئب من فوقه عبر
السماء الواسعة ، ودفعه بقدميه وهو يجرى الى داخل
كثافة الذرة •

حبس مرزوق أنفاسه وجمد • • حينئذ سمع فلاحين
يتحدثان فوقه مباشرة :

— أظن انه حراسى •

— ذئب • أنا شفته بعينى • جرى من هنا •

— ذئب أو حرامى • لابد من صيده • لك يوم
يا حرامى الذرة يابن الرضى •

ما أن أحس انهما ابتعدا حتى قام يجرى ، كان
كوز الذرة مايزال فى يده ، ولكنه يريد أن يبتعد بأسرع
ما يمكن • • وسمع نفسه بين لهائه الثقيل يقول :

— يقطعك يا زمن • • تبرك الجمل وأنا أصبحت
بك رزية • الحمار أنفع منى صحيح • لو كان الحمار
ضيعنى أنا ، ولا أنا ضيعته : كانت هانت على الولد
صحيح • الحمار يساوى أكثر من زرة الذرة فى غيطننا ،
وأنا لم أعد أقدر أضرب بالفأس • •

وغاب عنه صوته تماما • • شفتاه تتحركان الا أن
صوتا لا يصدر عنهما • وملأ ضوء القمر المكان الذي
اتسع أمامه وانفسح ، وطاب النسيم • ثم فجأة • •
حماره ! الحمار أمامه • • يتلفت فى اختيال ، يتدلل ،
ينفر منه • • ينقض عليه مرزوق : « يابن الرضى !
يا حدق يابن الحلال ! » • • يحيط عنقه بذراعيه وتكاد
تفر الدموع من عينيه ، ثم يسرع يفحصه • • ساقيه
ذيله • • سليم تماما ، أفضل ربما مما كان فى الصباح •
اهتز من الطرب وطرح نفسه فوقه وهز رجله وصوته

يتهدج بالفرح والطرب : « شى • شى يا تبع الكلب • •
الى سيد ، شى • • »

وضحك منه وهو يستدير دورة كاملة ، ثم ينطلق
الى السكة الزراعية حيث لوقع حوافره على الأسفلت
رنين ، يسرع ، يبرطع بحرية ورعونة • • « هس !
هس ! • • » يقمص ! • • ومرزوق يتشبث به • •
يضربه بقبضة يده ، يلطمه بصفحة كفه • • فيتمادى
الحمار فى عفرفته • ثم يقفز فى الهواء ! ويميل كأنه
سيسقط على الأرض ، ولكنه • • (بسم الله الرحمن
الرحيم » • يعلو الحمار فى الهواء ، يطير بغير أجنحة ،
يتمايل أيضا ، يصرخ مرزوق وقد احتضن عنقه بذراعيه
من الذعر وأدرك انه الحمار المفريت !!

تماما فى السماء • • وقلب مرزوق غاص تماما
فى جوفه ، وهو يتلثم ويتعمد • الآن أزمع الحمار ان
يلقيه الى حتفه ، يقمص بشدة ، ومرزوق يتشبث بأمل
خائر • • آه ! يسقط من حلق • • الى الأرض ! ارتطم !



— قم يا ولد •

صوت صارم خشن ، فتح مرزوق عينيه فوجد فوهة
بندقية سريعة الطلقات تكاد تخرق عينه •

– ما جاء بك هنا ؟

رجل آخر • الاثنان ملثمان ، عيونهما حادة ذات
بريق نافذ •

– من ذا ؟

صوت آخر ، لم يبد صاحبه •

– أنا أخليه ينطق !

حذاء على عنقه • يضغط بالتدريج • انتفض
مرزوق وجاهد عبثا أن يزيحه ••

صاح صيحة مكتومة :

– انتم من ؟

– يسألنا ؟! وفي يده قبيلة يدوبة !

– طخه !

صاح مرزوق : دا كوز ذرة •

ورماه ، فتجاوبت الضحكات • • بيد خفيفة عاد
فالتقطه •
- هاته •

حملته يدان كالزكية ، من جلايته • كاد يندلق
من الجلاية قبل أن يغلياه فيسقط تحت أقدام الرجل
الثالث ، ويفزع قاعدا • • هذا الرجل سافر الوجه ،
مدجج ببندقية وحزام طلقات • نظرتة نارية • هو !
- الشحط ؟!

- انطق !

ركله فى ضلوعه • •

- أنا مالى صالح بكم • أريد حمارى الذى سرقتموه
منى فى المولد اليوم • أريد حمارى •
تجاوبت الضحكات • •

- لما انت حمار وابن حمار ، كيف يضيع لك خمار
يا وجه الخسارة ؟
- اربطوه •

أمر الشحط • أيد كثيرة وحبال كثيرة ، بسرعة
خاطفة كان كباله القطن ذات الشناير ، محكم الوثاق •
أما صيحاته فقد اختصرتها صفة على فمه أسكتته قال
شاكيا :

— أنا مالى صالح بكم ، أريد حمارى يا حرامية
يا أولاد الكلب • •

— أطنخه يا معلم ؟

لم يجب المعلم فعاود المتحدث :

— اسكت لأطنخك •

انقلب مرزوق على جنبه ليتقى قليلا حز الحبال فى
جسده • ومن موقعه رأى وسمع الآتى • •

صوت سيارة بعيدة ، انتبه لها الجميع ، فباشارة
الشحط حمل أربعة رجال شجرة مرمية الى جانب الطريق
ولها حمالات مع الحبال •

بدت كشافات السيارة القوية ، اقتربت • • فجأة
قفز الرجال الى السكة الزراعية ورموا بالشجرة فى
عرض الطريق ، فرملت السيارة بعنف المفاجأة وفتحت
أبوابها ، ولكن البنادق أطلقت أمام كل باب • •

- لا أحد يطلق النار .
- الصوت كان داخل السيارة .
- انزل تحت !
- صوت أمر من الظلام .
- نزل أربعة ركاب فنزعت أسلحتهم فى همضة عين وأوقفوا الى جانب بعضهم .
- عظيم بيه بنفسه - خرجت عينا مرزوق من الرهبة - ومستجير أفندى والخفير والسائق ..
- فتشهم .
- دس عظيم بيه يده فى جيبه بكبر ، ورمى محفظته على الأرض ، توقف التفتيش .
- ارفع المحفظة من الأرض يافندى . أقول لك ارفع المحفظة !
- وتقدم مسلح آخر :
- يقول لك ارفع المحفظة يعنى تطاطى وترفعها من الأرض . فاهم ؟
- وطوح يده فى الهواء ليصفعه . ولكن يده علقت .

– قف عندك !

الصوت الأجوف الباتر • • صوت الشحط – تقدم خطوة وقال بلهجة كعبوة البارود :

– انت لا تعرف البيه يا ولد ؟ دا عظيم بيه يا حمار !

– عظيم بيه ؟!

اضطنّع الولد الدهشة بلهجة تمثيلية مقصودة الركافة •

قال عظيم : انت الشحط ؟

– محسوبك ومن رجالك يا بيه •

الا أن لهجته لم تكن تنم عن معانى الكلمات •

– تفضل يا بيه لا تؤاخذنا • تحب نوصلك للعمار ؟

.....

رد عظيم على الفور :

– المحفظة لاجل الرجال • أما انت فنصيبك المتفق

عليه حاضر فى السراية • ابعثلى رسولا غدا لاستلامه •

– يا بيه الدائرة دائرتك ، اطمئن ، لكن قوة الأمن

التي جاءت أمس من المحافظة ستعكر الجو • •

– القوة ترجع غدا • أنا فاهم • ياللا يا رجال •

منتظر! أحدا من طرفك فى السراية • •

– بالسلامة يابيه • ارفع الشجرة يا ولد •
رفعت الشجرة فى التو ، وانطلقت السيارة ••
ضحك الشحط وقال :

– تفهمها وهى طائرة يابن الباشوات !
وتجاوبت الضحكات تلمع فى الليل ••
– قم ••

ايد كثيرة رفعت مرزوق ووضعت على قدميه
ودفعته فصار يحجل فى رباطه وهم يضحكون ••
– فكوه •

مشوا ميلا حتى وصلوا الى تبة ضرب النار
المهجورة ، حيث كان المعسكر الانجليزى القديم فوق تل
رمى مليء بالنسخ • قعدوا الى جوار حائط الضرب ،
ونشط أحدهم لاشعال النار وعمل الشاى •
– اشرب يا ولد •

قالها الشحط فامسك مرزوق بالكوز ممثلا خائر
العزم ، وقبل أن يرشف الشاى السخن قضم من كوز

الذرة • وبعد أول رشفة شعر باسترخاء عجيب واشتهى
أن ينام •

قال الشحط :

— حمارك ضاع منك أين ؟

— فى المولد البارحة •

قال أحد الرجال : لم يفت الولد سفروت واخوته •

سأل الشحط :

— الغلة كم ؟

فتح الرجل محفظة عظيم بيه وعد النقود :

— ستون جنيها وأربعة وثلاثون قرشا ••

— أقسم على ستة •

قالها بحزم • فرد الرجل :

— نحن خمسة فقط يا معلم •

— كيف ؟ والولد تبع الحمار هذا ؟

فاستنكر الرجل :

– هو شال سلاح والا قضى أى شغل ١٩ هذا كان مكتفا !

– مادام اطلع على الواقعة انقسم له نصيب فى الغلة • تريده يغوننا ؟

– أنا أقسم وسطه •

قال مرزوق : أنا لا أريد شيئا • أنا أريد حمارى -
قال الشعط :

– يعنى ستخوننا يابن اللئيمة ؟

– لم أر شيئا • لم اسمع شيئا ••

– رأيت وسمعت وانقسم لك نصيبك بالعدل •

إذا رفضت أن تؤاكلنا تكون نويت الشهادة علينا ••
اقسم على ستة !

قال حامل المحفظة :

– تعرف الواجب يا معلم •

– أعرف الأصول • الأصول عدل •

دفع الرجل فى يد مرزوق أوراقا نقدية ، انكملت
يده التى لم تلمس الحرام أبدا !

رفع عينيه فلفحته نظرة نارية جعلته يقبض على النقود ، لكن عينيه اغرورقتا بالدموع ، فأطرق برأسه المنهك . . . ومال فاضطجع على جنبه ، انصرف الجميع عنه ، فومض بذهنه الهام . . . حفر فى الرمل بهـدوء تحته ودس النقود فى الحفرة وردم عليها ، ثم صرخ . . . اذ رفع كفه ورأى على ظاهرها سحلية كبيرة تجرى وترمى نفسها على الأرض .

ضحك الرجال . وقال الشحط :

ـ ولد يا معروف . الصبح بكره تاخذ الرجل الى سفروت يرد له حماره ، وبعدها تروح السراية تقابل البية وتجى بالأمانة .

قال معروف متأففا :

ـ حاضر .

وقال مرزوق :

ـ يعنى سفروت يرضى يعطيه لى ؟

ضحك الشحط ورد بصوت أكثر ودا :

ـ طول عمرك ستظل حمارا .

ورقد الجميع يحتضنون البنادق .

الفصل الخامس

سمعت هذه الحكاية فى قرية « كفر آمون » أمام
الدكان على ضوء فتيلة خابية ، وسمعتها فى دوار
العمدة ، وسمعتها فى غيط الحاج عطية وأنا أشرب
الشاي فى يوم شتاء مشمس ..

وأشهد انى لم أسمعها مرتين بصيغة واحدة •
والقرية المصرية عاقدة مجلس شبابها وفقائها
كل مساء فى الضوء الخافت جنب الدكان تثرثر •
وعاقدة مجلس كبارها - اعتبارا - فى دوار
العمدة حول مصباح الجاز الطنان ، لا تكف عن الأحاديث
والتندر ..

ومع ان القرية شديدة الاحتياط عن الخوض في
أحداث السياسة والتاريخ أو التندر بالكبرياء ، فهي
تنطلق في رواية الحكايات الشخصية وتطلق سنكاتها .
وللفلاحين أسلوب في صياغة الأحاديث والحكايات
يعبر مثلى من الكتاب .

كل حكاية عندهم تبدأ « واقعية » .. ثم تصوغها
الثرثرة ، ويشكّلها الترديد بفنون التزيك والحذف
والتوفيق والتلفيق وتزاحم فيها الخرافات الحقائق حتى
تكاد تخرج عن أصلها وواقعها لتصبح فنا خالصا .
مقصودا به الامتاع الفنى الخالص ..

والعجيب ان السامعين ، الذين يعرف معظمهم
أصل الحكاية ، بل وحتى من كانوا أطرافا في وقائعها ،
لا ينكرون هذه الصياغات بالاحتجاج العابر ، والانكار
غير القاطع ، الا اذا كان التعريف من شأنه أن يمس
هيبتهم ..

ثم يتندرون على أنفسهم مع المعندين .. بعد
ذلك ! ما علينا ..



فى الصباحت افتقد سيد أباه ، وحز فى جسمه
ونفسه انه أغضبه حتى طفش من القرية •

– أين أخفى وجهى فى البلد ؟ لا أحد يقرأ ما فى
قلوب الآخرين • هم !

سأصير معيرة للناس جيلاً بعد جيل •• (ثم يعتريه
الغضب من زينب وبهانة) هما السبب !

هكذا بكر من الوصول الى حيث تملأ البنات الماء ،
ولقى زينب بوجه مربد • ورمى اليها الكلمات كأنما
يزيح عن قلبه ثقل الرحى :

– انت يا بنت • قولى لأهلك تفرح ! الحمار ضاع •
وأبوى لاجل تتم المتمة من البارحة طفش من البلد •
خليها تزغرد بقى !

روعت زينب صاحت كأنها تولول :

– وانت واقف يا سيد بدل ماتروح تفتش عنه ؟
واقف هنا تحكى ؟

– أفتش عنه أين ؟ أتسرق وخلاص • ما عدنا
نلقاه ثانى •

ولولت : انت تتكلم عن الحمار يا مضروب فى قلبك ؟ أنا أقول عن أبيك •

ارتبك قليلا : أنا زهقت خلاص •

— وانت ان لم يكن فيك خير لأبيك ، يبقى عندك خير لأحد • أنا عارفة بختي المايل • بختي مايل طول عمره وأنا عارفاه •

— مايل مايل بقى ، بعد ما راح الحمار لم يعد فيها لا زواج ولا سخام •

— الزواج سخام يا ولد ؟

— أنا طهقت ! أشق هدومي ؟

— يا خرابى ! طيب والله ان مالقيت أباك لأعيرك فى البلد يا قليل الأصل يا وجه الفضيعة ! أنا عارفه بختي المايل • أنا عارفاه ••

مضت ودموعها على خدها ، ولكن من عجب ان سيد شعر انه ارتاح قليلا ، وان وطأة الانفعال خفت فى صدره •

وأدرك وهو متجه الى حقله أن الذى خفت ثقل

المصيبة هو تمرده عليها . . فأخذ طول النهار يصيب من
بصادفه بلفحة من حنقه وسخطه . فحين عرض عليه
جاره فى الفيط سليم .

— ان كان عندك حمل ذرة حطه على حمارى ياسيد ،
انا سداد .

صاح به : ما عندى ذرة ، ان شالله يحترق هو
وأصحابه !

— الله . أهذا يا سيد . باكر يرجع ابوك . اصبر
شويه .

وفى ذلك اليوم العاصف مر به شيخ الحفر فى
الفيط ، بعد أن مر بالفلاحين كلهم :

— يا سيد . غدا الصباح ان شاء الله نخرج جميعا
الى المركز لتأييد عظيم بيه فى الانتخابات . كلنا معا ،
لا أحد يتخلف . ونعمل هيصة هناك ، يقول لكم حضرة
العمدة ، وها انا نبهت على البلد . الصبح نتلاقى على
القنطرة ونخرج كلنا ، حضرة العمدة يقول ، والبيه
سيكر منا . .

قاطعه سيد :

— شوف لك شوية بهائم اجمعهم له ، واترك الخلق
فى حالها .

— بهائم ؟!

— ايوه . . من بهائم الكفر .

— تقول ايه يا ولد ؟!

— انت غرضك شىء ينعم-ر يعنى ، ولا ينعم-ر
الا البهائم . .

ضرب شيخ الخفر كفا بكف وصاح متوعدا
ومتشفيا :

— طيب يا سيد يابن مرزوق . انت يا ولد بعد
ما طفشت اباك غرضك تطهشنا من البلد كلنا . بعد
ما خربت بيتك بايدك غرضك تخرب بيوتنا . لكن
أنا لى كلام تانى معك . بعد الهيصه ان شاء الله لن
أفوتك يا سيد ! بهائم يا ولد ؟! طيب !



دق معروف باب سفروت دقة شديدة . كان مرزوق
يقف خلفه يتطلع بلهفة الى ما سيجرى . فتح سفروت
الباب نصف فتحة ، وكان النوم مازال بعينيه وهو يدق

النظر في القادم • مد معروف يده من فرجة الباب
وامسك بملابس النائم الصاحي وصاح به :

— افتح يا ولد •

— من ؟ انت من ؟

— الله ؟ أنا معروف يا ولد • انت تهت عني
ولا ايه ؟!

— سلامات يا عم معروف • العتب على النظر •
تفضلوا ••

— كلمة ورد غطاها • انت البارحة في المولد
سرت حمار الرجل دا •• آفاق سفروت تماما، وحملق
بعينين واسمتين :

— هو انت يا وجه المصائب ؟ الله يقطعك ويقطع
حمارك في يوم واحد ••

— سامع يقول ايه ؟ يا حرامى ••

قال معروف : الله • ما لزوم الكلام ؟ فضها
سيرة • هات يا ولد الحمار •

— طيب على الطلاق من بيتى الحمار ليس هنا ،
وعينى لم تره من ساعتها •

– الشحط يقول لك العمار يرجع ، وانت حر .
– العمار فى الشفخانة ..

هتف مرزوق : تقول ايه ؟ أين يا ولد ؟

– أنا ساعة ما أخذت العمار وطلعت به السكة
الزراعية أطبقت علينا الشفخانة الله لا يكسبها . خفت
أنا وأخى من سين وجيم تركنا لهم العمار ونفدنا
بجلدنا .

– وبعدين ؟

– ولا قبلين : هو عندك هناك رح استلمه .
قال معروف : اوع يكون فى ظنك تلعب بنا يا ولد
– طيب وحياة الى راح ولا عدنا نموضه .. أنا
أقول لك ما حصل تماما .

قال معروف : يبقى خلاص يا مرزوق . رح
الشفخانة . قضيت ..

– قضيت كيف ؟! يا اخواتى نحن نقوم من نقرة
نقع فى حفرة ؟! الشفخانة خبطة واحدة ؟! وتقول
قضيت ؟! ..



كان عظيم بيه، يتحدث بالتليفون مع مدير الأمن
والأمور يرشف القهوة وينصت باهتمام :

— يا سعادة البيه ، القوة أنا طلبتها بنفسى صحيح،
لكن أنا كنت غلطان . ولاحظت ان القوة لما انتشرت
فى المركز الناس خافت من التأثير على حرية الانتخابات،
وشكوا لى ان المظهر غير ملائم للمناخ الحر الذى تريده
الحكومة وأريده أنا وكل المواطنين . وسيادة الأمور
كما أفهم كفىل بقواته العادية أن يحفظ النظام . . نعم
نعم . . أرجوك تسحب القوة . على مسئوليتى ومسئولية
حضرة المأمور . . الحمد لله . كل شىء حسن . متشكر .
مع السلامة .

التقى المأمور وهو خارج بمعروف وهو داخل ،
فتعجب قليلا لمظهره ولعبارة عظيم بيه التى تناهت الى
سمعه وهو يستقبله :

— أهلا أهلا بالمعلم الكبير . تفضل يا أخى ! . .

فحين ركب سيارته ، التى كان ينتظره بها الملازم
الشاب حديث التعيين فى القسم ، قال :

— شىء غريب صحيح .

شجعت العبارة الملازم أن يعبر عن استغرابه هو
أيضا ، وكان يكتمه منذ أيام :

– الموضوع به ملعوب يا سعادة البيه •

فقاطعه المأمور يصده عن الاسترسال بصوت يشي
بالغيظ :

– مالنا نحن ؟ نحن مالنا ؟! قالوا لنا الادارة
محايدة • محايدة يعنى ، به ؟ • • • يعنى يجب عليها
الا تحاول فهم ما يتجاوز وظيفتها فى حفظ الأمن •
هذا هو ما يحبون !



اعترف ان أكثر ما حيرنى فى رواية أهل القرية
• • • هى شخصية عظيم بيه •

مرة يصورونه بصورة الاقطاعى التقليدى فى
ظروف ما قبل ١٩٥٢ ، ومرة يصفون عليه الصورة
الميلودرامية لاقطاعى أفلام السينما ، ولكن فى جو من
الظروف الواقعية والراهنه •

ورغم مقاطعتى لمحدثى المرة بعد المرة لأستجلى
الحقيقة ، لم أفز منهم بطائل •

يلتزمون دائما بخلط الملابس عامدين ، والخروج
بها عن الزمان الواقعي . عن المكان الواقعي ، ويحذقون
التخلص من أسئلتى المباشرة بالتندر واطلاق النكات !

لعل الذى يغريهم بذلك هيبة أصيلة تتملكهم ازاء
الواقع ، فتدفعهم للفرار دائما تحت أقنعة وأكليشيهات
فنون السلف ، فتتشكل بذلك حكاياتهم عن الواقع بذلك
التبسيط والتجريد الفنى الذى تتميز به رسوم الحج
وقصص الفولكلور .

عظيم بيه عندهم رجل من اهل الجاه والسطوة .
وكل ما يحيطونه به من صفات وأفعال وملابس تنأى
بصورته عن الواقع هى من خفايا ذلك الأسلوب الفنى
الذى رسم به رسامهم على جدار شونة القطن « أبا زيد
الهلالى » شاهرا سيفه خلف « سيدنا على بن أبى طالب » (!)
يقاتلان الصليبيين فى ظلال قبة « المسجد الأقصى » (!)
ماذا يهم الرسام الشعبى من واقعية الزمان والمكان
والملابسات ؟

هكذا يرسمون ، وهكذا يحكون الحكايات
لا تستعبدهم قواعد المنظور أو منطق المعقول ..

ولكن هكذا أيضا يروون عن واقعهم الحى !

• • حكايات هى فى الحقيقة نوع من الشهادة ،
والرأى ، الا انها تتخفى بأساليب فنون السلف لتتخلص
من المسؤولية القانونية للشهادة والرأى !

قررت أن اعرف بنفسى عظيم بيه عبد العظيم •

قصدت نادى المركز خصيصا لألتقى به •

أدهشنى انه يختلف كثيرا فى واقعه عن الصورة
التي رسموها له • وأحببت ان أعرف ان كان يختلف
فى جوهره •

اسمه الحقيقي أحمد عبد العظيم • يسكن فى فيلا
متوسطة ذات حديقة صغيرة • من أسرة حزبية قديمة ،
قدمت دائما مرشحها للدائرة الانتخابية ، ثم نعت
بعض الوقت الى الظل بعد أن حددت ملكيتها الزراعية •

دعانى الى بيته بكرم ريفى • استقبلنى فى صالون
هادئ ولفت نظرى ما يوحى به مجلسه من اطمئنان
وثقة ، برغم صراحتى معه •

كان مستجير أفندى حاضرا • مستجير أفندى هو
الذى كان ظاهر القلق من حديثى •

شرقنا وغربنا . . فلمست فيه فطنة وإطلاعا . شكا
لى بحرية مما عاناه فى الأيام العجاف تحت الحراسة ،
ولكنه قال بفخر انه فلاح ابن فلاح ، لم يفكر أبدا فى
التخلي عن ارضه أو الهجرة الى القاهرة .

صرحت اليه ببعض ما يتصوره الفلاحون عنه ،
وبعض نواذرهم عن سلوكه فى الانتخابات . . فاطرق
ولم ينكر . ولكنه قال بصوت شاك ان الفلاحين تغيروا -
الى الأسوأ فى ظنه - وانه لابد من وقف التدهور المتمثل -
بنظره - فى الميل العام للتمرد .

- نعم . الدنيا تغيرت . مر من هنا رجل أيقظ
الفلاحين من أحلامهم السعيدة دون ان يكون عنده
ما يعطيه لهم بدلها .

- وهل كانت أحلامهم السعيدة تعطيهم شيئا ؟

- ليست عندى ادعاءات .

- واذن ، ما الحل ؟

- من يعرف ؟ العالم كله يدمدم . اقرأ الصحف .
العالم تشقه السكين نصفين . حتى مستجير أفندى لم يعد
راضيا عنى . . ولا ايه يامستجير ؟

— يابيه لا تبالغ ...

عندما ودعنى بلطف على الباب قال لى :

— انتظر حتى نغترب جميعا فى بلادنا • سترى ••

— أما اغتربنا فى بلادنا بما فيه الكفاية ؟

نظر الى فى عينى ، متحديا ربما :

— نعم • معك الحق • ولكن أغرب الأشياء هو ان

يكون سبب اطمئناني هو نفس سبب اطمئنانك •• فكل
منا يعرف ان الآخر ليس لديه الحل !

عجبت أنى بادلته نفس النظرة •

عجبت ان تلنقى وتفترق العيون بنظرة واحدة !



واجهة المبنى أشبه بواجهة فيلا •• حديقة المدخل
والسلم الرخامى والشبابيك ذات الاطارات الزخرفية
المطلّة على الحديقة •• الا ان الباب الحديدى عليه لافتة
تقول : « جمعية الرفق بالحيوان — الشفخانة » •

من هذا المدخل الأنيق يمتد المبنى فى جناحين على
الجانبين يصلهما من الخلف جناح ثالث •• هذه هى

الاسطبلات التي تحيط بفناء كبير به فسقية ، الا أن
ماءها جف منذ زمن ، وبأركانها شجرات تحتضر .

الشفخانة نفسها يبدو عليها انها كانت في الزمن
الماضي شيئاً هاماً ، وأصبحت اليوم مجرد أثر من آثار
سخرية الحاكمين الانجليز القدامى برعية بشرية
لا تلقى في حياتها أى رفق !

في الحديقة الامامية وتحت ظل شجرة كان الطبيب
البيطري يجلس على كرسى ، ويضع رجله على كرسى ،
الى جانب منضدة عليها فنجان من القهوة يرشف منه
بعصبية ، وكوب ماء به قطعة من الثلج .

كان مستغرقاً تماماً في خطاب بيده يقرأ فيه ،
وخطاب على المنضدة يكتبه . . والكلاف قائم بخدمته .
والهدوء يحيط بالمكان .

قرأ الدكتور في الخطاب بيده للمرة العاشرة :

« ولا تنسى ان ترسل شهادتك مترجمة بالانجليزية .
ومصدق عليها من الجامعة ووزارة الخارجية ، والسفارة
البريطانية » . .

كتب فى الخطاب فوق المنضدة :

« قمت بترجمة للشهادات والتصديق عليها حسب تعليماتك . وان كنت انت فى ادنبرة قد نسيت ان ذلك اقتضى منى اجازة لمدة اسبوع وصراعا مع أجهزة بيروقراطية تتألف من وحوش لا علاج لها » .

وقرأ : « اطمئنك انك سترتاح جدا هنا ، فخيول وكلاب السباق – ليس عندك فكرة – صحتها احسن منك بكثير . فضلا عن ان هنا عشرة اطباء يتناوبون العمل . تعال وانظر نظافة العيادة . ماذا اقول لك . . المهم ان المرتب المبدئى خمسمائة جنيه استرلىنى ، يا بوى ! »

رفع الدكتور عينيه ، هش ذبابة بصفحة كفه ، وعاد يقرأ : وقد جهزت لك نصف دسته من الحوريات لزوم حقنك ضد الجنون الجنسى . لا تصعق عندما ترى الجمال الصاروخى للبريطانيات فترتكب من الحماقات ما يوقعك فى المشاكل وانت فى الطريق ، كما يحدث لاصدقائنا عادة . حيث ان الغزل والحب هنا له قواعد وأصول ! »

انتبه للضجة فرفع رأسه . رأى الكلاف يدفع بيديه فلاحا عجوزا رث الهيئة .

– رايح اين ؟

– أريد حمارى ..

– أين حمارك هذا ؟

– أما عندكم حمار أرسله قسم الشرطة البارحة ..
رمادى وذيله طويل شوية وله حجلة سوداء ؟

– وبعد .. ؟

– هذا حمارى ..

– حمارك كيف ، اذا كانوا أحضروه وقالوا خذوا
هذا ليس له صاحب ..

– يا سلام ؟ ايوجد فى الدنيا حمار ليس له صاحب ؟

– هم قالوا هكذا ، اعرف خلاصك معهم فى
الشرطة ..

– طيب ، أراه الأول ، اطمئن انه هو حمارى
وأروح بعدها للشرطة .

– معقول يا مغفل أريه لك وتعرف الاشارات التي
تميزه وتروح تحطها في المحضر ؟

ممکن تكون نصاب !

– يا اخوتي • ياناس • حماری یا أفندی •

بدأ مرزوق يصرخ ، كما علمته الدنيا أن يفعل
ليفتح باب نقاش ، يفلقه موظف •• فاستشاط الطبيب
وصرخ :

– يريد ماذا هذا المشاغب ؟

– يدعى يابيه ان حمار البارحة الذي ارسله قسم
الشرطة •• حماره •

– اطرده ، واضربه اذا لم يمش •

قدر مرزوق خطورة الموقف بعد تدخل البية بلهجة
الضلف ، وقال له الكلاف :

– ليس امامك الا الشرطة ، قلت لك •

– حسبى الله !

ومضى بحذاء السور ، الا انه دهش جدا اذ لمح
الطبيب يهب واقفا يسدد له الصيحات :

– افهموا بقى الله لا يكسبكم ! رجعتمونا للوراء
ألف سنة ! ربنا يتوب علينا منكم ومن قرفكم ..
أسرع مرزوق ليختفى فى الزقاق خوفا من تدهور
الموقف أكثر ، ولكنه ظل وقتا لا يفهم داعيا لفضب
البيه ، وكلماته تثير استغرابه :

الفصل السادس

واصل مرزوق رحلته نحو قسم الشرطة ، يجرى . .
ففى الشارع الرئيسى حاذاه أربعة من فرسان
الشرطة فى دورية . . تطلع بعينيه فوق ، فلمس فى
وجوههم شبابا وطيبة ، فأراد أن يستفسر عن الطريق
الى قسم الشرطة ، فتعلق لا شعوريا بسيور سرج أحدهم
يخفف من ثقل جسمه عليه ، وسأله بلهفة :

— يا أفندى . يا أفندى . .

فالتفت الشرطى بدهشة بالغة ، وهالته جسارة
الرجل ، فدفعه بقدمه حتى كاد يختل توازنه لولا أن
أسنده بعض المارة . .

على الناصية كان رجلا ن يتجادلان • أحدهما يقول:

– ننتخب البية الطابق على أنفاس الفلاحين ؟

– يعنى ننتخب الغريب الآتى من القاهرة ولا نعلم

أصله وفصله ؟ عظيم بيه هنا فى الدائرة أبا عن جد ••

فجذب الأول مرزوقا من جلابيته يقول :

– طيب هذا رجل لا من طرفى ولا من طرفك ،

ولا يعرف الدور من أصله • قل لى ياعم ، الأصول

ننتخب اقطاعيا من بلدنا ، والا ننتخب غريبا فقيرا

كحالتنا ؟

قال مرزوق على الفور :

– قسم الشرطة أين وحياء أبيك ؟

– لم ؟ فال الله ولا فالك ؟

– أبحث عن حمارى الذى سرق منى ••

فدفعه الرجل بسخط كاد يوقعه :

– امش جاءتك البلاوى • ها هو الوعى فى بلدنا •

نحن قلبنا رؤوسنا نبحث عن يمثل البلد ، وهذا يبحث

عن حماره • أعوذ بالله منكم ! ••

خاف مرزوق منه ، فمضى فى سبيله .



استقبلنى المحافظ ذات يوم فى مكتبه . جلست فى ركن قصى ، واستأذنى أن ينهى اجتماعا حول المائدة المستطيلة قبل أن يلحق بى . عاد الى رأس المائدة وسأل بصبر نافذ :

— يعنى ما العمل ؟

انبرى رجل متوسط العمر يتحدث بلهجة مسئول الاتحاد الاشتراكى ، يقول بعنق :

— ما الفائدة يا سعادة البيه ؟ أرسلوا لنا تعليمات من القاهرة ، وعقدنا الاجتماع . حضره آلاف الناس ، وشرحنا شرحا وافيا علاقاتنا الخارجية بالرأى العام العالمى ومشروعات التسوية . . . وفتحنا باب الاستفسارات ، فاذا بالفلاحين جميعا يرفعون الأيدى ويسألون : بكم تشتري الحكومة الذرة هذا العام؟! . . . صمقت . صحت : « هذا ليس وقته ! » . . . انبرى الأعضاء لاسكات المهرج فاذا بمعركة تشب . . . ومهزلة . أنا غير مسئول عما حدث ؟

سأل المحافظ : من المسئول ؟

ران صمت بليغ • دار المحافظ على كرسيه نصف
دورة ، ومد الى اصبع الاتهام ، وقال : انت ! ••
ابتسامته المريضة أطلقت ضحكات المجتمعين ••
ضحكات أنيقة مجاملة •

سألته : أنا ؟!

قال : نعم • رجال الاعلام والثقافة والفن والفكر
والأدب •• أنتم المسئولون عن وعى الشعب ••
وتبادلنا النكات •



« الشرطة فى خدمة الشعب »

فى المبنى العتيق صخب وحركة نشطة • فى الغرف
على الجانبين مكاتب يجلس اليها صف ضباط يصرخون ،
وأصحاب حاجات ومتهمون لا يكفون عن الكلام ••
وفيما يلى الجناح المقابل للداخل فناء كبير تصل
منه لمحات وأصوات فرقة الأمن الاحتياطية التى تجمع
أشياءها فى السيارات تمهيدا للرحيل •

الصور فى عينى مرزوق ليست الا خطوطا متقاطعة
والوانا مبهمه • اول مرة يدخل قسم الشرطة • أسئلة
كثيرة على فمه ، ويتخبط فى الداخلين والخارجين وقد
أخذته الرهبة •

سال شرطيا مهرولا :

— يا أفندى ••

فقاطعه دون أن يلتفت اليه :

— ادخل للبلوك أمين •

اشارة غامضة ، لكن مرزوق دخل غرفة مزدحمة
بالبشر ، وأكثر ازدحاما بالكلام متنوع النبرات •
البلوك أمين يصيح ومسماع التلفون على وجهه :

— « للموجودين » اسكتوا يا بهائم ! (ثم فى

التلفون) ومن تاريخه لم نعثر له على أثر ••

— يا حضرة الأفندى •• يا حضرة الأفندى •

— وعندك اشارة من المحافظة باحصاء السلاح عهدة

القسم •

خذ يا سيدى ••

— يا حضرة الأفندى •• يا حضرة الافندى •

يد أمسكت مرزوق من عنقه وجذبتة للخارج ..
عسكري .

— اقعد هنا . اوع تتحرك حتى يفرغ البلوك أمين
من شغله .

فقعد على كرسى خشبى طويل ، مع الآخرين .



الملازم فى مكتبه بالطابق الأعلى يراجع دفتر
الأحوال وقد دخل اليه الشاويش بمجموعة من الاشارات
التلفونية .. وأمامه يجلس ضابط القوة الاحتياطية .
تذمر الملازم وصاح :

— أنتم تكونون الاشارات عندكم فى الأيام السوداء
هذه . ثم تحضرونها لى وأنا مشغول ، وطالب القهوة
للبيه من الصباح ولا حياة لمن تنادى ، والغرفة أجدها
وسخة لم تكنس ؟ سبحان الله فى جبلتكم . أين الولد
النشال الذى عليه الاشغال ؟ لم يحضر اليوم ليشغل؟
قال الشاويش : أشوفه يافندم .

— أجرى هاته بالقهوة والمكنسة .

الشاويش نفسه فى كرب ، يكلم نفسه فى طريقه
الى تحت . .

صاح : يا اونباش أحمد . . قوة المحافظة سافرت؟

— أنا عارف ؟ مازالوا قاعدين .

— والولد النشال الذى عليه الأشغال لم يحضر
اليوم ؟

— أنظن قاعد عند البلوك أمين .

— انت عارف شكله ؟

— أنا عارف ؟ شكله قبيح كالكل .

• أمام غرفة البلوك أمين استعرض الشاويش الوجوه .

— الولد النشال الذى عليه الاشغال لم يحضر ؟

• قال البلوك أمين : قاعد فى الركن .

— هو انت ؟ وجاى الساعة عشرة ؟

دهش مرزوق ولكنه دافع عن نفسه فوراً :

— أنا جاى من الصبح .

– طيب قم كلم حضرة الملازم .

– هو يريدنى أنا ؟

– قم فز !

قبض الشاويش على ذراعه ، فتح بابا فى الممر ،
اخرج المكنسة وعلّمها له ثم امام البوفيه سلمه صينية
القهوة ، وصعد به السلم ، وأمام الباب أمره :
– ادخل .

دخل مرزوق . . مدهوشا بعض الشيء ولكن بطيب
خاطر ، فالمساعدة بالعمل فى بلادنا ليست شيئا مستنكفا ،
اذا توقفت سيارتك فى الطريق وهتفت بالمارة : «دفعه
صغيرة وحياتك » . . سيدعونها ميلا ويلهثون دون أى
تذمر . . يقولون : « زكاة العافية ! » . شعور رقيق لمن
لا يملك فى دنياه غير العافية .

وضع مرزوق القهوة والمكنسة على مكتب الملازم
الذى تطلع بدهشة : ما هذا ؟

– أعطاهم لى الأفندى .

– وتحط المكنسة فوق المكتب ؟ اكنس .

– حاضر •

أثناء الكنس لاحظ الضابط انه أكبر سنا من أن يكون نشالا ، فسأل : انت النشال الذى عليه الأشغال ؟

– لا يابيه •

– طيب انتظر • لا تكنس •

وضرب الجرس : ماذا تفعل فى القسم ؟

– يابيه حمارى اتسرق و ••

دخل الشاويش فهتف الملازم : هو هذا يا مفضل ؟

• خذه للبلوك أمين يعمل له اللازم •• وشوف النشال •

قبض عليه الشاويش من ذراعه ودفعه للبلوك أمين •

– أقول لك النشال الذى عليه الأشغال تعطينى

هذا ؟ حضرة الضابط يقول لك شوفه ماذا يريد ••

قال البلوك أمين : ماذا تريد ؟

– يا سمادة الأفندى • حمارى سرق أمس والشفخانة

ضبطته وحطته هناك •

– أهو انت الرجل المجرم الذى ضرب حماره الى

حكايات – ١١٣

حد أن فتح في ظهره فتح خمسة قراريط ولما لحقه
العسكري جرى كالمرأة ؟

نفض رأسه غير مصدق - تألم قليلا - وقال :
- نعم • و أنا •

- طيب يا حلو • شككتك محضرا ، وإن شاء الله
المحكمة تشكك غرامة جنيهان والا حتى تحبسك يا وجه
الأذية •

- غرامة ؟ لا يا سعادة الأفندي • أنا ما ضربته !

- يعني لست انت • يبقى ليس حمارك •

- يا أفندي سأقول لك عن علامات الحمار كلها • •

- قفل العلامات • أول علامة انك تعترف بالاعتداء
الوحشى على الحمار •

- وحشى ؟

قلب العسكري في دفتره :

- كما هو مكتوب في المحضر تماما • • وإن كان

غرضك تفكر ، تستشير أحدا • • نحن مشغولون ، عد
فيما بعد •

– يا بيه أنا غلبان .. خلصنى .

– يا رجل يا ناقص، تضرب البهيم (يقرأ فى الدفتر)
« دون رحمة أو شفقة حتى تحدث به جرحا ظاهرا .. »
ثم تأتى لتقول أنا رجل غلبان يا وجه الاجرام .
– يا افندى ..

– شوف أقول لك . تبصم على الواقعة والا لا ؟

– .. ابصم .

– وأعطيك ورقة للشفخانة يسمحون لك بمقتضاها
أن تدفع مصاريف العلاج ، ولما يشفى المصاب نتسلمه
هنا ، فتحضر شاهدين من جهتك يضمنان ان الحمار
حمارك .. فتسأله منا ، الى أن تستدعى للمحكمة
بتهمة القسوة على الحيوان . فهمت ؟

– ... سافهم يا بيه . سافهم . قل لى مرة ثانية
لاجل أفهم .



جربى مرزوق عائدا الى الشفخانة ويديه ورقة .
قرأ الكلاف الورقة وقال :

- أول ما يصل البيه الدكتور يوقع عليها بالعلم
- فيصير من حقه أن تدفع مصاريف العلاج .
- أدفع ..
- ان كان هواك تدفع دفعة واحدة ، لا مانع ..
- تدفع يوما بيوم ..
- ادفع يوما بيوم .
- كل يوم بريزة .
- كم ؟ !
- بريزة كل يوم ، أكل وعلاج ..
- البهيم ؟!
- نعم البهيم .
- أكل وعلاج البهيم بريزة عشرة قروش كل يوم؟!
- يا رجل يا مجرم ، حمارك فى ظهره جرح أربعة
- قراريط ، وتستكثر عليه العلاج والمستشفى عشرة
- قروش ؟!
- يا أفندى .. جرح يساوى عشرة قروش صاغ
- فى اليوم ؟ دا أنا فى رجلى جرح نصف متر .. شوف
- .. لم أضع عليه غير التراب .. شوف يا أفندى !

لم ينظر الأفندي حيث يشير ، ولكنه صاح :

— وان أعجبك ..

— يطول كثيرا العلاج ؟

— أسبوعا أو عشرة أيام •

— يا مسلمين ؟!

دار حول نفسه يردد .. فلما رأى المارة ينظرون

أضاف :

— الحمار قاعد في المستشفى يشرب الشاي

بالحليب ، وابق آدم هنا يسف التراب !

يا عالم !

فأمسكه الكلاف من ملابسه وقال :

— واسمع أقول لك شيئا • ان كنت تريد حمارك

يرتاح صحيح ويشفى بسرعة ، اكل الميرى له يرد فيه

الروح • هات له شوية فول كل يوم الصبح وانت فايت •

أنا نصحتك ، وانت حر ! ..



ظلت زينب تبكى طول الصبح •

لا • لم تكف أبدا عن العمل ، ولم تقصر فى أدائه
• • ودموعها على خدها ، خطفت رجلها الى جاموسة
أبو حسين ، حلبتها وحملت اللبن لأمها • • رمت الحب
للدجاج وأطعمت الأوزة فى منقارها ، غسلت وجمعت
بيض الدجاج وصفت الجبن • • فلما قعدت تستريح
قليلأ أجهشت بالبكاء •

راقبتها أمها بشعور متناقض - نعم فهي ليست
حزينة عليها الا بقدر ما هى فرحة لها • • هاهى تكتشف
بعينها ان سيد ليس هو فتى الاحلام الذى يمكن أن
تركن اليه امرأة وهى مطمئنة ، امرأة كزينب ليس لها
أحد يحميها فى البلد •

ولم تكف بهانة طول الصباح عن بث الفكرة فى
دماغ البنت بثا مباشرا بالتعليق • كانت تقول ؛

- الحق • • من ليس فيه خير لأبيه ، لا يكون فيه
خير لأحد ؟ أنا عارفاه أنا •

- يا أمه لا تشمتى • • انت وضعت السكين على
رقبته •

- حقا !

– العوز للشيء يقسى القلب •

– انت يابنت جنت ؟

قالت من خلال شهقاتها :

– ايوه جنت لأنى أفكر فيك ، وفى يوم يعمى قلبى
وانت عاجزة بالشيخوخة فأطردك !

هبط قلب بهانة •

نظرت الى البنت فى زعر •

ايمكن ان ... ؟

ما الذى جرى فى الدنيا ؟ هل أصبحت الناس أكثر
فقرا ، أم أكثر شعورا بالفقر ؟ دارت رأسها لكنها
تخيلت انها ترى لأول مرة ان لابنتها فكا مستديرا بارزا
يشى بصلابة قلب غير مأمونة ..



دخل مرزوق المقهى على استحياء • دار ببصره فى
الجالسين ثم قصد الى المعلم القاعد على منصة عالية •
لم يابه ولم يستسلم للدهشة مه ان جذران المقهى معلقة

عليها أوراق مرسومة ومكتوبة كرسوم الحج ، وإن
شبابا يبدو عليهم انهم تلاميذ كفوا عن الحديث لدى
دخوله .. فى أركان المقهى الأخرى لفظ مستمر •

– سلام عليكم •

استدارت اليه عيون كثيرة ، وتطلع المعلم ، المقصود
بالسلام •

– عليكم السلام •

– أنا لا مؤاخذه غريب هنا .. أين لاجل النبى
القى شغلة ولا مشغلة ، لأكل العيش يعنى ؟

– تعرف صنعة ؟

– لا • أنا فلاح •

صوت مدو • ذو عنفوان ، جلجل فجأة .. ويد
أمسكت ذراعه •

– هذا هو ما نتحدث عنه اليكم • هذا هو المصير
الذى سیرمينا فيه الاقطاع والاستغلال البشع لاثرياء
الريف • انظروا اليه .. فلاح ! أطعمنا جيلا بعد جيل

بفأسه وعرقه ، والآن يهجر الأرض ويفر بحياته من
الفقر ومن جلاديه .. ان مجلة الحائط أمامكم قد
تحدثت عنه ، وها هو جاء هنا بقدميه ، بلحمه ودمه ..
ليقول لنا بكل خلية في جسده : « أنا في هذه المجلة
.. صورة الغلاف » .

ارتبك مرزوق ، صفقوا له . أراد أن يزيل اللبس
حيث تصورهم ينتظرون شخصا ما واختلط عليهم
الأمر ..

— لا يا افندى لا يا افندى .. انا مرزوق من كفر
أمون . انا جئت هنا لفرض آخر .

— لم جئت ؟

— أخلص حمارى من الشفخانة ، وقالوا لى ادفع
ثمن العلاج .

ضحك وتصفيق وتهريج تألم له مرزوق .

ولكن التلميذ وقف فوق الكرسي باصرار يخطب :

— هذه ليست نكتة نمرح حولها ، انها المهزلة !

دار المعلم حول المنصة • استخلص مرزوق من ايدي
التلاميذ • خرج به الى الشارع :

– تعالى يا عم انت رجل غلبان • شوف امش على
شمالك لآخر الشارع تلقى موقف الشغالة والرجال
قاعدين هناك والله هو الرزاق •

مضى مرزوق ، وعاد المعلم معاتبا التلاميذ :

– يا جماعة حرام عليكم • جراند الحائط قلنا
معلش • خطبتم •• على عيننا وراسنا ، لكن الغلابة
اتركوهم فى حالهم •

– نحن هنا لاجل الغلابة يا معلم ، قلنا لك •

– يا أفندية حرام عليكم ليس هكذا •

ففر جميع الموجودين أفواهم بالدهشة من بعضهم
البعض ، غير فاهمين بعضهم بعضا •

ضربت الدهشة بيد واحدة وجه المعلم مما يزعمه
التلاميذ ، ووجوه التلاميذ مما يحتج به عليهم المعلم ،
ووجوه الزبائن مما فعله التلاميذ ومن غضب المعلم (!)

وفى موقف الشفالة جلس مرزوق فى دوره على
الرصيف .. نظر اليه الصف ونظر هو الى الصف ..
ولم ينبسوا ..
أحس ان الجوع يقرصه ، ولكنه كان أهذا حالا .



الفصل السابع

بعد ظهر ذلك اليوم كفت زينب عن البكاء بعد
ان كفت أمها عن استفزازها • امتلأت زينب باحساس
غريب بالسيطرة - لم تعد زينب الأمس •

قامت الى الخارج فلم تنبس أمها • راقبتها بقلب
واجف لكن لم تجرؤ على سؤالها ، ومازال يطن في
خاطرها ما قالت له البنت :

« يوم يعمى قلبي ، وانت عاجزة بالشينوخة
سأطردك » •

اتجهت زينب الى حقل سيد ، كان قاعدا هناك
منذ أمس حيث لم يجرؤ على دخول الدار منذ ذهب
أبوه • يعالج اضطراب نفسه بلسانه المر لكل من كلمه •
- سيد • • يا سيد • •

- ماذا تريدین یا بنت • ما جاء بك هنا ؟
- ان كان لك غرض فى •• انا لك يا مسيد •
- لا ابالى بأحد •
- أى راحة أحست بها حين سمعت صوتها رقيقا لينا •
- أما سيد فقد نفر دمه فى عروقه وأحس بنشوة ،
لكنه تمالك نفسه ولم تزايله الجهامة ، وان كان أساسها
قد تهدم تحت وقع كلمات زينب •
- روحى دارك يا زينب •
- النمل يقبل كل خلية فى جسدها ، وقلبها يدق
بلطف •
- مالى دار غير دارك يا سيد •
- قعدت على الأرض أمامه •• تنظر بعينين براقيتين ،
وتنتظر • انتفض وهو قاعد قبالتها :
- أبوى ضاع يا زينب •
- وأنا خايفه تضيع انت منى ، وانت أبوى وأمى •
- لا تبك •

ارتعشت من قمة رأسها الى اخمص القدم ..
امتلات عيناها برجولته ، وجسدها احساسا بضغط
جسده ، تنهدت :

— حاضر .

استراح ، صار أكثر حزما رغم شعور الهناء الذي
نسل جسده كله ، نزلت الطمأنينة على جسده المرتعش .

.. روحى دارك يازينب . كتر خيرك .

دون أن يتلامسا ، مضت زينب وهى تقول :

— حاضر .

وكل منهما يشعر كأنه ولد من جديد .

عجبت من رواية الرواة ، ولكن هل يستطيع أحد
أن يحيط بقدرة الانسان أن يفعل دون أن يفعل ؟



بات سيد فى الغيط ، كان القمر يغمره بالضوء ،
وظلال عيدان الذرة تناوشه .. نام مرتاحا .

فى الليل أيقظه فلاح :

— قم ياسيد ، تعالى كلم أباك .

فتبعه غير هياب ، عبر الفيطان ، نحو الكوم . .
داخل الأسلاك الشائكة المحيطة بمنطقة الآثار . . فجوة
مفتوحة ، ورجال يحفرون بهمة . شعروا به فالتفتوا
نحوه بذعر .

— من ؟

— أبوى لم يأت هنا ؟

قلبوا النظر فيه وفي بعضهم البعض ، قال أحدهم :

— لا .

— كنت أظن . .

— خبر اه يا سيد . انت خبيث أم تتخابث ؟

— أبحث عن أبى .

ضحك أحدهم وقال :

— اعطوه فأسا يبحث به .

اشتغلوا قليلا ، ثم التفوا حلقة يشربون الشاي .
كان الجو رائعا والقمر مكتملا ، وحولهم أكوام من
فضلات الأزمنة . .

— تظنون يعنى اننا نجد هنا الذهب ؟

— الذهب أخذوه أهل الزمان ..

— لأى شىء نحفر نحن ؟

— لاجل أحجبة البركة •

— لعله لا يعرف ..

— ما هى ؟

— خنافس خضراء منقوشة ، لو شمت رائحة الليمون
تدب فيها الحياة !

— سبحان الله •

— ألا تعرف ؟ ..

— الليمون دواء القرف •

— ودواء البركة •

استمروا فى الحفر حتى صاح الديك ، فتفرقوا
عبر الأسلاك الشائكة •



— أقول لعظيم بيه رجال بلدنا عشرة أنفار ؟ اجر

يا ولد يا مسعد ناد الباقيين •

خطف مسعد رجله هنا وهنا وجاء آخرون متفرقين

— متباطئين ..

– أريد أقول لكم بالصراحة • الشحط راح باس
على يد البيه وأيده ، وانتم أحرار •

أحدثت الكلمة موجة استغراب ، ولكن الرجال –
على الأقل فى رأى شيخ الخفر – أصبحوا أنشط بعدها •
كانت بهانة تجمع سلعها فى مشنة كبيرة وتستعد
للخروج الى السوق ، لاحظت ان زينب قد ارتدت
جلابيتها السوداء وربطت منديل الرأس •

– الى أين يا بنت ؟

– أروح معك اليوم •

– وهل انت وجه سوق يا بنت ؟

– أخاف أقعد وحدى اليوم ، وقلبى منقبض •

– طيب تعالى يا بنتى •

كانت زينب تخاف أن يدفعها هواها للذهاب الى
سيد فى حقله •

خرجت بهانة وزينب وراء مظاهرة الفلاحين –
واحتفظتا بمسافة على الطريق ••

فى الطريق قال فلاح :

– از عقی یا مسعد ، لاجل نجرب أصواتنا •

– يعيش العمدة • يعيش العمدة •

هتف مسعد وردد الآخرون الهتاف ترشقه

الضحكات •

– يعيش مسعد أفندی • يعيش مسعد أفندی •

تعالث الهتافات والضحكات •

– يعيش شيخ الخفر • يعيش شيخ الخفر •

اسكتوا يا غجر •• أحد قد يسمعنا •

قال شيخ الخفر بحزم ، وفي صدره ينتفخ شيء

بالكبر والمرح •• يقول لنفسه : « لم لا • البلد بلدنا ،

ونحن كبراًؤها •• آد يا زمن ! » ولكنه سرعان ما أنهى

حديث النفس حتى لا يكتشف ••

قال أحد الشباب :

– اسمع يا ولد يا مسعد • أنا أحملك فوق كتفى

وانت تصرخ بكل قوتك • دعنا نجرب ، اهتف بأحسن

أسماء فى الدنيا • شوف •• قول يعيش مسعد باشا

زغلول •

حملة شأبان ، واحتشد مسعد ليطلق صوته
كالمجذوب :

– يعيش أحمد باشا عرابي ياناس !
يرددون ..

– يعيش الفلاحون ، يعيش كفر آمون .. يعيش
سعد باشا .. يعيش جمال عبد الناصر .. يعيش أدهم
الشرقاوي .. يعيش أبو زيد الهلالي .. يعيش الملك
صلاح الدين .. يعيش بنى آدم جدع .. تعيش الثورة ..
يرددون ، وقد حلق بمسعد شعور بالتجلى ، فصار
يهتز على الاكتاف ويفنى وهم يصخبون ويضحكون
ويصرخون معه ، ويلوح الشباب الصفار لزينب بحركات
ماكرة ..

– ويموت المقرب والشعبان ، ويعيش العدل يعيش
العدل فى كل مكان ..

وقف شيخ الخفر يصرخ :

– قف يا ولد .. هى مسخرة ؟! يا وجه اللومان
انت وهو ! تريدون أن أعود بكم الكفر ؟

– يا شيخ! الخفر نحن فى الطريق ولا أحد يسمعنا،
دعنا نفرح شويه •

ولكن رجال القرية – الذين تذكروا التاريخ
فجأة (!) – لم يكونوا أقل خوفا بكثير من شيخ الخفر ،
فداروه وأطاعوه وأكملوا مشوارهم يتسامرون ،
وعدلوا عن اجراء التجربة غير المأمونة ••

على مدخل المركز تقدم منهم رجل بيده أرغول
وأخر بالرق يسألون :

– انتم مظاهرة عظيم بيه ؟

– نعم ••

فدخلوا فى صفوفهم عازفين على الفور •

– يعيش البيه يعيش البيه ••

– عظيم بيه يا مغفل ••

– يعيش عظيم بيه ••

• وأخذوا طريقهم نحو الميدان فالسراية ••

• انفصلت بهانة وابنتها فاتجهتا الى السوق •



خلال يوم ونصف يوم ، كان مرزوق قد تقلب في
أعمال كثيرة • فمن موقف الشفالة لاحظ وتعلم انه اذا
راى أفنديا يحمل حقيبة في الشوارع يهجم عليه
ويخطفها ويقول :

– عنك يا بيه •

وعند البيطار نفخ الكور ••

وعند مبيض النحاس رقص في الطسوت الكبيرة ••

وعندما صادف سيارة عاطلة تطوع بدفعها ••

– خل عندك همة شوية •

قال الراكب بجوار سائق السيارة :

– كم أعطيته ؟

– قرش صاغ ••

– يا مفتري !

– طبعا • ان كان الفلاحين فيهم حيل اكثر انا كنت

لا اشترى بنزين من أصله • ولكن مرزوق كان يجمع
القروش وهو مبتهج •

وفي شادر البطيخ نادى بصوت جهير منغم :

– يا بياع البطيخ • أحلى من العنب يا بطيخ ،
ادخل للمعلم • يا بياع العنب ، أحلى من العسل يا عنب
البطيخ • • حمار وحلاوة يا ولد •

ولعله سمع هنا أو هناك أصداً من هتافات البلد:
« يعيش البيه • • » ولكنه لم يعبأ بهم •

أما هم فقد دخل بينهم خلق كثيرون وطفيليون
يهتفون وأطفال يقولون : « هيه • » وانتهوا في الظهر
عند السراية حيث تسلم كل واحد منهم رغيفا به قطع
البطاطس وقطعة لحم حقيقية • • التهموها بشهية وهم
يمرحون بهوس •

وكان شيخ اخضر قد دخل يتغذى في السراية •
وبعد الغذاء • تسرب القلق :

– اوع يكونوا فاكريش يشغلونا ببطننا ولا يملطونا
فلوس ؟

– لا • معقولة ؟!

خرج لهم مستجير أفندى :

– البيه يقول لكم لفوا لفتين في البلد وارجعوا
تاني لاجل الاكرامية • •

– يعيش البية • يعيش البية • •

انطلقوا بحماس •

– أمه يا أمي • أهل البلد اهم تعالى نمشى فى حماهم
يمكن نشوف أبا مرزوق هنا والا هنا • •

مشت المراتاز خلف المظاهرة محتفظتين بمسافة • •
من هنا لهننا ، تتلفت زينب مضطربة النفس ؛ أملها
الكبير يتضاءل • فى المركز زحام كبير وخلق كثيرون
• • أين أجد رجلا عجوزا ضائعا ؟

بعد أن انهدت سيقانهما لاحظتا أن بعض الشباب
تأخر عن المظاهرة ويرمونها بنظرات مأكرة :

– قدمي يا بنت فى المظاهرة وخذي لك بريزة •

– يا ناقص يا قليل الأصل انت وهو ؟ انتم رجال
نحتمى بكم ؟! تدورون خلف عظيم بيه وأبا مرزوق
ضائع ولا أحد سائل ؟! امش !

– ما الخبر يا بنت • انت جننت ؟

– نعم جننت • واذا لم تمشى بالعدل • • سأصرخ
والم الناس • (ثم صرخت) يا خرابى من بلدكم ! أين

انت يا أبا مرزوق .. رجل عجوز تايه يا أولاد الحلال!
يا أبا مرزوق يا أبو سيد .. !

أخذتها نوبة من الصراخ والنداء والبكاء ..
فتلفت الجميع ، بينما أمها تشدها وهي جزعة من
جلابيتها .



وكان مرزوق فى جريه وراء الرزق قد وصل الى
حديقة دار عتيقة مسورة بقضبان الحديد .. نظر الى
ارتفاع النخلة التى يشير اليها صاحب الدار وشهق :

— يا اه ! عالية جدا !

— قلت اه يا صاحبي ؟

— لا .. ان كنت تريدنى أطلع النخلة هذه (وأشار
الى نخلة أخرى قصيرة) أخذ خمسة قروش ، لكن العالية
هذه أطلعها بعشرة قروش .

— لم ؟! هذه نخلة والثانية طائرة ؟!

— لا ياعم .. هذه طويلة وجانحة .. أقع أموت ..
هات عشرة قروش .

طيب وان وقعت ومت صحيح . بماذا تنفعك العشرة
قروش ؟!

– جايز لا أقع ولا أموت ..

– وان لم تقع ولم تمت ، اكون أنا قد دفعت العشرة
قروش بدلا من خمسة .. بلا سبب !

– هات عشرة وخلاص .

– طيب سبعة .. عوضنا على الله . اطلع .

– هات الأول ..

حزم مرزوق نفسه مع النخلة فى حزام واحد وبدأ
رحلة الصمود .

حزت نتوءات النخلة قدميه حتى شعر كأنهما
تدميان فانتظر ليلتقط أنفاسه وصاحب النخلة
يستعجله ..

فلما ارتفع قليلا على النخلة رآه الصبية من خارج
سور الدار فأخذوا ينادون عليه :

– يا عم . لما تطلع هز السباطة ليقع لنا البلح
الصاير . وحياتك هز السباطة يا عم ..
فنهرهم صاحب الدار .

– امش يا ولد انت وهو! جامتكم بلاوى • امش!

فتجمع بعض السابلة ، ينظرون ويتسلون :

– ياه • عالية جدا ••

– وهو عارف يطلع ؟

– يا رجل حرام عليك تخلى عجوزا كهذا يطلع

النخلة • اتق الله •

– وهل هو طلع ؟

من موقعه العالى سمع مرزوق أصواتا تقترب ••

رمى بنظره • البلد ! ••

ارتعش وارتج عليه • أيمنه أن يروه فوق

النخلة ؟! ماذا يقولون لولده ؟ أية حكاية للسهرات ؟!

وفجأة اخترقت زينب المظاهرة ، بصيحاتها •• ثم

انطلقت وسط الشارع تماما تصرخ :

– يا أبا مرزوق يا أبو سيد • أي انت يا أبو سيد؟

رجل عجوز تايه يا أولاد الحلال ! ••

تزلزل لسماع اسمه • مسخرة ! •• ورأى أمها

تشدها من جلابيتها ، والخلق يتجمعون •• فنظر مرزوق

نظرة واحدة الى قمة النخلة • قدر المسافة وانطلق

مصعدا فى قفزات قرد •

– شوف الرجل يطلع كالصاروخ !

– ويقول عشرة قروش لأنى ساقع !

فى لمح البصر كان مرزوق قد اختفى بين السعف .
واخذ يلهث .. وينظر تحت متعجبا ، ينتظر ..

والمظاهرة تحولت الى مشادات وصخب وانحل
عقدها .

فبينما كان الصبية يتطلعون الى مرزوق ينتظرون
هباته ، كان شيخ الخفر وقد استبد به الهلع ان تتحول
المظاهرة الى فضيحة ، يصيح بكل ما اوتى من قدرة على
اعلان السيطرة :

– قف يا ولد انت وهو . امض يا بنت البياعة من
هنا . اهتف يا مسعد . يا كفر المسخرة لموا أنفسكم .

كان مرزوق قد اطمأن فى مخبئه ، وفاحت من
حوله رائحة البلح الطيب ، فانتقى بعض الحبات وصار
يلتهمها ويرمى النوى . فبينما شيخ الخفر يلقي بأوامره
تعالى الصيحات : « آه ! » و « ما هذا ؟ ! » فلم يفهم
شيخ الخفر ، وارتبك وقد انهار تماما لظنه أن الأولاد

يمعنون فى الهزم به .. فلما أصابته نواة قوية فى
جبهته .. رفع رأسه نحو رأس النخلة محتقن الوجه
يصرخ :

– يا ابن الكلب فوق !!

فانفجر الشارع بالضحك الصاخب ..

الفصل الثامن

— والبيه غداكم ؟

هكذا استقبل الفلاحون زملاءهم العائدين من
مظاهرة عظيم بيه .

ولكن هؤلاء لم يستفزههم التهكم ، وانما انطلقوا
بمرح يتنافسون على الحكى . .

— قعدنا على سفرة يا ابنى طولها تقريبا كيلو . .
وعليها المحمر والمشمز والمكتف والصلاحات . . تغذى
كفرنا وكفر سمعان معا . . وجاء البيه وقال الحمد لله
على سلامتكم يا اخوانى واهل بلدى ، ايها الشعب
وسلم علينا يدا بيد ، واحدا واحدا . . وقال اين ابا
مرزوق وهل وجد حماره ؟ . . الخ .

قال لى الشباب القاعدون جنب الدكان ان البيه وزع
على المتظاهرين ارغفة بها طعمية ، لا أرغفة بها لحم
وبطاطس كما اصر العائدون على الزعم .. وكان
أحدهم حاضرا فصار يصيح منكرا ويؤكد ان رغيفه هو
- وفمه يشهد ومعدته - لم يكن به أثر لطعمية أو فول،
وكان به اللحم والبطاطس .

وقال الرواة ان عودة المتظاهرين أحدثت اشتباكا،
لا مجرد التهكم اللطيف .

فقد انتظر بعض الشباب .. العائدين ، فيما يلى
القنطرة . ليمطروهم زراية وسخرية ، فتدخل شيخ
الخفر غاضبا ، ومدافعا عن مظاهرتة .

- آء يا نـارى منكم .. ياكفر الاجرام انتم !
تخافون ولا تستحون ! لا تكفون عن الهزم والمسخرة
الا اذا دهمكم الشحط برجاله ؟

- تعنى انكم ستحرقون الزراعات يا شيخ الخفر ؟
أهى حصلت ؟ تكون من رجال الأمن وتهددنا ؟ طيب على
الطلاق من بيتى لا انتخب عظيم بيه ، واعرف شغلك .
أنا قلت لك أه ..

لولا ان شيخ الخفر تراجع خائفا من تطور الحديث
لشبت معركة غريبة .

ذلك انه لم يكن يقصد تهديدهم وانما قصد
تحذيرهم . الا انه لم يستطع فى سخونة الموقف أن
يصحح نفسه . فقبل تدخلات المهدئين ، وانهى
الموضوع .



أصاب المشوار بهانة بكآبة - فقد هالتها جراءة
زينب واشتباكها مع الشباب وصياحها فى المركز مما
يمكن أن يوقظ أطماع رجال القرية فيهما معا .

وأقلقها ان زينب فقدت انصياعها لها ، ولم تعد
القطعة المنمضة التى كانت . صارت تتأملها فيمتلىء
قلبها بالجزع من الغد . فلما قعدت واستراحت من
المشوار جرت دموعها وعادت تجتر مخاوفها الظاهرة
والغامضة وتندب حالها .

- أنا عارفه أنا . أخذتنى لحما وسترمينى عظما .
ناقصة كأييك الله يرحمه . طول عمرنا طافشون من
بلد تشيلنا لبلد تحطنا . وعمرى ما بلل أحد ريقى

بكلمة حلوة • لا لقيت خيرا فى الناس ولا لقيت خيرا
فى بنتى •• الرجل طلع للبلاد يبحث عن حمار له
ضاع •• لكن أنا ابنتى - لحمى ودمى - تريد ترمينى
وتضيعنى • آه من الزمن ! آه من الفقر والعوز • آه
من حاجتى للآخرين •• آه ••

ولكن زينب لم تنبس ببنت شفة •
وكانت تفكر فى سيد •



أما سيد فقد كان فى حقله ينتظر الليل على أحر
الجمر •

فلما هبط الليل خرج الى منطقة الآثار على شوق ••
لقى السلام على الرجال وانضم اليهم يحفر فى
صمت واصرار • كان قلبه يحدثه •• لا عن الذهب ،
ولكن عن بشر أحياء تحت الأرض حياتهم ناعمة مطمئنة
يشى بها السكون السابح فى المنطقة •

لم يكن يخطر للفلاحين انهم يحفرون مقابر ، أو
مساكن للموتى ، وانما قر فى نفوسهم انهم يشقون
طريقا الى مكان حى وحقيقى وغريب ، كأنهم يشقون
الطريق الى جوهر حدوته ساحرة شيقة •• ويفنمهم

قلق لذيذ • لم تكن الخشية تغشى قلوبهم الا من شرطة.
تداهمهم ، أو عابر سبيل غريب يشى بهم •

وكانوا قد أوغلوا فى الحفرة التى بدا بحفرها
عمال مصلحة الآثار حتى أصبحت كسرداب غائر فى
الأرض ، فما انتصف الليل وكلت السواعد حتى تداعى
جزء من جدار السرداب •

شهق الجميع وارتدوا ، وصاروا يزيحون التراب
الرطب بأيديهم •• أشعل أحدهم فتيلة ، ثم اشتعلت
عدة فتائل •• فجوة ! دخلوا واحدا اثر الآخر • مدوا
الأيدي بالفتائل، فكانما أضاءت المكان كهرباء غامرة •
وشهقوا !

— لا اله الا الله •• وسبحان الله القيوم !

وللعجب أن قلوبهم شملها من السكون اطمئنان
ومن سحر المكان نشوة •

وبأيد ثابتة صاروا يحركون الضوء هنا وهناك وقد
استولى عليهم العجب والاعجاب ، وغمرتهم مسرة لم
يشعروا بها من قبل •

لم يكن بالغرفة غير صندوق من الصوان الثقيل ••

لا شيء حوله ، ولكن الجدران عليها رسوم ملونة غاية
فى الجمال لم يروا لها مثيلا ولا فى الخيال • صاروا
يتحسسونها بالأصابع فى رقة ، وألوانها ذات ملمس
بارز قليلا •

ها هو رب الأسرة وزوجته والأولاد حوله فى جلسة
اطمئنان ، ويبد كل منهم حزمة قمح ، وخلفهم رؤوس
الحيوانات تمتد منها أيد بشرية تلمس الأكتاف برفق
وحنان •

وفى الحائط الآخر •• يزرعون •• يرمون الحب،
ويدفعون المحراث ••

وفى الحائط المقابل يفتنون ويمزفون ويرقصون
شبه عراة ••

جمال القوام ، ورهافة الملابس ، والراحة التى
تضيفها الألوان خدرت النفوس •

صاح أحدهم فأيقظهم :

— ابحثوا فى الأرض •

انحنوا يبحثون عن خنافس البركة ، وتراقصت
الأضواء وامتدت الأصابع لكنهم لم يجدوا واحدة ••

تلفتوا حولهم غير مرتاحين ، وقال أحدهم :

• اعملوا لنا شاي •

وأوقدوا النار حيث هم ، تحت أعين الصور •

• لم يبق لنا أولاد الحرام شيئا ، لم يبقوا حتى

لأصحاب الدار شيئا • حتى أحجبة البركة سبقنا إليها
أولاد الحرام ، ونحن أبناء البلد لم يبق لنا شيء في
البلد •

شربوا الشاي في صمت ، ولكنهم كانوا مؤتسنين

بالمكان •

تأمل سيد صورة رب الأسرة ، وعجب انه يشبه أبا

مرزوقا !! ••

فجأة هتف أحدهم :

• يا أبا محمد • في الحائط فتحة أخرى •

نظروا ، فاذا بالحائط أمامهم جزء غير مرسوم ،

وكانه باب سد بالطين •

خفقت قلوبهم بشدة •



خلف بوابة الشفخانة كان ميزان القباني قد نصب
وحوله الباشكاتب والكلاف • وأمام الباب عربة يجرها
حصان واقفة ، وحمال وحوذى ينقلان من عليها أجولة
الى الداخل ، يعطون الواحد على الميزان فينادى
الباشكاتب وهو يسجل فى دفتره الكبير :

– خمسون كيلو جراما فولا •

ولكن أحد الأجولة تمزق فوق الميزان ، وانهار من
مزقته سيل من التبن ونشارة الخشب ، فصاح الجميع
سويا •• الباشكاتب قال :

– يا رجل سد ، سد الله يخرّب بيوتكم • هكذا
على عينك ياتاجر! والله أودى بكم فى داهية ياصوص!
وكان الحوذى يصيح :

– لا مؤاخذه يا أفندى • الجوال فزر لأن الفول
ثقيل •

والحمال قد هجم على الجوال الفاضح يعالج الموقف
وهو يصيح :

– انسد داهية لا تملك • فضحتنا !

حين اقترب مرزوق من الباب ، بقدمين كلتا من
الجرى على الرزق ، وكانت يده ممسكة جيدا بثلاث
ورقات من ذات الخمسة قروش ، وثلاثة أنصاف
القروش ، ويده الأخرى قرطاس ملفوف .

كان بيده فى الليل أربع ورقات من فئة الخمسة
قروش ، فلما استيقظ فى الصباح ، وكان نائما تحت
بوابة أثرية لعنها كانت جزوا من سور هذه المدينة
المواجهة لغزوات الشرق . . أحس بالبرد . فلما قام
ومشى مشيا سريعا ليتدفأ داهمه الجوع . ماذا أكل فى
هذه المدينة منذ ثلاثة أيام ؟

مر بيائع الطعمية فاقتنصته رائحتها باقتدار ،
فدفع فى ذلك قرشا ونصف القرش ، وأكل فحمى
جوفه ، فشرب شايا بقرش . . واستراح فى المقهى ،
فدفعه فكرة الى الحدق ، وصار يناجيه :

— تلقاهم لا يطعمونك يا حدق . من يعطف عليك
إذا كان سيد نفسه يريد يبيعك بلا شيء .

وترقرقت نفسه فقام من فوره الى شارع السوق ،
واشترى من العلاف فولا بقرش لفه له فى القرطاس ،
وانطلق الى الشفخانه .

— يا أفندى • يا أفندى ••

نظر الباشكاتب والكلاف ثم أدارا وجهيهما غير
عابئين ••

— يا أفندى • يا أفندى ••

سأل الباشكاتب :

— من هذا ؟

فقال الكلاف بمسمع من مرزوق :

— هذا رجل عبيط له حمار هنا •

بلع مرزوق ريقه وانتظر ، فتحرك الكلاف اليه
بينما جمع الباشكاتب أوراقه وانصرف داخل المبنى •
— ماذا تريد ؟

— عندي ثلاث قطع بخمسة قروش وأريد دفعها •

— انت تريد تدفع حق الميرى بالتقسيط ؟

— أنا كل شويه أدفع يافندى ، لا تؤاخذنى •

— عليك ثلاثين قرش اليوم • هاتهم وتعالى أدفع •
واذا لم يكن عندك اليوم ادفع فيما بعد • بالاختصار •

– طيب دخلنى والنبي بشوية الفول هذه اطعمه •

– نعم ؟ نعم ؟ تظنها فوزى ؟! تريد تطعمه اكل خارجى ؟

– انت قلت لى ••

– وتدعى على انى قلت لك • الله يخرّب بيتك تريد تودى بى فى داهية ؟

– لا تؤاخذنى يا افندى • انا رجل لا افهم •
سامحنى • خذ اكله انت •

– ممنوع •

– طيب لا تغضب خذ اكله •

ودفع اليه مع القرطاس انصاف القروش الثلاثة
فى يده • نظر فيها الكلاف وقال :

– لا • اقل من قرشين •• ؟

– ماعندى • الله يسترك ••

– هات • يظهر انك بخيل جلدة ••

أخذ القرطاس والقروش ودخل ، لم يعبأ بمرزوق
الذى يهتف به :

— يا أفندى • يا أفندى ••

ذلك ان مرزوق ما ان تغلى عن الفول والقروش
حتى اصابه القلق •• فلما لم يعبا به الكلاف جرى الى
الخارج ودار حول المبنى بلهفة وحيرة ••

كان الكلاف قد اخترق المبنى والفناء وفتح الباب
الخلفى حيث تجلس بائعة على الرصيف تبيع الفول
الجاف فدفع اليها بالقرطاس واعطته نصف قرش ،
وعاد بهدوء •

ومن الفناء انحرف الى الاسطبل حيث تقف الحمير
وبقرة وحصان تواجه حوضا طويلا فى الحائط ، ففتح
الصنوبر وتدفق الماء فى الحوض ، ومن هناك كان
يسمع مرزوق مناديا مايزال :

— يا أفندى • يا أفندى ••

فصاح به من الداخل :

— ماذا تريد بعد ؟

— أريد أراه !

عندئذ نهق الحديق نهيقا جهرا متصلا اختلط
بصياح مرزوق :

— هو هذا ؟ أره لى يا أخى • كيف حالك يا حدق؟
كيف حالك يا ولد ؟ أكلت الفول يا ولد ؟

سمع مرزوق ضربات دكتومة وصياح الكلاف :

— هس • اخرس • صوتك قبيح • اخرس •

فصاح من الخارج :

— اسكت يا حدق • لا تغضب الافندى • كل بالهناء
والشفاء واسكت • ساجيء لك بالفول غدا • لا تغضب
الافندى • اسكت •

وساد الصمت •• انتظر مرزوق قليلا ، ثم انطلق
الى موقف الشغالة وهو أحسن حالا •



كان التلاميذ ما يزالون مرابطين فى المقهى يشربون
الشاي والقهوة ، وفى الظهر يأكلون السندويشات ،
ويحادثون كل من أعطاهم أذنه باهتمام أو بغير اهتمام ،
أو استمع اليهم من باب الفضول أو تزجية للفراغ .
ورواد المقهى الدائمون والمابرون ينظرون اليهم

بدھشۃ لا تخلو من اعجاب بجرأتهم ، وان فهموا منهم
أقل القليل .

وكانوا قد علقوا جرائد الحائط فى أركان المقهى .
وهى لا تحظى باهتمام كبير نظرا لأن معظم الرواد
لا يقرأون ولا يفهمون الرسوم .

كان من بينها رسم كاريكاتورى لعظيم بيہ ياكل
الفلاحين فى أطباق ، ورسوم بها أجانب لا يعرف معظم
الرواد من هم . وثعلب لعله يشبه مستجير أفندى لأنه
يحمل لافتة مكتوب عليها « انتخبوا عظيم بيہ » . .
وأشياء أخرى غير مفهومة .

وكان معلم المقهى قد تردد أول الأمر فى السماح
لهم بتعليق الصور والأوراق واستنكف جلوسهم طول
النهار وتمرضهم للزبائن بما يضايق البعض .

ولكنه بعد ذلك لاحظ انهم يطلبون طلبات كثيرة
. . ويدفعون البقشيش . . وان زبائن آخرين متشابهين
فى مظهرهم العام قد عسكروا طول النهار متفرقين فى
مقهاہ يطلبون الطلبات الكثيرة ويتظاهرون بعدم الاهتمام
بالتلاميذ . فقال لنفسه : « هذا موسم الانتخابات ،

فلم لا يصيبني أنا أيضا نصيب ؟ » وصار مع الوقت
أكثر ميلا لهؤلاء التلاميذ واعجابا بهم ، وإن كان
كعادته يتظاهر دائما بالانصراف لعمله .

قال أحدهم للآخرين :

— سنظل نضيع الوقت هنا ؟

— ماذا نفعل ؟

— ألا نخرج فننتظر في الشوارع ؟

— نخشى من الشرطة . هنا تسامحوا معنا .

ما فائدة أن نتعرض لهم ، وإن يتعرضوا لنا ..

— بص . شوف هذا الرجل ..

التفتوا جميعا .

كان يمر خارج المقهى رجل قوى البنيان طويل

أشعث الشعر ، مكشوف الصدر ، بيده حجر صلد يدق

به صدره بلا رحمة ويجار :

— يا ولي الله . سألتك بالحلال .. تغنيني عن

السؤال .. متشرد ورايك .. ينتظر عطاياك .. شفاع

للمرسل .. أنال القبول .. يارب !!

نظر كل منهم للآخر .

— ماذا تعنى ؟

— مظاهره شعبية خارقة للمألوف . . . سيجتمع أهل
المدينة كلها لينظروا ، ونحن نقلد هذا الدرويش .
لا بد أن تطور أسلوبنا ، وأحسن أساس للتطوين هــو
استلهام الفولكلور . استلهام هذا الرجل .

بعد قليل كان يقف بميدان الساعة — المتوقفة
دائماً — التلاميذ أنفسهم ، مشعثى الشعر مكشوفى
الصدر ، كل منهم فى جانب من الميدان بيده حجر
صلب يدق به صدره ، ويجأرون :

— يا أنبياء الله . يا أولياء الله . . ضاع الأمل
. . ما العمل ؟ الأغنياء فى القصور . . والفقراء فى
الجحور . . القطط يسمنون ، والشباب يهاجرون !
نائب الدائرة بيه ، وأنا ما معى نصف جنيه . . يا أهل
الله . . يا أهل البلد . .

ومع ان الدرويش الحقيقى لم يكن ليلفت نظر
المارة ، فمن عجب أن يتجمع كل هؤلاء الناس حول
الدراويش المزعومين .

خرج حتى التجار من دكاكينهم يتطلعون • واقترب
الجميع حولهم بروح الفكاهة •• بروح الدهشة ، أو
بغيرها •

وفى أحد الشوارع الجانبية المفضية الى ميدان
الساعة كانت سيارة النجدة وبها ضابط ملازم وشرطيان
تقف لتشرف على الميدان • انتبه الضابط ودقق النظر
•• ثم رفع سماعة التلفون :

— يا أفندم شئ غريب ••

— ما هو ؟

— الأولاد التلاميذ عملوا دراويش ••

تناهت اليه ضحكة من الطرف الآخر :

— ربنا تاب عليهم يعنى ؟

ولكن الضابط هاله عدد الذين تجمعوا حول
الشباب ، وتناهت اليه صيحاتهم بوضوح فصاح فى
التلفون :

— الموقف خطير •

— ما بك ؟ لا أفهمك ••

– غير قادر أحكى لك ما يجرى • ولكن مئات الناس
يتجمعون • آلاف ربما ••

– أيّ يتجمعون ؟ ولم ؟

– حول الدراويش •• أقصد التلاميذ ••

– مظاهرة يعنى ؟

– لا • ليست كما اعتدناه • ولكن أرسل قوة ••

– ستصل القوة • ولكن يا حضرة الضابط أنا
بصراحة لم أفهم منك • تصرف •

بعد قليل وصلت قوة من سياراتى لورى فاقتحمت
سيارة النجدة الميدان زاعقة ، ونزل منها الضابط
والجنود مندفعين نحو الشباب • ولكن الزحام عاق
تقدمهم ، والضابط لم يشأ أن يحتك بالواقفين فصاح
بصوت آمر :

– يا أفندية لا تلعبوا بالنار ! امش أنت وهو لحال
مسبيلك •

فلما لم يجد استجابة ، نفخ صفارته ، فانتشرت
القوة فى الميدان بينما أراد هو أن يصل الى أحد التلاميذ ،
فتعالت صيحات ، وتدهور الموقف فجأة حيث لاحظ ان

الميدان امتلاً بناس اجتذبتهم صفارته ، ولم يعد يميز الطريق الى التلاميذ لكثرة الحركة . . ولكن الملاحين مازلوا يصيحون . .

قرر أن ينهي الموقف ، فاندفع وسط الزحام مخاطراً بالانفصال عن جنده ، وقبض على ذراع أحد التلاميذ واقتاده الى السيارة ، وعجب انه انقاد له ، وان كان الزحام أطبق عليه وهطلت الأسئلة :

— لماذا تأخذه يا افندى ؟ . . ماله الشاب يا افندى ؟ . . الخ .

ومن عجب أن الأيدي كانت تلمسه بالاستطلاع ، كما كانت الألسنة تستفسره . . أحس أصابعها الكثيرة فاستفزته ، لكنه ظل رابط الجأش عازماً على حصر الموضوع ، واندفع الى السيارة فدفع الشاب وركب خلفه وترك الباقيين .

أطل من شبك السيارة فآثاره انه لم يعد يرى عسكر القوة من الزحام فصاح بأعلى صوته :

— اجمع القوة يا عسكري .

وانطلق بسيارته . . دون أن ينتظر رداً .

استغرب الملازم من أن الأمور أظهر الغضب حين
روى له الواقعة - لعله لم يقدر تماما خطورة الموقف ،
أو لعل الملازم نفسه لم يكن يقادر على شرح خطورة
الموضوع .

صاح المأمور :

- كان من الممكن ان تتسبب يا حضرة الملازم في
حادث مؤسف بغير داع مفهوم . لقد تزيدت باقتحامك
الميدان بالعساكر وهو مكتظ. بالناس من أجل تلاميذ
يمثلون مسرحية .

« مسرحية » ؟! قال الملازم لنفسه :

وأمره المأمور بحجز التلميذ ليلة والافراج عنه
بعد محاولة اقناعه بالكف عن اثارة الناس .

أما قوة القسم فقد ظلت تستمع لرواية الملازم
وتظهر الابتسامة والمرح - مما غاظه - وبعدها أخذوا
يتندرون بشيطننة الأولاد ، ويكررون عباراتهم متفكهين
.. مما جعله يشعر بحرج .

ولكنهم بعد الظهر نحا جانبا قصة التلاميذ ..
فقد انشغل القسم بكامله في ترتيب احتياطات
مشددة لمساء حافل .

كان عظيم بيه يقيم سرادقه الكبير فى المركز . .
ذلك المساء ، بينما منافسه المعامى الآتى من القاهرة
يقيم سرادقا مماثلا فى « كفر سمعان » .

توزعت قوات الأمن على الموقعين فى وقت مبكر ،
ومر بها المأمور ليطمئن ثم عاد مزمعا قضاء المساء كله
فى مكتبه .



فى المساء كان مرزوقا فى طريقه على البوابة
الأثرية لينام هناك ، فاجتذبتة أضواء سرادق عظيم بيه
فمر مرورا . . لكنه فوجئ بـ يد تدفعه بقوة نحو باب
السرادق :

— ادخل اسمع لك كلمتين تنفعانك . ادخل أقول
لك .

تملص وقد استفزته اليد القوية والصوت الأمر .
— لا أريد .

— فلماذا جئت هنا ؟

— أبحث عن حمارى ولا شأن لى بأحد .

صوت آخر أشد صرامة :

– ادخل يا حمار •

ودفعة قوية ، فاذا هو فى الداخل • أضواء غامرة
ورجل يتحدث بحماس فى الميكرفون وكراسى وثيرة • •
فقعد •

سمع حوله همسا :

– أول ما يصعد عظيم يبدأ الهتاف وتلقى
المنشورات •

تلفت • • لا حول الله – التلاميذ !

تحين فرصة للتسلل • انكمش حتى غطس فى
الكرسى • نعم هذا حسن ولكن كيف التسلل مع المعمر •
نظر خلفه • • رجال عمالقة يقفون بالباب يرقبون
القاعدين • ما هذا الفخ ! • •

أغض عينيه ، وتسلى الدفء الحار الى جسده • •
هل ينام هنا أفضل •

دوى تصفيق • نظر • عظيم بيه فوق المنصة ويديه
الميكرفون :

— أيها السادة ، يا أبناء وطني ، المعذبين في
الأرض .. انني أخاطبكم كرجل منكم ، قد عذب كما
عذبتهم ..

... يسقط الاقطاع والاستغلال !؟

هتاف دوى • وقف معظم الناس وقد انتفضت
أعصابهم • هرج • طارت أوراق كحمامات بيضاء في
كل أركان السرادق ، وقف التلاميذ على الكراسي
يصيحون في نفس الوقت • • يخطبون • اقتحم العمالقة
السرادق • كلمات وصفعات واختلط العابل بالنايل •
دخل مرزوق تحت أرجل الكراسي وصار يتوجع لأصوات
التضارب التي تصيب الآخريق • •

لم يعد يرى حوله غير أرجل آدمية عنيفة الحركة ،
وأرجل خشبية ساكنة • • شق طريقه بينها ليفوز
بالنجاة ، يزحف مهرولا ، والميكرفون يصيح :

— أيها العملاء الخونة ! أيها الملاحدة الفرضيون !

الباب • انطلق مرزوق مخلفا خلفه الأضواء ، نحو
ظلام الطريق • •



ولكن هذا لم يكن الحادث الوحيد أو الحادث
الأخطر . ففي سراق « كفر سمعان » انقض رجال
ملثمون في لحظة خاطفة فربطوا حبلا بأحد الأعمدة ،
وطرفه في سرج حصان انطلق بقوة فانزع العمود ،
وأطلق الرجال النيران في الهواء . فسقط قتيل واحد
على الفور - بالعمد أو برصاصة طائشة ..

دوت صرخات : « الشحط ! » ..

وما حدث في الداخل من دعر وتدافع استدعى
اتجاه كل عربات الاسعاف من المركز الى الموقع ..

وقام قسم الشرطة على قدم !



لم يأبه مرزوق لما حدث له .

انطلق وقد انفل بالمغامرة الى الشفخانة . كان
يريد أن يحكى ما حدث له . لقد حدد المكان الذي به
الحدق . في زيارته الصباحية . الدنيا ليل والطريق
خال ، وثمة طاقة مرتفعة ذات قضبان حديدية .

- ولد يا حدق ! يا حدق ..

« نهيق » ..

أخرج من جيبه حفنة ترمس كان قد اشتراها في الطريق ، ورمى بها من الطاقة :

— خذ يا ولد • شوية ترمس يا حدق • تسالي !
خذ ..

« نهيق » .. يعلو ويخفت ..

— كل ولا تزعق حتى لا تفضعنا يا ولد • تسل
بالهنا والشفاء • فرجه قريب ان شام الله • أنا سأخرجك ،
اطمئن • أنا تعبت خالص يا ولد • الشغل ثقيل •
عجزت يا حدق • ما عدت قادر أشيل ولا أحط • لكن
من سيجرى عليك ان لم أجر أنا ؟ ما عاد أحد يعطف
أو يشفق • ربنا كريم • أنا عارف انهم يجوعونك
يا مسكين لكن الصبر طيب ، اصبر • انت لم تدر ؟!
ألم أقل لك ؟! أنا كنت سأموت الليلة في سرادق عظيم
بيه ، وانت لا تدري ! الناس ضربت بعضها ولا أحد
التفت لرجل عجوز مثلي تقتله ضربة واحدة طائشة •
ناس متعافية وشايفة روحها ومقتحمة بصدورها •
لكن أحسن انهم لم يلتفتوا لي • والا ما كنت قدرت
أخرج وأنجو بجلدي • ربنا عماهم عنى • ربنا يعميهم
عنا دائما يا حدق • دع الله يعميهم عنا • هؤلاء مفترون

ونحن غلبة . . أوحشتني يا حديق وأوحشتني عفرتك .
أكلت الترمس يا ولد ؟ (نهيق) لا تحمل هما وكل
بالهناء والشفاء . أنا صحتي طيبة ولا بأس . ربك
كبير وفرجه قريب . .

— ماذا تفعل عندك ؟

المسكرى !

ينظر باستغراب . رفع مرزوق يديه اللتين كانتا
تضغطان الحائط بحنان . سكت النهيق تماما .

— لا شيء .

— امشي في طريقك . لا تقف هنا .

— حاضر .

مشى مرزوق مترنحا من النشوة ومن التعب .



ضحك مرزوق حينما أعدت عليه ما قاله لي الرواة
عن مناجياته لحماره . أطارق وقال :

— يا أستاذ . . أنا رجل عجوز ومغرف ، لا تأخذني
بكلامي . وهؤلاء شباب طائش ثلاثة أرباع كلامهم

باطل • نحن كلنا فلاحون لم نتعلم في المدارس ،
فلا تحاسبنا على ما لا نعرف ..

ثم رماني بنظرة ساخرة مأكرة ، اعتصر فيها كل
ما بنفسه من استنصار لعالمنا المنطقي والمعقول •

الفصل التاسع

— يا رجل يا شايب وعايب ، قاعد تشعذ مع الناس بدلا من أن تبحث عن عمل ترزق به رزقا حلالا • عيب والله عيب !

تطلع مرزوق مندهشا ، فاذا رجل يقف أمامه ويوجه الخطاب اليه ، يلبس قفطانا أنيقا وحذاء لامعا وكوفية حريرية • • الذي أدهش مرزوق انه لم يكن يشعذ ، صحيح انه كان قاعدا على الرصيف يلتقط أنفاسه • ولكنه لم يمد يده •

— طيب شوف لي شغل ما دمت تكره العيب •

– قم عندى لك عمل •

تبعه من شارع الى شارع حتى توقف أمام عمارة
تبني ••

تطلع مرزوق الى البناء المحزم بسيور الخشب وهاله
الارتفاع الشاهق ••

– سلام عليكم يا معلم • اعمل مرؤة وحياة أولادك
وشغل الرجل الغلبان صاحب العيال هذا ، والطيبات
لله يا شيخ •

– وهل هذا ينهض يشيل أو يحط ؟

– ربنا يقدره يشيل •

– لا يساوى أكثر من ثمانية قروش فى اليوم •

– خليه عشرة لاجل خاطرى ••

– لم ؟ سيشغل أفندى ؟!

– معلش • سيدعو الله لك ••

– كما تريد • كله لله •

– قال مرزوق :

– ماذا سأشتغل ؟

– العامل يملأ لك القروانة ، وتشيلها لفوق ..
وأشار الى السماء ..

– طول النهار ؟!

– الله ؟! هذا مشاكس لا أريده ..

– ستشاكس المعلم قبل ما تشيل ..

– آخذ عشرين قرشا .

هتف المعلم :

– عشرون قرشا ؟ تريد تنزل فى الفندق ؟

– دا الحمار نازل فى فندق بعشرة قروش يا عالم .

– حمار ؟! لا لا لا أريده . هذا صعب ..

– معلهش يا معلم . الرجل عجوز وغلبان .

والطيبات لله . لاجل خاطرى .

استمر الرجلان فى المساومة حتى قبل المعلم أن

يدفع العشرين قرشا . فقال فاعل الخير :

– خلاص ؟ أخذته ؟ يبقى لى سمسة خمسة

رؤوس .

— أما نشوف سيشتغل أم سيتملعن ..

— واحجز لى من يوميته سمسرتى خمسة قروش .
واعطه الخمسة عشر قرشا ..

— نعم ؟!

قال مرزوق منكرا .

— الله ؟! تاكل حقى ؟ آلتست أنا الذى جام بك ؟

— جئت بى من دكرنس يعنى ؟!

— هذه هى الأصول . تشتغل أو لا تشتغل ؟ داهية
تفمك !

قبل مرزوق الانذار على الفور لحظة تغيرت اللهجة
.. واشتغل .



كان ذلك هو اليوم العصيب فى قسم الشرطة .
لا بد أن كل الضباط سيظلون طول خدمتهم يروون عن
ذلك اليوم .

فحدث مرادق كفر سمعان رج أوساط الأمن ،

وقضى الضباط الليل اما فى مطاردة أشباح تبخرت فى
حقول الذرة ، أو فى متابعة المطاردة من مكاتبهم •

وكان المأمور بمكتبه قد جمع بعض الضباط، وهو
على اتصال تلفونى دائم بالمحاضرة وبالداخلية •
كان متوترا •

لا بسبب فظاعة الحادث فحسب ، وانما بسبب
شعوره بأنه قد عالج موضوع الشحط من الأول بيد
لينة ، وانه أخطأ تقدير التداعيات التى أدت الى ذلك
الحادث الجسور •

— لا بد من اقتناصه •

قال بحزم • فأراد أحد الضباط أن يضيف :

— تدخله السافر فى الانتخابات ••

فقاطعه المأمور :

— لا شأن له بالانتخابات •

ثم أضاف :

— هذه ليست قضية سياسية ، ويجب ألا نسمح

لأحد بأن يضيف عليها هذا اللون •

— لم أقصد .. وانما ..

— أعلم ما يدور فى خلدك ، ولكن خل بالك ان القضايا السياسية لها حساسيات . ولا بد أن نضع المسألة فى حدودها بكل صرامة ، حتى لا نسمح لأى كان أن يعوق مجهودنا . حدود المسألة ان هذه عصاية مجرمين مطلوبين لارتكابهم حوادث فظيعة أبلغ عنها ، وحوادث أفظع لم يبلغ عنها ، وقد أسكرهم الغرور فأظهروا جسارة من شأنها أن تطيح بهيبة أجهزة الأمن . فواجبنا نحن ضباط الموقع أن نقضى عليهم بضربة واحدة قاضية .

وفى موعد متأخر بعد منتصف الليل أبلغ المأمور أن قواته المعبأة للمطاردة لم تصل الى نتيجة . فقال للضباط :

— سنعالج الأمر بكل حكمة وهدوء . أنا أسافر الآن للمحافظة وغدا الصباح سأعود بكل ما يلزمنى .
— هل ستطلب القوات الاحتياطية ؟

— لا . فلا أريد أن أضعاف من صورتنا المترددة فى هذا الصدد . عندى خطة أخرى . فالمعلومات أهم من القوات .



الفجر ..

فتح باب الحجز ، واستدعى التلميذ • كان نائما
فاستيقظ • تقرر التخلص منه بالافراج بعد أن يقابله
الملازم مقابلة شخصية •

قعد • تأمله الضابط • • نصف طفل ، نصف
رجل • عيناه افصح من لسانه – أوقح أيضا • لمعة هزم ،
لمعة تهكم ، ثم تشردان • •

– انت واصدقاؤك • • تبذلون نشاطا في
الانتخابات • •

– نعم •

– من تؤيدون •

سؤال مفاجيء • سدده الضابط كطلقة •
أجاب اللعين بهدوم :

– لا أحد •

– أليس هذا عجيبا ؟

– لم ؟

– تعلم ان الدعاية الانتخابية مسموحة • ليفعل

حكايات – ١٧٧

كل فريق ما يشاء تأييدا لمرشحه أو لبرامجه • ولكن هذا
لا ينطبق عليكم ••

– نعم •

قال الملازم فى نفسه : الولد لا يفكر معى •
لا يريد أن يفكر معى ••

– أنت تفهم ما أعنيه ، لا تدعى الغباء •

– أرجوك ان توضح لى حتى لا أفهم كما أشاء ••

– يعنى انتم لا تمارسون الدعاية الانتخابية بالمعنى
الدقيق • وانما تمارسون نشاطا خارج الانتخابات ••

– هذا فهمته •

– فلأى غرض انتخابى تمارسون هذا النشاط ؟

– حتى لا ينتخب أحد أحدا •

قالها اللعين ببساطة أثارت الملازم :

– تدعون للمقاطعة ؟ وهذا خروج ••

– عن أى شئ ؟

– عن رغبة الشعب ومصلحته فى انتخاب ممثليه •

– فى فرنسا مثلا يا حضرة الضابط ••

— آه . . هذا مربوط الفرس . دائما تتحدثون عن
الخارج ومن الخارج . لا يا استاذ . أعلم اننا هنا في
مصر . لا في فرنسا .

قال الولد بهدوء :

— ولكن التمثيل النيابي ذاته اختراع فرنسي .

— هذا ما تتوهم .

قالها مدافعا عن موقع مهتز .

— هذا مكتوب في كل الكتب .

— انتم تقرأون الكتب . لم لا تكونوا واقعيين ،
وتنبذوا هذه النظريات المستوردة في الكتب، وتختبرون
الحياة نفسها ؟

— لأنك يا سيادة الضابط لم تكن لتصبح ضابطا
لولا انك قرأت بعض الكتب ودرست بعض النظريات
التي وضعها الآخرون . فهل تريدنا باسم الواقعية أن
نعيش أميين كما كان يردد عباس باشا الأول : « الشعب
الجاهل أسلس قيادا من الشعب المتعلم » ؟!

استيقظ اللعين . الضابط يريد أن يتخلص منه
مع ذلك تنفيذا للأوامر . .

– أين تدرس أنت ؟

– فى المعهد الزراعى ..

– وما شأن الزراعة بهذه الفلسفة ؟

– الاقتصاد الزراعى علم فى صميم الزراعة ،

ابتدعه الأجانب أيضا ، وهو واقعى جدا مع ذلك .

ويمكن أن يكون أساسا فى كل أبحاث الديمقراطية

الاجتماعية والسياسية ، انت تعلم ..

– طيب • طيب • هذا آخر انذار لكم •

هكذا أنهى الموضوع •

والضابط نفسه يفكر : « لو كان الأمر بيدى لمنعت

سفر هؤلاء الأدعياء الى أوروبا التى تفسد عقولهم •

يعودون بعد أن يتركوا عقولهم هناك تهوم فى الاحلام •

فرنسا يقول ! .. أيمكن التحاور مع مثل هذه

المخلوقات ؟! ..



فى الصباح كان سيد فى دوار العمدة •

– ماذا تريد ؟

– أقول يا حضرة العمدة .. أبى غاب .. نبليغ
المركز يا حضرة العمدة .

– الآن ندمت ؟

– الناس أكلت وجهي ..

– بعد أن عملت العملة ، تريد الآن تبليغ المركز ؟
ماذا تقول في المركز ؟ طفل صغير تائه ؟ والا تقول
رجل هارب من الجندية ؟؟ تريد هم يضحكون من بلدنا
ويتندرون عليها ؟

– أنا لا أعرف رأسى من رجلى يا حضرة العمدة ؟
يرضيك أترك الأرض والمحصول لأدور في البلاد أبحث
عنه ؟ هذا أبى يا حضرة العمدة .

– رح يا ولد رح . غدا يعود برجليه . أين يذهب ؟
تظنه يجد قوت يومه فى أى مكان ؟ انتم هكذا يا فلاحين .
تتملعنون على شغل الأرض ، ثم تعودون الى شغل
الأرض . أين يذهب ؟!

فكر سيد وهو عائد الى حقله ان تلك هى عقيدة
المشكلة . واعتصر قلبه هم كبير ، لا بسبب غياب أبيه ،
وانما بسبب هذه المشكلة .. أين يذهب فلاح ليطمئن ؟
لا الأرض تعطيه ، ولا العالم كله يمكن أن يعطيه !

أما زينب فقد هفت نفسها ذلك الصباح الى أن
ترى سيد ، استسلمت لقدميها ، لهواها •• لا لأنها
لم تعد تقدر أن تمتنع ، بل لأنها لم تعد تريد أن
تمتنع •

لم تكد تأخذ الدرب المفضى الى حقله حتى أحست
دبيب النمل فى جسدها كله ، واستسلمت لقبلاته
المثيرة •

— سيد ••

صفعة على خدها أذهلتها عن نفسها •

— انت يا بنت دائرة فى المركز مع الرجال
تتمسخرين ؟

— سيد ••

— اخرسى •

— أنا كنت مع أمى •

اشمازت من ضعفها ، فزادها اشمئزازها انها را
فأجهشت •

— تكفينا الفضائح • الناس أكلت وجهى بسبب

أبى . وبسبب اعتزالي الزواج بينت البائنة . ثم بسبب
مسخرتك مع الرجال فى المركز . .

– كنت أبحث عن أبا مرزوق .

– انت السبب فى انه طفش .

– أنا ؟

– انت وأمك .

– لا . السبب هو قسوة قلبك . قلبك القاسى هو

السبب ! قسوة قلبك هى السبب . .

سقطت ركبتاها على الأرض . . ترتجف . كمشت

الطمي بأظافرها ودموعها تنهمر . وفجأة لطلخت وجهها

وحطت حقان التراب على رأسها . ثم قضمت من التراب

فى كفها وبصقته . بصقت التراب على الأرض . بصقته

على الزرع . التفتت يمينا وبصقت ، شمالا وبصقت .

استجمعت كل سخطها فى فمها وبصقته .

والتقت عيونهما الملتهبة .

فومض فى رأسه خاطر مؤلم .

الأرض هى أصل القسوة ، منبعها ومنبتها . الأرض

لم تعد تعطيه .

الفلاء التهم عطاءها •

يواجه عالمه بقلب حجر ، بقلب جفت رحمته
يواجه أباه وزينب والناس ••

أيليق برجل أن يكون لأهله غلام فوق الفلاء .
وضيقا فوق الضيق ، وفقرا فوق الفقر ، وقسوة فوق
القسوة !؟ ••

ومع ذلك • فالشباب يضحكون فى مجلسهم حول
البقال فى المساء • هو لا يضحك •• يغنون فى الحقول
تحت الشمس • وهو لا يغنى •• لم يا سيد !؟

لماذا تقضى النهار وهزيعا من الليل تحسب عائد
الذرة ، وتخصم ثمن التقاوى ، وتستخلص المهر
ومصاريف الزواج فتنتوى على عجزك ، بينما الآخرون
يتحدثون ويشكون ويتذمرون ويتندرون ويضحكون
مما بلتهم به الأيام !؟

— سامحنى يا سيد • ما عدت أطلع المركز •

— معلش يا زينب • لا تخافى • سنرى اليوم
الأبيض •

— ربنا يسمع منك •

— وعدنا الجدود بالميراث •

— أى جدود يا سيد ؟

دقت صدرها بكفها • واظهرت الدهشة ولم تخف
الجزع •

— هذه الأرض •• فيها اكثر مما يبدو لنا •

— أى شئ تقول ؟

— لا تحزنى • ستعلمين فى القريب • ربنا يرجع
أبى سالما ، وسيكون كل شئ كما نرضى •

بصوته رنة صفاء استغربتها •• ولمعة بعينيها
أفزعتها •



عندما دخل الرجال تلك الليلة الغرفة الثانية
بالمقبرة الفرعونية مادين الأذرع بالفتائل ، وأجهوا
التمائيل لا الصور •• أطلقوا الصيحات وارتجت
مشاعرهم ، اذ توهموا جميعا ذات لحظة صاعقة انهم
يواجهون بشرا احياء ، ذوى عيون تبرق فى الضوء
الخافت !

ثم انتشر الضوء ، ورأى سيد الشبه العجيب بين
رب الأسرة العجى الصامت وابيه مرزوقا ، فتيقن أنه
أمام جده . والتقت العيون فقراً فى عينى جده الوعد
الصريح المطمئن ، فذهل عن رفاقه وكلمه ..

— أين انت من زمان يا يا ؟

وضحك رفاقه ضحكات تألم لها .. الا انه جاراهم
بالضحك وانكب الجميع على البحث الملهوف هنا
وهناك .

وقبل أن يهتف أحدهم معلنا عثوره على أى شىء
صاح الديك ، ورددت صياحه ديكه كثيرة .. فتوقفوا .
أخذتهم الحيرة . ولكنهم كانوا على يقين انهم عثروا على
الكنز المرتجى . فمن شدة حرصهم قرروا الانسحاب
وسد الثغرة للتمويه ، واستئناف العمل فى الليلة
القادمة ..

وذهبوا .. يضحكون بمشاعر هزتها الفرحه —
فرحة عصبية ، يداخلها الترقب والاشفاق والقلق .



لكن عند الظهر حدث ما اضطربت له كفر آمون .
فقد وصلت سيارة صغيرة يتبعها لورى مكدر

بالعمال ، اخترقا الكفر وواصلوا طريقهما الى منطقة
الأثار .

انتبه الفلاحون فى حقولهم . تبع بعضهم السيارات
بالانظار . وتبعهما آخرون بالأقدام . .

نزل الركاب ، وفتحوا بوابة السور الشائك ، ثم
فتحوا الغرفة المبنية بالطوب جنب السور ، ودلف اليها
أفندى شاب يتبعه مساعدان ، بينما قعد العمال فوق
الكيما .

بعد قليل خرج الافندى ومساعداه من الغرفة
ودخلوا الفجوة المحفورة . .

لحظة خاطفة وبعدها . .

خرج الثلاثة يهرولون . . كأن الاشباح قد
طردهم . رموا الفلاحين الفضوليين خلف السور بنظرات
نارية وقفزوا فى السيارة الصغيرة التى طارت بين
دهشة العمال والفلاحين ، وبها الأفندية الثلاثة ، رأسا
الى القرية - الى دوار العمدة .

دخلوا مسرعين . . فاثاروا فضول المتسكعين حول
الدوار فتجمعوا يرقبون ، ويتظاهرون بعدم الاهتمام .

ثم خرج شيخ الخفراء أولا ، ونظر الى الواقفين نظرة خطيرة . ومن بعده خرج الأفندى الشاب ، ما يزال يهتز بالفضب ، تطلع الى الواقفين ورمى رأسه الى فوق وصرخ وهو يلوح باصبعه :

— يا أولاد الكلب يا حرامية .. بلغ بكم الفجور ، بلغت بكم الخسة والندالة ، أن تنبشوا قبور أجدادكم وتأكلون جثثهم ؟ فى أى شرع .. فى أى ملة .. فى أى كتاب يا كفرة ؟ .. وتسرقون تراث الوطن يا خونة ؟ اضطرب الجمع ، تفرقوا وتجمعوا . قال أحدهم :
— لماذا يشتمنا كل من يرانا ؟ لماذا تشتمنا انت يا أفندى ؟ نحن لا نعرفك .

— ستعرفوننى ، وأنا أعلقكم بيدي هاتين على المشانق !

★

حقا عرفوه ..

فبعد ظهر نفس اليوم ، ورغم ما كان يشغل الشرطة من مهام ، فقد كان فى الجهد فضل لتدعيم القرية حملة من العساكر .. اقتحمت أبواب البيوت بالبنادق والمعاول ، تحت ارشاد الخفر ، وشيخ الخفراء ،

وتعانت الصيحات حين فتشت الأزيار ، ونبشت الأرض .
فى بيت بهانة ، ولولت المرأة ..

– فلوسى . فلوسى !

ولكنهم رموا لها الكيس الذى ادخرت فيه جنيهاتها
حين كشف عنه نبش الأرض، فسكنت، ثم عادت للمصراخ
حين وقع البلاص فانكسر ..

ولكن لم تجد القوة ما تبحث عنه .

ومضت قافلة تشييمها نظرات الفلاحين الباردة
الساخطة .

★

فى الليل أضيئت منطقة الآثار بالكلويات وتناوب
الحراسة فيها أربعة من خفر القرية .. والفلاحين
يرقبون ويضربون كفا بكف ويهمهمون : « يا خسارة
يا أولاد . فرحة ما تمت » ثم يا للعجب .. يضحكون!
ومع مرور الأيام صار الشباب يتبارون فى تقليد
الأفندى مفتش الآثار وهو يصيح ويسبهم ..

★

ظل مرزوق طول النهار يحمل القروانة مليئة
صاعدا ، وفارغة هابطا فى طريق متعرج شديد الانحدار

أمام أحزمة متقاطعة من عروق خشبية .. كأنه فى
متاهة عبثية مرسومة .

كان يضل طريقه المرة بعد المرة ، ويسمع صيحات
العمال له : « حاسب ! » .. فينتبه . ولكن جهده
كصبره صار يضيق بالتدريج .

وكلما أضناه التعب يتناهى اليه نهيق المدق فيتوقف
ليلتقط الأنفاس ، ويقول : « اللهم اجعله خيرا » ..
فى العصر كلت قدماء ، فصار ينتظر ملء القروانة
قاعداء لا واقفا ، ويتندر عليه العمال :

— انت تعبت ؟

ثم ينهض من جديد .

كتفه كل ، فصار يبدل الثقل بين الكتفين .
ولما ينهكه الصعود ، كان يهمهم :

— كأن مكتوبا لك أين هذا كله ، يا حدق ؟

قبل المغرب بقليل ، وكان بعض العمال يستمعجون
الوقت بالتباطؤ فى العمل ، دوت صرخة !
هوى مرزوق من حائق .

يتوقف الراوى برهة ويقلب النظر فى السامعين .
أتبعه .

تعلقت الأنفاس . . مع ان المستمعين قد سمعوا
وروا القصة من قبل . الا انها طقوس الاستماع فى
كفرنا .

وربما سمعت :

— وبعد ؟

فيستأنف الراوى روايته .

— بالأمر المقدر كان لورى محمل بالتبئ مارا . (١)

شئ لا يحتمل .

أنظر فى عيون الرواة . .

هؤلاء الخبثاء .

أى صنعة رديئة !

قال لى رواة القرية ان مرزوقا أفاق فوجد نفسه
فى سرير أبيض ، يرتدى جلابية بيضاء ، وعلى رأسه
وذراعه وساقه ضمادات بيضاء .

كان يرقد فى عنبر كبير ملىء بالأسرة ومن حوله
المرضى يتصايحون ويسخطون ويضحكون ويتأوهون
بلا نظام .. بعضهم يقزقزون اللب والترمس أيضا .

تحسس أطرافه وحركها فاطمان قليلا . عاد ينظر .
المرضى يصيحون من الشباك :

— يا بياع البيض . (أو) يا بياع السجاير ..
(أو) بنت يا بيضاء ..

مجانين !

يتململ فى سريره ، ثم يحاول النزول . تؤله
ساقه فيصيح :

— آى .

— أحمد ربنا كتب لك عمر .

— رجلى .

— مادام ليس عليها جبس تكون سليمة ان شاء الله .

— أين أنا ؟

— الله . لم تفق بعد ؟ إنت فى المستشفى .

قبل أن يسيطر عليه الجزع أصابته صيحة
التومرجى :

– انت صحت يا خائب الساعة اثنين وموعد
الغذاء انتهى ؟ الله يقطعكم كل حياتكم فوضى ولخبطة .
تدخل أهل المرءوة من المرضى ..

– معلش يا حضرة التومرجى . الحمد لله على
سلامته . هذا فيه شيء لله . وقع من سابغ دور ولم
تنقص رقبته . كله بركة ..

قال مرزوق لنفسه : (يبقى أنا فى المستشفى
والغذاء راح . الحمد لله على كل شيء .)
– قل لى يا أفندى .

– ماذا تريد ؟ انت ستبتدىء فى المعاكسات ؟
الله ؟ اخمد نم حتى موعد العشاء .
– ليس الغرض ..

– ماذا تريد ؟

– استفسر يا أفندى . استفسر ..

– تستفسر ؟

– نعم • السؤال حرام ؟ هذا المستشفى ، بكم فى اليوم ؟

الضحكات دفعت التومرجى الصارم نفسه للابتسام ،
ثم تناثرت التعليقات • •

– تريد تدفع كم ؟

– يا رجل كل المصاريف هنا على قفا الحكومة •

– اطمئن ، ولكن لا نتفاءل بالطعام •

وبين الضحكات المترددة ، صاح مرزوق مستغربا •

– يعنى مستشفى الحمير بعشرة قروش فى اليوم ،
ومستشفى بنى آدم بلاش ؟

فقال التومرجى متفكها :
– أحمد ربنا انك لا تساوى حتى الحمار !

ضحكات • •

نظر مرزوق فى أنحاء العنبر المزدهم برجال
يضحكون ، وخطر بباله ان الناس هنا مجانيين •

– تضحكون ؟! أى والله صحيح ، على رأى المثل ،
هم يضحك وهم يبكى !



الفصل العاشر

• كان الديك يصيح •

صحا بعض المرضى واتجهوا الى المصلى محدثين جلبه
بوقع قباقيبهم وهممتهم :

« لا اله الا الله •• الحى القيوم •• »

– يا اخواننا نريد أن ننام •

لكن أحد الصاحين صاح :

– مرزوق هرب !

أطل البعض برؤوسهم من فوق الأسرة ، وتوقف
بعض المارين الى المصلى ••

كان سرير مرزوق خاليا وعليه جلاية المستشفى
البيضاء .

— ليس له فى الطبيب نصيب .



كان مرزوق يخترق شوارع المركز جريا ويردد :
— الله عليم . الله غفور . .

حين خرج من المدينة يخترق الحقول كانت عصافير
الصباح تسبقه ، تحلق حوله وتفرد .

وفى الضحى اقترب من الخط الفاصل بين الحقول
والرمال الجرداء ، فتوقف يلتقط أنفاسه ، وظلل عينيه
ودار ببصره يمينا ويسارا .

نعم . هنا بالضبط وقع فى آيدى عصابة الشحط .
هنا سقط تحت أقدامهم . هذا هو الطريق الذى
قطعوه بجذع الشجرة . هنا وقفت السيارة . تماما .
ثم دفعوه أمامهم الى المعسكر الانجليزى المهجور . وتلك
تبة ضرب النار . وكيمان الوسخ . فأين جلسوا ليشرّبوا
الشاي ؟ . . نعم . هنا رقد مرزوق تلك الليلة .

حفر مرزوق الأرض ، وسع الحفرة ، انتقل يحفر
حولها بيدين عصبيتين . النقود التى كان الشحط قد

قسمها نصيبا له مما غنمه وعصابته من عظيم بيه ليلة
نصبوا له الكمين ، وكان مرزوق قد دفنها حتى لا يأخذ
بيده نقودا حراما .

ها هي الآن .

عدها .

عشرة جنيهات وقروش ..

— يا مرزوق يا ابو سيد .. ما أتعذب له حرام .
وما يتعذب له حماري « الحديق » حرام . هذه النقود
حرام . ولكنني أخذت الحرام لأدفع الحرام .. هل في
شرع الله ما يغفر لي ذنبي ؟

ينظر في رحبة السماء ، الطيور تحلق حرة .

« ستظل طول عمرك حمارا ! »

وضحكة !

تلفت برعب .. لا أحد ، مع انه ميز تماما صوت
الشحط وضحكته !

وتذكر تلك الليلة المجيبة .. ثم خاف من نفسه ،
فشدد قبضته على النقود ، وجرى عائدا الى المركز .



وقف المركز كله ذلك اليوم على قدم •

انتهى الشحط !

لم يصدق معظم الناس ما يسمعون •

منذ الصباح يطير النبا كأنما ينقله الذباب من شارع

الى شارع ومن حارة الى حارة ومن حى الى حى ••

فى الضحى انتشر النبا ، وانتشر معه الناس فى

الشوارع يسألون ويتساءلون • لم يبد منهم غير انفعال

الاثارة ••

كان المأمور قد أعد الكمين للشحط بقوة صغيرة ،

وبأشهر الكلاب البوليسية • نبه على الضباط والجنود

المرّة بعد المرّة : « أريده حيا • من سيطلق عليه النار

سأنتقم منه ! »

وقد امتلأ رأس المأمور بفكرة أن أخذه حيا ادعى

لإعادة هيبة الأمن ، ولردع الآخرين •• أخذه حيا معناه

انه استسلم للشرطة ، لم تطلق الشرطة عليه النار من

كمين خفى •• غدرا •

جاء الكلب البوليسى فى الليل فى سيارة مسدلة الستائر . ولم تبد الشرطة أى تحركات غريبة حتى شقشق الفجر ، فانطلقت سيارتان تنسابان بهدوء كامل ، بينهما مسافة ، وعليهما أرقام عادية ، واتخذتا موقعيهما فى هدوء .

تقدم أربعة رجال من الشرطة بالزى المدنى . مدججين ببنادق سريعة الطلقات تحت المعاطف، وطرقوا باب نجمة الغازية . . عشيقة الشعط . فى أقصى أطراف المدينة .

دقتان قويتان وفتحت نجمة . أربعة رجال أشداء . . صرخت ، وهرولت الى الداخل فتبعها الأربعة .

الإشارة . اقتربت السيارتان بسرعة وفتح باب انطلق منه الكلب والباشاويش الى داخل البيت . كان الرجال الأربعة فى لمح البصر قد فتشوا وتيقنوا من عدم وجود الشعط . ولكن كل العلامات تدل على انه كان هنا ، فعلى المائدة كأسا شاي فارغتان الا انهما ماتزالان سخنتين .

— يظهر خرج يا بيه .

سحابة خيبة مرت على وجه المأمور الذى قلب ناظريه فى مدخل الدار .

كانت نجمة تبكى وتخفى وجهها بشالها ..

– الكوفية .

– كوفية من دى ؟

– كوفية رجالي .

– لابد انها كوفيته .

تقاطعت التعليقات بسرعة وقد حزم المأمور امره .

– حتما لم يبتعد بعد . هات الكلب .

شم الكلب الكوفية ، وانطلق وراء الأثر .. جرى ،
وجرت القوة خلفه . كأن الشحط خلف وراءه ذلك أو
صورته ، والكلب يراها بوضوح . يتبعها والقوة
تتبعه ..

عبر الطريق الزراعى القديم ودخل فى الذرة ..

الجميع وراءه . لا يرى أحدهم الآخر فى كثافة
الذرة . يتبعون بالأذان لهاث الكلب ، ومع الكلب
الباشاويش بيده الكوفية يضعها على أنفه والكلب يغمس
أنفه فى طين الحقول ويندفع ..

طلق نارى .

ثم أصوات حفيف الشجر ، كأن أشخاصا يتفرقون .
ولكن القوة لم تتوقف . اقتحمت ظلام الذرة ، بأذان
تتبع لهاث الكلب وعيون لا ترى شيئاً ، وقلوب واجفة
ترتعد وهى تتوقع فى كل لحظة طلقة مسددة . .

احتقن الدم فى رأس المأمور ، وأصابته ريح
الاحساس بالقنص فهتف بلا صوت :

— أما أنا أو هو !

عوى الكلب وقفز فى الهواء . انتزع مقوده من
العسكري . اختفى عن الأعين لحظات . ولكنهم كانوا
أسرع منه . صاح المأمور :

— الذى يقتله عدوى .

طلق . سقط عسكري .

انكتم عواء الكلب ، وزام كمن ملأ فمه بشيء .
اندفع الجميع . طرف جلابية فى فم الكلب والباقي
تخفيه الأشجار . انقطعت الجلابية ولكن الكلب قفز
قفزة عالية وتلقته فى الهواء فروع الذرة بفرقة . .

— رجل يقف معى على قدميه يا أنذال ! اطلقوا
النار يا أنذال !

— سلم يا شحط !

صرخ الشحط وصرخ المأمور • وانطلقت عزيمة
القوة ، واندفعوا تصفعهم الأوراق والثمار والفروع
صفعات جارحة ••

فاذا الكلب راقد على الشحط وفكاه حول رقبتة •
— أريده حيا !

قفز الباشاويش على الكلب فجذبه الى الخلف بقوة ،
ورمى العساكر بأجسادهم على ذراعى الشحط وساقيه •
كان الصباح قد تسلسل فى الفجر ، والشوارع
خالية تماما ، حين عادت القافلة الصغيرة بالصيد الكبير
الى قسم الشرطة •

وهناك دبت حيوية عنيفة فى أرجاء القسم ،
واهتزت أسلاك التلفونات بالاشارات الزاعقة •
انتهت المعركة •



جرى مرزوق فى شوارع المركز متجها الى الشفخانة ،
ردوه الى قسم الشرطة • مكتب البلوك أمين • حضرة
الضابط • عاد مع عسكرى الى الشفخانة • كانت

الشوارع أكثر ازدحاما • لفظ كثير • • لم يسمع كلمة ،
ولا فهم أية علامة • معه النقود والى هدفه يجرى • •

كان طبيب الشفخانة متبرما ذلك الصباح • بعد
أن وضع له الكلاف القهوة ، غلبته رغبته فى أن يعبر
عما بلبل فكره منذ الصباح :

– يقولون الشحط وقع اليوم يابيه •

– لا شحط ولا محط • أنا تاركها لكم وماشى •
لا تقربنى !

– خلاص رايح انجلترا يابيه ؟

– ما شأنك ؟

فكر الكلاف قليلا ، ثم تغلب على تردده ، وقال
بصوت متهيب رقيق ، لا يخلو من شجن :

– ألا تأخذنى معك يابيه ؟

نظر اليه الدكتور بعينين واسعتين منكرتين :

– أين ؟! فى انجلترا ؟!

– أنا خدامك يابيه • أكون خادملك •

— انت فاكر فى انجلترا تروح تحط التبغ فى
القول وتدخل الأكل الخارجى بنصف فرنك ، وتوالس
مع الباشكاتب والمتعهد ؟

— أنا يابيه ؟!

هتف بكل ما فى صدره من قدرة على التكذيب .

— انت فاكرنى قاعد هنا حمار مع حميرك ؟! أنا
تاركك تفعل ما يحلو لك لأن الأمر لا يهمنى . ان شاء
الله تدبح الحمير وتأكلها . ليس لى حمار فى هذا
البلد كله !

تهدج صوت الكلاف ، وخفت ، وارتخت جفونه
كأقرار بالذنب .

— دنيا غالية يا بيه ، وبنى آدم رخيص . الحاجة
تفسد بنى آدم ونحو مظلومون وانت عارف ..
— لا يا شيخ ؟!

قال بصوت حالم :

— لكن انجلترا شىء آخر .. هناك يستطيع الواحد
يراعى ضميره . مادام شبعانا ..
— رح شوف شغلك .. رح ! بلا نفاق !



أخرج الكلاف الحمار وسلمه للعسكري الذي سحبه
من مقوده ..

نظر مرزوق الى حماره ولم يتحرك . جرت دموعه
على خديه وصار ينثرها باصبعيه . وينظر ..

— هكذا يا حديق ؟! تهزل هكذا وتنقص هكذا ؟!
معلش . ربنا معك . ماذا كان ذنبك ؟! ولكه ياما في
الحبس مظالم ! لا تحزن . لا تياس . . انا معك . .
لن أخليك !

— انت تكلم الحمار ؟!

صاح العسكري وقفز فوق الحمار قفزة واحدة
ولكزه في بطنه بالحذاء الثقيل :

— شى يا تبع الكلب !

— حاسب عليه وحياتك يا شاويش .

— الحقنى على القسم ..

قالها والحمار يبرطع كأنه اشتاق للجرى، ومرزوق
يجرى خلفه ويصيح :

— تفضسه . بالراحة عليه يا شاويش . انت ليس
عندك أولاد ؟!

ضاح صياح مرزوق ، فقد ابتعد العسكرى بالحمار
•• فجمع مرزوق قوته وجرى كالمجنون •



فى القسم استقر الرأى على ارسال اشارة لعمدة
كفر آمون ، ليوفد خفيرا يضمن مرزوقا ويشهد على
ملكيته للحمار « بعد اجراء اللازم كالمعتاد » •• وقد تم
ابلاغ الاشارة بالتلفون •

التقط مرزوق أنفاسه •• اطمأن الى أن الحمار
مربوط أمام القسم تحت الحراسة ، وقعد حيث اشاروا
اليه فى الممر أمام مكتب البلوك أمين ، فانفتحت أذناه
لأول مرة فى ذلك امنهار •

كان أفراد القسم يهرولون هنا وهناك ويلغظون •
- نعم ؟ ماذا يقولون ؟ تقول الشحط ؟ غير
معقول ! ••

- تعرفه ؟

أطرق مرزوق :

مضى وقت • ثم قام مرزوق :

- يا أفندى • يا أفندى ••

- نعم •

– هل أستطيع أن أراه ؟

– من ؟

– الشحط .

– تعرفه ؟

– يا مصيبة سوداء ! ان قلت أعرفه وأريد أن

أؤدي له خدمة نى محنته ستشققوننى ؟

دس يده فى يد العسكرى فابتسم هذا وقال :

– كلك مروءة يا ابن الأصول . . تعال ورائى . .

نظر مرزوق من شبك الزنانة . كان الشحط

واقفا فى منتصفها . كان واقفا منذ أتوا به ، لا يتحرك ،

ينظر ناحية الباب بعيون مفتوحة جامدة .

– يا شحط . أنا مرزوق . ألا تذكرنى ؟ أنا

مرزوق تبع الحمار تذكرنى ؟

تحركت عينا الشحط . صوبتا فى عينى مرزوق .

بعد برهة :

– ماذا تفعل هنا يا مرزوق ؟

– أبدا . استلم حمارى . سمعت فجئت . الشدة

للرجال يا شحط . تريد شيئا ؟

– دام المعروف •

– هذه نقودك معي • ما يزال منها ستة جنيهات
وأكثر • • اشترى لك شيئاً أم تأخذها ؟
– أى نقود ؟

– التى قسمتها نصيباً فى يوم البيه • •
برهة •

– هذه نقودك. ونصيبك يا حمار • اما اذا أردت
أن تتخلص منها لتشهد ضدى ، فانهم يعطونك مثلها
مائة مرة •

– أشهد ضدك ؟! نحن رجال يا شحط !

– ونعم بك • رجالى فروا من حولى كالقثران •
– خذ النقود • تنفعك •
– الآن ما نفع النقود ؟ • •
– انتظر • •

جرى مرزوق الى الشارع • هنا وهناك • اشترى
الكباب والسجائر • • اشترى حتى حلاوة وخبز ،
اشترى عجوة وجبنة بيضاء ، اشترى طعمية وطرشى ،

مازال بيده نقود ، ولكن اللف تكاد تسقط من يديه
• • حزم أمره وعاد •

— خذ يا شحط • خذ • •

— ما هذا • الله الله !

• صاح العسكري • • ثم نظر من قضبان الشباك •

— ما هذا يا شحط ؟ انت فاكرها فوضى • رح

يا ولد •

انهار مرزوق قاعدا بين أشياء • • وقلبه يعتصره

انقباض غريب •



لم تكف التلفونات عن الرنين • •

قضى المأمور الصباح بطوله فى الاتصالات • فاجاه

عظيم بيه أولا بقوله :

— أرجوك يا حضرة المأمور لا تعرض الشحط فى

سيارة مكشوفة فى شوارع المركز •

— ماذا يهمك يا عظيم بيه ؟

— لأن هذا يؤثر فى الانتخابات ، بعد الاشاعة التى

سرت منذ حادث كفر سمان بأنه فعلها لحسابى •

— نعم • أما سمعتها؟! وأريد أن أضيف أن هذه
قسوة لا تليق بالجو الحر الذى نريده للانتخابات •
نحن فى مصر ، وهذا يؤذى المشاعر • •

ومع ان المأمور لم يكن مرتاحا لاقتراح عرض
الشحط بهذه الصورة ، الا انه اغتاظ من مكالمة عظيم
بيه • ولكن الضغوط توالى عليه • •

— سيادتكم لم تصدقنى • ان مسألة الشحط ليست
مجرد مسألة أمنية •

— لم أعد أفهم • لن أفهم ، ولا أريد أن أفهم •



عند الظهر اهتزت كفر أمون لنبا عثور مرزوق على
حماره • خرجت الى المركز بالنايات والزمائم، يتقدمها
الخفير المستدعى للضمان •

هاصت حول القسم • صاح بهم البلوك أمين :

— أنا قلت فى الاشارة يأتى خفير ، لم أقل يأتى
الكفر يا مواشى ؟

تسلم الحمار عسكرى تحت ذراعه دفتر ، بعد
الابتعاد عن القسم قفز فوق الحمار ، واتجه الى الكفر
يتبعه الجميع . . زائطين مغنين هاتفين بحياة العسكرى
والعمدة ومرزوق .

عند القنطرة بدأت الاجراءات الرسمية . نزل
العسكرى من فوق ظهر الحمار ، وصاح بالناس :
- كلكم الى الوراء . الحمار وحده فى الطريق . .
تراجعوا . .

انطلق الحمار يجرى . .

خلفه العسكرى والخفير . . يحجزان الناس .
والكتلة كلها تجرى خلف الحمار - الشاهد الأول !
وهى الطريقة الوحيدة للتعرف على ملكية حمار فى
ريفنا .

(تردد الحمار برهة فى أول البلد . . فتوقف
الجميع) .

ثم انطلق فى الدروب ، يبرطع كطفل كان تائها
وعاد الى بيته . ينهق ويزوم ويجرى . . الكتلة وراءه ،
والنساء فى البيوت أطلقن الزغاريد .

أمام الدار توقف • دفع الباب برأسه ودخل
بهدهوء ، فتدفق الجميع خلفه ، يضحكون ويحدثونه
كأحد أبناء البلد العائدين • أما العسكري فقد فتح
الدفتري وكتب وهو يقول بصوت عال :

« استدل الحمار على دار المتهم بالقسوة عليه مرزوق
الفلاني •• أمام الخفير النظامي فلان وبحضوره ،
وأمام جمع من أهل القرية ، ووقع المتهم بالاستلام ووقع
الخفير » •

تم الختم بدل التوقيع ••

ودعى العسكري لشرب الشاي •

انطلق رواة القرية يتحدثون عن الاحتفالات
بعدها ، والدلال الذي تدلله « الحديق » ، وكل من
الجيران يقدم له زيارة فؤل أو برسيم ••



ويبدو أن جو الاحتفال أنساهم الشحط وابتسر
سيرته • ولكن أحدهم روى لي أن المأمور نزل من مكتبه
إلى زنزانة الشحط قبل ترحيله • هتف العسكري :

— انتباهاه !

ودار المفتاح فى القفل بعنف ، وخطا المأمور نحو
الباب .

كان الشحط مايزال واقفا فى موضعيه بعينين
مفتوحتين .

– تريد شيئا يا شحط ؟

مضت دقيقة طويلة ، ثم تحركت شفتاه وقال
بصوت عميق جهير :

– اريد العدل يابيه .

فوجيء المأمور ، ثم قال بلهجة أكثر ودا :

– أطلبه من الله . . من الله يا شحط :

وخطا الى الخلف فأغلق الباب .



أما الآخرون فقد اسقطوا من ذاكرتهم تماما
أحاديث البية والمأمور والشحط وعمدوا الى مساعدة
الأيام على طمسها واغراقها فى النسيان . . بتحوطهم
الماكر ، وحذرهم الأصيل .

وأثاروا أثناء الانسحاب غبارا من رواية التفاصيل
حول أحداث القرية التى استدعتها عودة مرزوق، وحول

مفتش الآثار الذي أبى أن يسمح لأبناء البلد بالعمل
في منطقة الآثار • وجلب عمالا من الصعيد (!) •

ولكنني كلما كنت أصل في الاستماع الى هذا الحد،
كان ذهني يشرد ، فلا انصت لنواديرهم ونكاتهم، وتخفت
في مسامعي ضحكاتهم ••

• كنت أفكر في الشحط •

• قررت أن أزور المأمور •

قابلته في مكتبه • حكى لي بعض التفاصيل بصوت
هاديء ، لا يشي بأى زهو • وبعد أن أنس لي • أضاف
الآتى ••

تلك الليلة – بعد وقوع الشحط – كان يمر في
شوارع المركز بسيارة الشرطة • كان المولد قد انفض
ولم تبق من محافله غير مقهى وحيدة مفتوحة يغنى بها
شاعر موالا •

كانت المقهى مزدحمة • اقترب منها المأمور على
قدميه • اجتذبه شجن اللحن في هدوء الليل • لاحظ
ان الشاعر ينشد بصوت رخيم موال ياسين وبهية ،
وتقاطعه أصوات الاستحسان •

اقترب المأمور أكثر فلاحظه الشاعر ، وتلفت بعض
الموجودين • ارتفع صوت الشاعر فجأة بمقطع :

« احكم بالعدل يا قاضي • • قدامك مظالم » •

فهب الموجودون يرددون بصوت كله شجن .
والشاعر يكرر فيلهب صدرهم ، فيعودون يرددون
بصوت أعلى :

« احكم بالعدل يا قاضي • • قدامك مظالم ! »

عبر الى المأمور عن دهشته • حيث ان الشحط كان
مصدر خوف للمواطنين جميعا • • وكان قد انحاز لعظيم
بيه • فكيف يتأتى أن يكون في نظر هؤلاء مظلوما بحيث
يجابهون المأمور بهذا التلميح الواضح المقصود ؟!

أضاف المأمور : « لاحظ أن رجال عصابته
ما يزالون طلقاء • هنا مكنم انزعاجي وعدم فهمي •
شيء غريب ! • • »

عجبت لما قال • • لم افهمه أنا أيضا • •

ومع ذلك فقد أحببت أهل الكفر ، وهم يعملون
ويتندرون • • يدفمون بالتلاميذ الى المدارس فيهاجرون ،
وبالشباب الى الجيش فيسكنون المدن الكبيرة ، ويصنع

القاعدون رغم ذلك هذه الخضرة المتجددة منذ آلاف
السنين على مدى البصر فى أى اتجاه توجهت ..
هؤلاء الفلاحون ! ..

كنت أتمشى مع أحد الشباب الذين أدوا الخدمة
العسكرية فأشرفنا من بعيد على مقابر كفر آمون .
توقف . تلفت . ثم روى لى انه كان فى أثناء حرب
الاستنزاف فى الخدمة ، يسوق سيارة عقيد مدرعات على
الطريق الزراعى . فأوقفت الشرطة العسكرية السيارة .
وقال أحد الجنود .

— تسمح يا سيادة العقيد تتوقف قليلا تحت الشجر
لأن ثمة غارة معادية .

فانحرف الجندى بالسيارة تحت الأشجار التى تحف
بالمقابر وأوقف المحرك .
— هنا ..

أشار الى المكان .
فتح العقيد الباب وهبط واتجه الى المقابر حيث
وقف يقرأ الفاتحة .

وقف خلفه الجندى ابن كفر آمون يقرأ الفاتحة
وقد دهش قليلا ، واغتنبط بعض الشيء ..

— انت من هذه الناحية يا سيادة العقيد ؟

— لا .

— ألك قريب مدفون هنا ؟

— لا .

عادة فجنسا فى السيارة ، ولم ينبس الجندى بحرف ،
ولكن العقيد عرف ما يدور بخلده ، فقال :

— مقابر اية قرية مصرية تضم شهيدا بالجيش ،
أعلم ذلك . والترحم على الشهداء واجب . . لقد دفع
الجميع ثمننا للوطن .

هذا قول بسيط وصادق ، أفهمه جيدا ، ليس فيه
الغاز أو غموض .

أما غير ذلك من سائر الأقوال والافعال والمواجهات
والملايسات فهى عندى شحنات من التناقض الذى يميز
على الفهم والذى يفجر مشاعر الاغتراب فى الوطن أو
خارج الوطن ، ويشحق الفلاحين بذلك الاهتمام
العاطفى بأبناء القرية المهاجرين فى انحاء الارض ،
وذلك الشجن والحنين الذى لاحظته يملأ قلوب المصريين

المغتربين فى اى بقعة من عالمنا الكبير ، وذلك الشجن
والحنين الذى يشيعه الأرغول حتى فى ليالى الأفراح فى
قرى الريف المصرى أينما كنت .

(!نتهت)

مجموعة قصص قصيرة

آثار أقدام على الأسفلت

هذه حكايات عن ناس عرفتهم فأحببتهم ، وككل الناس هم يفعلون ويقولون فيعكسون غراية هذه الحياة التى يصنعها الانسان فوق الأرض لبنة لبنة وكلمة كلمة ويوما بعد يوم فتزداد قوة ووضوحا .

ثم . . ما أهون آثار الأقدام التى يتركونها وراءهم على الأسفلت . الطريق الصلب العصى ، كالبناء الحجري الذى يصنعه الرجل فيبقى بينما يمضى صانعه الى النسيان .

ان فى كل حرب قصص بطولة وذكاء وكفاءة ، وفى كل حرب قصة مجهولة – لجندى مجهول لعله هو الذى أطلق الرصاصة الفاصلة قبل أن يستشهد ، لعله تقدم

من شجاعته خطوة واحدة زيادة فروع العدو ، لعله
أغمض عينيه وصمد دقيقة أخرى للهجوم فحافظ على
موقع هام لحين وصول طلائع الهجوم المضاد . .

لهذا الجندى الذى سقط قبل أن يعلن عن عمله ،
أو يدركه من يعلن عن عمله . . تقام أروع النصب
التذكارية . ذلك لأنه لا يحمل أسم فرد ، وإنما يتقبل
أكاليل الغار نيابة عن الجيش كله .

فلم لا يكون ذلك فى الحياة المدنية . فى الحياة
المدنية أيضا ذلك الانسان المجهول الذى يبنى لبنة
صغيرة ، أو يلقي حكمة وهو يعبر الطريق ، أو كلمة
تلهم الغير ، أو يأتى فعلا حسنا يضيف الى الحياة ،
أو فعلا شريرا تكون منه عظة . .

لا ، بل الأبعد من ذلك أن يكون لفعل غرابية تنطوى
على حكمة ، أو تكشف لنا عن معنى نعيه فنستخلص منه
قوانين تفتح عيوننا على ثراء الحياة ، وعلى مصيادر
السلوك الانسانى أو حركة المجتمع .

ولعل فعلا رذिला يكشف عن عيب اجتماعى اذا
تأملناه ، ويكون له بذلك فضل .

بل لعل فعلا ما ، يضيف بمنتهى البساطة الى قلوبنا
ضحكة فبهجة ما أثمنها •

• ذلك الانسان المجهول

الا يسهم هو أيضا ، بالأبيض وبالأسود الى جانب
أبطال التاريخ ونجومه . فى تحقيق انتصار الحياة ؟
وكالجندى المجهول لا يترك خلفه اسمه أو تفاصيل
حكايته • وان كنا نعلم بالمنطق واليقين أن كل خير فى
حياتنا هو فى الحقيقة من صنع آلاف آلاف البشر ،
وآلاف آلاف اللحظات والأفعال والكلمات المجهولة •

وهكذا يمضى الناس فى مدينة أرضها أسفلت ،
كل خير يدل على انهم مروا من هنا ، ولكن ما أخفى
الأثار التى تركتها أقدامهم على الطريق الصلد •

ها أنذا تحية لهم أروى طرفا من أخبارهم ، وأصفهم
كما عرفتهم ، واقتبس عن لسانهم وأهدى حكاياتى
لهم •

• ١ • فى

أفنجينا

هذه قصته كما رواها لي بنفسه ، بعد عشرين سنة
من وقوع حوادثها ٠٠ انقلها عنه بالسياق الذي رواها
به ٠

دخل عطية مكتب العمل للمرة العاشرة ، فاعترضه
الساعي :

– كل يوم تقرفنا ٠٠ الأفندي قال لك يوم
السبت ٠

– يا رجل حرام عليك ٠٠ أنا مفصول ورزقي
مقطوع !

فصاح صبحي افندي من داخل مكتبه :

— خليه يدخل •

ارتاح عطية ودخل ، فداهمه صياح صبحى أفندى
المتندر :

— تعرف لو جنت هننا ثانية •• سأمزق شكواك
واسلمك للشرطة ! سامع ؟

— يا أفندى ••

قال الساعى :

— اخرج ! لا تعمل لنا مولد • اخرج ! ودفعه
بقوة •• فاذا هو فى الشارع •

كان عطية عاملا فى مصنع نسيج بحى الظاهر
بالقاهرة ، وفصل من عمله فصلا قدر انه تعسفى فكتب
شكواه « لمكتب العمل » الحكومى بالعباسية حسب المتبع .
ليقوم المكتب بالتحقيق واثبات حقوقه قبل صاحب
العمل •• الا أن الشكوى نامت عند صبحى أفندى
ما يزيد عن اسبوعين •

وكان عطية يصحو فى الصباح فينظر الى زوجته
وطفلته ، ويمضى خارجا بلا سلام أو كلام • الى أين ؟
ليس أمامه غير مكتب العمل والسؤال عن الشكوى وما

تم بها ٠٠ يدفعه للالاحاح شعور باليقين ان صاحب المصنع أقوى منه ، واقدر حتى على استمالة صبحى أفندى لدفن الشكوى الى الابد فى مكتبه ، فاية حيلة يملكها غير الالاحاح فى التذكير بنفسه ، وفى الاستعطاف والاسترحام وحث الافندى على اكتساب مرضاة الله ، لعل وعسى ٠٠ فاذا تلقى عطية ما يتوقعه من زجر ونهر ودفع وشم خرج يقضى حابة نهاره قاعدا على الرصيف امام المكتب ، يرقب الحياة فى جريانها بالشارع فيقبضه شعور بأنه فصل من جسمها والقى به خارج بابها ٠

فاذا خرج الموظفون فى الثانية حرص على رمى السلام على صبحى أفندى من مسافة ، تذكرة له ، ومضى الى حى الظاهر ينتقل بين مقاهى العمال مستطلعا رفاهه وزملاءه عن حال السوق لعل احدا يبشره ذات يوم بعمل ٠٠ ولكن سنة ١٩٥١ كانت سنة انهيار الفرص ، فقد تدفق على القاهرة عمال المعسكرات البريطانية مستقيلين استجابة لنداء الحركة الوطنية ، تدافعوا الى العاصمة مستبشرين يلتقون بمستبشرين ، فاذا سوق العمل يختنق بهم ، فتدنى الأجور وتذوب الفرص وتتوتر المدينة كلها ٠٠

ولكن الله كريم ٠٠ يردد عطية فى كل وقت ٠ اتخذ

عطية مكانه على الرصيف يرقب حياة تجرى ، فلا تكاد تأبه له ، الا أن رجلا توقف فسقط ظله عليه ، فرفع عطية رأسه بلهفة ، وخيل اليه بغموض أنه قد يكون رآه داخل مكتب العمل منذ دقائق ، ربت الرجل على كتفه وجلس جنبه يقول :

— مجرمون !

هز عطية رأسه متحفظا محاذرا ..

— ما حكايتك ؟

اقبل عطية عليه يقول :

— انا مفصول ، وحطيت شكوى عند صبحي افندي ،

وانتظر الجواب • الأيام تمضي والحالة صعبة !

— هؤلاء الموظفين مرتشون ، خذ نصيحتي ، هذه

بلد الاكابر والباشوات •• ان لم يكن وراءك ظهر ، فعليك السلام !

— ظهر ؟! أنا غلبان ••

— لكن الله لا ينسى عبده ••

ونعم بالله •

— انظر هناك . عند الناصية ، اقرأ اللافتة ••

نظر عطية مستطلعا حيث يشير الرجل ، وقرأ
لافتة كبيرة كتب عليها « حزب العمال » •

— والحزب ده •• رئيسه افندينا عباس حليم ،
تسمع عنه ؟

(كان البروتوكول يقضى بان يخاطب الخديوى
بلقب أفندينا . وهو لقب انتقل بفعل الضعف الطبقي
فأطلقه الناس على جميع أفراد الأسرة المالكة — بما فيهم
طبعا النبيل المتمرد عباس حليم — الذى كانت احدى
ابتداعاته فى الخمسينات انشاء حزب للعمال) •
كرر الرجل صيحة فى وجه عطية المأخوذ :

— تعرفه ؟

ابتلع عطية ريقه :

— قريب الملك ؟!

رئيس حزب العمال •

— العمال الى مثلنا ؟!

انت عامل ؟

— عامل نسيج •

— هذا حزبك ، وهذا رئيسك •

— يا فرج الله !

— ان كان معك ، فحقك معك •

— معى أنا ؟!

— انت •

قريب الملك ؟!

— انت ببغاء ؟!

— ده انا غلبان يا جدد ؟

— فى الحادية عشرة يصل بسيارته ، ستعرفه ،

اطلب ان يتشفع لك ، الموظفون لا يخافون الا الكبار !

وقف عطية ولم يقعد ، حث الخطى الى باب الحزب ،

التصق بالباب وعيناه تترنحان • لا يعلم كم مضى من

الوقت ، ولكنه توهم ان طنين دقات الساعة أعلن الحادية

عشرة حين دارت فى أول الشارع سيارة عملاقة زرقاء

مكشوفة خيل اليه انه لم ير فى حياته سيارة أكبر منها

حجما ، واندفعت بسرعة واقفة فى الشارع المزدحم

بالمارة واندفع هو نحوها أكثر اصرارا ورمى بنفسه
على مقدمتها صارخا فكادت تدهمه لولا الفرملة القوية .
نزل رجل عملاق في قميص يكشف الذراعين والصدر ،
وسيم وكهل ، طويل وممشوق وصارم الاعتداد ، مفضبا
يصيح بلكنته التركية :

— انتى مجنون والاد !

— انا فى عرضك يا افندينا ! شفيحك النبى تشفع
لى يا أفندينا !

— تريد ايه :

— انا عامل مفصول فصلا تعسفيا ، قدمت شكوى
لمكتب العمل منذ عشرين يوما اروح واجيء والافندية
تحتقرنى وتطردنى ..

قطب النبيل جبينه مستنكرا :

— أفندية !؟

— كلمة منك يا افندينا ..

— تحتقر عمال .. تطرد عمال ! .. أفندية بجم !
تعال .. اختطفه النبيل بيد قوية ، كاد أن يسحله الى

باب مكتب العمل ، صعد السلم مثنى ، وعطية يتعثر
خلفه وقد ازداد قصرا ، لكنه يلهث بالأمل •

ما أن دخلا المكتب - اقتحماء بتعبير أدق - حتى
رفع الساعى يده الى جبينه بالثحية ودق الأرض بقدمه
فارتجت ربما •• الواقفون هرولوا والماشون ترنحوا
وتفرقوا ثم انقلبوا فى لمح البصر وتجمعوا متهللين
مكبرين ، وأفندينا يخطوا الى الغرفة زاعقا بصوت
جهورى حاكم :

— من الأفندى الى عطلك ؟

— صبحى أفندى ••

وأشار عطية بطرف اصبعه لم يكد ، فرأى كأن
فرخا كبير يتقلب متملصا فى كفى أفندينا ، رفعه من
خلف مكتبه ورمى به تحت قدمى عطية ••

— انتى ولاد ؟!

قبل أن ينبس الولد، رفعه النبيل من جديد يوقفه،
وبيد خاطفة لا تكاد ترى من سرعتها ، كال له الصفعات
حتى سقط متدحرجا على الأرض فانحنى أفندينا ورفع
بيدين قويتين فوقف دائخ المينين ، ليجرب أفندينا معه
اللكمات !

عينا عطية مفتوحتان ، ولكن الأشياء غائمة فيهما
تماما ، أذناه مفتوحتان ، ولكنه لا يسمع الا أصروا
كانها آتية من بعيد جدا •

— أعرف أفندى بجم ! عباس حلیم موش حلیم !
عباس حلیم ثورة دم عمال واحد حزب يمسك واحد
حكم ، باشوات استعمار احتكار أذنا بخدم بجم شفق
شفق شفق • ثورة نبيل عباس حلیم قال اسمع والاد !!

لفته تتعثر . ولكن يدها فصيحتان ، عربيته تشوبها
لكنة تركية تندفع كتيار متقطع ، ولكن يدها منطلقتان
كتيار متصل ••

خرج زائلا هاتفا صائحا وقد جمد كل شيء في
المكتب ، وتعلقت الأنفاس وصبحى أفندى جسد هامد •

وما ان خرج حتى توجهت الأنظار كلها الى عطية ،
اخترقته فكأنها بحثت فيه الحياة بعد موت ، فقفز
كالملسوع خارجا يجرى ، مذعورا ، حائرا ، وحيدا ••

لمح السيارة العملاقة ، الا انه جرى للناحية الأخرى
مباشرة الى البيت ، دخل منتفضا والرضيعة تبكى فتكوم
فى السرير ، وامراته ما ان رأت وجهه حتى صرخت
ذعرا ، فصاح :

— اخرسى يا ولية ! اخرجى بالمصيبة التى جئنا بها
فى الزمن الاسود !

— يا خرابى ! ماذا حدث ؟!

— اخرجى !

فجرت مذعورة بطلقتها الى السطح .

ودفن عطية وجهه فى الفراش .

أفاق صبحى أفندى وفتح عينين ضيقهما انتفاخ
وجهه . فرأى شبحا مائلا على سريريه بالمستشفى :

— من الذى ضربك ؟

دارت عيناه فى محجريهما وغامتتا من الذعر . .

— لا تخف ، من الذى ضربك ؟

أحس بالدنيا تميد ، فهمس بصوت مرتعش :

— عامل اسمه عطية .



لا يعلم عطية كم مضى من النهار قبل أن تتدفق
الشرطة من الباب ومن الشبابيك وتمسك بتلايبه
عشرون يدا ، ويؤخذ من فراشه بقوة ، بينما الغرفة

تحرث حرثاً مدمراً ، ويزج به فى سيارة البوكس وايد
كثيرة ممسكة بكل أجزاء جسمه .

من أعماق ذهوله الذى رافقه ثلاثة أيام ظل يردد :
- لم أضربه ، لست أنا ، صدقنى يا بيه . برىء
يا بيه . .

وفى النيابة وجهت اليه تهمة ارتج لها جسده :
« ضرب موظف أثناء تأدية عمله ، وأصابته إصابات
تحتاج الى علاج أكثر من واحد وعشرين يوما » .

- يعنى ايه يا بيه ؟

- يعنى جناية . .

- برىء يا بيه ! . .

واستمر التحقيق متسلسلاً حتى قطعه عطية بقوله :

- أقول الحقيقة يا بيه . .

- قل .

- الى ضربه وأعدمه العافية قدامى وشفته بعينى
هو أفندينا عباس حلیم ذاته .

– نعم ؟!

– أفندينا البرنس عباس حلیم بذاته •

– لا يا شيخ ؟! والا الخديو اسماعيل ؟

– لا تصدقنى يا بيه ؟

– يا مجرمين يا مخربين !

– يا سعادة البيه ••

قال وكيل النيابة وعيناه منذرتان :

– تحب أسجل أقوالك ؟

– يا بيه ••

– وتقول هذا أمام المحكمة وأمام الشهود وأمام

المجنى عليه ونستدعى النبيل عباس حلیم لمواجهتك
وتقول أمامه ••

عيننا وكيل النيابة ترمى بنذير خطير ••

– أسجل كلامك !

صوت صارم متحدى ، وانذار خطير •• عض

عطية شفتيه ليحبس دمة :

— أنا الى ضربته يابيه •

— اعترف المنهم ويحال الى محكمة الجنايات ••

★★★

مع عدالة المحكمة انتدبت لعطية محاميا •• وقف
عطية فى القفص مخلوق الرأس فى ملابس السجى بين
حارسين ، اندفعت زوجته حاملة رضيعتها تصيح فى
القاعة :

— واعمل بهذه ايه يا عطية !؟

— اخرسى !؟

فارتفع نسيجها ••

مال المحامى عليه فى القفص ••

— اذا سالك القاضى قل له كلمتين ينفعانك ••

أنا غلبان ومسكين وصاحب عيال الى آخره وأنا أطلب
مع المحكمة استعمال الرأفة • فهمت ؟

— أنا أريد أعترف بالحقيقة يا بيه •

— ما هى الحقيقة ؟

— أنا لم أضرب ••

– يا عطية الانكار لن يفيد • كل الموظفين والعمال
شهدوا فى القضية ، الرجل ضرب فى مكتبه أمام
الجميع •

– لكن أنا لم اضربه •

– ومن ضربه يعنى ؟

– النبيل عباس حليم •

حملك فيه المحامى برثاء •

– وتريد أترافع عنك اذا قلت مثل هذا الكلام ؟

– الحقيقة يا بيه •

★★★

– حتى لو كانت حقيقة فهى ليست فى مصلحتك ••

– الحقيقة يا بيه ••

– وتزيد همك وغمك وتحرمك عطف القاضى ••

ودفاعى قلت ايه ؟

– يا خبر اسود ••

– عقلك فى رأسك اعرف خلاصك ، أنا محاميك

ونصحتك •

« أنا غلبان وصاحب عيال الى آخره » ، وطلب
المحامى استعمال الرأفة فقضى عطية ثلاث سنوات فى
السجن . .

وقبيل انتهاء مدته نقل الى سجن روض الفرج
بالقاهرة تمهيدا للافراج . .

لم تكن محنة تماما ، قال لى عطية . . فالذى لم
يتصل أبدا فى حياته بالحياة ، لا يشعر بالوحدة أو
العزلة أو الوحشة فى السجن . . ربما العكس .
وما دامت الزوجة والطفلة فى كنف الأب . فلعل الأب
هو الذى شقى بسجن عطية .

ما علينا . فقد تقلب عطية أحيانا فى القهر
وأحيانا حلق على أجنحة المرح ، وأكل دائما حتى الشبع ،
ولم يبت ليلة يفكر فى غده . . كانت ثورة يوليو قد
قامت ولكنه لم يآبه لذلك . .

فى عنبر سجن روض الفرج انتابته حالة من الهذر
والتندر والتحدى المحسوب ، فانطلق يثرثر ويضحك
ويمرح . .

ف ذات يوم فتح فجأة باب العنبر ، وخطا الى الداخل

مسجون عملاق ، كهل وأنيق ، هادئ الوجه الا أن
عيناه صارمتان .. ما ان رآه عطية حتى هتف :

— أفندينا ؟!

وتجمع المسجونون يتطلعون ..

— أفندينا عباس حلیم نفسه .. مسجون ؟!

رماه عباس حلیم بنظرة مستفسرة :

— انتی والاد تعرف نبیل عباس حلیم ؟

— أنا عطية يا أفندينا .. تتذكرني ؟ أنا اللي انت

ضربت صبحي أفندي في مكتب العمل علشاني وانحبست
أنا بذلك ؟ تتذكرني ؟ يوم ما رميت نفسي على سيارتك
في العباسية .. تتذكرني ؟

كان النبيل يبذل جهدا ليتذكر ، ولكنه احتاج
ساعة زمن ليحكى له عطية كل التفاصيل التي صدقها
النبيل ، ورقمها بضحكاته العالية ، نظراته المستنكرة ،
حتى فهمها إلا انه لم يتذكرها أبدا ..

بعد أن قدم له عطية الشاي ، نظر له النبيل
متفرسا ..

– ليه والاد ما قلتش نبيل عباس حليم ضرب
أفندی ؟

– خفت ..

– جبان ..

– خفت يا أفندينا ..

– جبان والاد ..

نظر عطية حوله فى العيون المستطلعة المتفككة
للمسجونين ، وقال جادا :

– خفت يا ناس ..

دفعه النبيل فى صدره دفعة رفيقة :

– لو عمال شجاع شجاع شجاع كثير ، انتى أنا
نمسك واحد حكم ، عمال جبان جبان جبان كثير ، انتى
أنا نمسك واحد زنزانة ! انفجر العنبر كله ضاحكا ،
فنظر النبيل حواليه بدهشة ثم انفجر ضاحكا معهم
بصوت مجلجل .

حالة

مشى الأستاذ أيوب فى الشارع مطرقا براسه ،
يحدث نفسه :

خمسة جنيه انجمعية ، وثمانية قسط الثلاجة ..
تلتاشر • واثنين جنيه سالفهم من الأستاذ محمد على ،
جنيه ونص البوفيه • • ستاشر ونص • •

اصطدمت سيارتان فى الشارع صدمة رؤوس الناس
فى الزحام • وتطلع أيوب • خرج قائدا السيارتين
يزبدان •

– مش تفتح !

– انت الأعمى !

ثم طفى على صياحهما جنون الكلاكسات احتجاجا

على انهما سدا الطريق .. فمضى أيوب مبتعدا وقد صم
أذنيه وانصرف لحديثه مع نفسه :

— كنا فين ؟ آه . ستاشر ونص .. أربعتاشر ايجار
البيت ، وأربعة نور وواحد بواب .. خمسة وتلاتين
ونص .

مال الأتوبيس ليقف في المحطة فكادت عجلاته
تصعد فوق الرصيف، وصاح المنتظرون وسبوا السائق،
فما أن وقف حتى انهمر تيار النازلين واندفع تيار
الصاعدين فاختلعا وارتطما بتصميم وتصدد .. وجرفه
التياران فكادا يتلفانه ، وقد تدافع حوله البشر كأنهم
ينوون اختراق جسده ذاته ، وهو يصيح مع الصيحات :
— حاسب ! مانتش شايف يا أعمى ! خللى عندك دم !
لم يعبا به أحد وهو يتملص بينهم مفتاخا ، لكن
شق الهرج كله صوت صارخ نافذ :

— حرامى !

فانطلق جمع كبير من الناس يجرى ، بعضه وراء
البعض ، ووضع أيوب يده بحركة لا ارادية على حافظة
نقوده وبها مرتبه ، ثم زرر سترته باحكام وأفلت مبتعدا
يولى ظهره للناس ، ماشى مبلرقا معتكفا على ذاته ..

كان أيوب قد أقلع نهائيا عن عادة ركوب الأتوبيس .
وراض نفسه على المشي من بيته بوسط شبرا الى مكتبه
بمبنى المجمع بميدان التحرير ، والعودة كل يوم . .
ووجدها أقل عناء ، المشي مسلي . . لولا ما يدهمه في
الطريق أحيانا من حوادث طارئة . . وهو يمشي دائما
مطرق الرأس محاذرا من مطبات الرصيف بعد وقوعه
مرة في حفرة آلت ركبته أياما طويلة . .

في أول الشهر . بعد استلام المرتب . يكون المشي
أسهل . حيث يستغرق أيوب كلية في حل اللغز الحسابي
الصعب . . حتى على كاتب حسابات مثله . .

– الولد ستة جنيه المدرسة ، واثنين جنيه مصروف
أيده . . ثلاثة وأربعين ، نص ، يتبقى من مرتبي عشرة
جنيه ونص . . نيجي للأكل والشرب . . سبعة جنيه
الجزار وثلثين جنيه مصروف البيت ومعانا ستة
وعشرين ونص من مرتب مراتي .

– حاسب !!

اخترقت أذنه الصيحة . . وركبته تضطدم بلوح
خشبي يعترض الطريق فقفز مذعورا للوراء :

– آي !

— بطلوا الهباب الى بتعاطوه ده ! كنت حتموت
نفسك ..

— احفظ أدبك !

نظر أيوب لحظة فوجده عامل بناء معفر الوجه
والثياب .. فغاد يصيح :

— راعى مركزك يا بجم .. !

طيب معلش .. سماح يا سعادة البيه .

سماح يا سعادة الباشا يا أمير ومركز يا بتساع
اليومية اتنين جنيه .. حقك على ..

— قال أيوب لنفسه :

— كيف عرفت مرتبى ؟!

ثم صاح بمثل تهكمه :

— معلش يا بو يومية ثلاثة جنيه ..

— وحياتك ومش مكفينين ..

— ايه الخشب الى معترضين بيه الطريق ده ؟! دى
أعمال مشروعة ؟!

انقضت على الأرض كتلة انقاض هائلة أثارت
عاصفة ترابية ، قفز أيوب ولوح بيديه .

— شوف بنفسك .. ينهد .. حنبنى عمارة ماية
دور عقبال أملتك .. حطيندا انخشب علشان مافيش
مسطول يخش الهدد ويجيب لنا مصيبة .. فهمتها
يابيه ؟

ابتعد أيوب محاذرا ومتحسبا من سلاطة الولد ،
إلا أن هذا قذفه وهو يمضى بصيحة :

—والخلو عندنا ان شاء الله عشر تلاف جنيه . ان
كان لسعادتك غرض ..
وجلجل ضاحكا ..

أغلق أيوب أذنيه ومضى ..
الأولاد يجزرون خلفه وحوله يضرب بعضهم بعضا
بعقائب المدرسة على الرؤوس .. أفلت منهم ومشى ..
— يبقى فاضل من مائة مراتى تسعة جنيه ونص
.. ولسه خياطتها ومصروف جيبنا أنا وهى وأنا عايز
قميص ..

— أيوب أفندى .. أستاذ أيوب ..
تلفت البقال .. خبر زى بعضه ، ونسينا البقال؟
— طيب بعدين .. بعدين .. انت لك كم ؟

– مش الغرض ياسى أيوب .. أنا كنت عايزك فى كلمتين ..

انتحى به جانباً :

– الولد ابنى سمير الى فى الاعدادية، مانت عارفه، محكم رايه ياخذ درس حساب .. قمت أنا مارست المدرسين .. بعيد عنك عايزين شقطة ، غليوا وبقوا بتوع عقود فى بلاد العرب .. أنا قلت أنفعك .. وانت أولى من الغريب ، وطالع من ذمتى خمسة جنيه فى الشهر ..

– أنا أدرس له ؟!

– حساب .. وانت باشكاتب حسابات .. هى دى حاجه .. اعمل معروف ..

مضى أيوب مطرقاً ..

– يبقى البقال اتسد ، لكن المشكلة مانحلتش .. نرجع من الأول مع التعديل .. خمسة جنيه الجمعية .. – تركب يا أفندى ؟

تطلع أيوب مستغرباً السؤال .. فحص المتحدث له فاذا هو عملاق يرتدى جلابية حائلة .. حافى القدمين

.. يانهار زى بعضه .. قفز أيوب مرتدا اذا رأى
نفسه خائضا فى الماء بعدائه ..

— اه ده !؟

، لا مؤاخذه الماسورة يا أفندى انفجرت .. ان كان
بيتك قريب اركب بعشرة قروش للبيت ..

— ماسورة مايه والا مجارى ؟

— هلبت المجارى ..

— اركب ..

وتلفت بأحاثا عن الركوبة .. فاذا بالرجل العملاق
يستدير وينحنى ..

— اركب ..

فهم أيوب ، وصعد على ظهره ..

صعد سلم البيت يدب بقدميه لينفض الماء عن
حذائه .. فتح الباب ودخل .. أحس بأن زوجته فى
المطبخ .. خرجت فى فرجة الباب وبيدها المفرقة ..

— سلامو عليكم .. جيتى ازاي فى المايه ..

سال بقلق !

٠٠ قبطت ؟
٠٠ عدوك الجزمة. باشت خالص ولا عادتش تنفع

— ايوه .

— اعمل حسابك فى جزمة لى النهارده .٠٠

— اعمل حسابى ؟!

— انت حر .

٠٠ ودخلت المطبخ .٠٠

فى غرفته، خلع سترته وحدث نفسه :

— يعنى كنت عايزها تركب .٠٠ والا تروح الشغل

حافيه ؟! اعمل حسابك من تانى ؟! وادى جزمة بسبعة
٠٠ جنيه .٠٠

أطلت عليه من باب غرفته ، فقال بصوت مسموع :

— وبلاش مدرسة الولد .٠٠

— بلاش ازاي .٠٠

— يعنى حيتعلم يطلع زى أبوه .

أنا جعلته صنعة حلوة .. سمكرى .. عقود فى
الخارج .. الولد السمكرى الى جبناء قال ايه ..
جنيه مافيش ملين ناقص واحمدوا ربنا أننى
مافترتش .. أدى الصنعة .. 11

انصرفت تهز كتفها ..

— انت حر ..

فانطلق مع نفسه ..

— من تانى .. خمسة جنيه الجمعية .. والا أقول
لك أدى الفلوس ..

أخرج الفلوس ووضعها على السرير وفرقها
أكواما ..

— خمسة جنيه الجمعية .. واثنين سلف .. الخ ..

— انت جاتلك الحالة ؟

نظر فإذا زوجته تطل عليه من الباب ..

— حالة ايه ؟

— حالة أول الشهر .. شايفاك بتعد فلوسك وتكلم
نفسك ..

.. آه .. عندى الحالة ..

– طيب اعمل حسابك على خمسة جنية دكتور •

– لمن كفى الله الشر ..

– لك ..

وهزت كتفها ومضت الى المطبخ ..

انطلق وراءها ..

– طيب تعالى عديهم انت .. ادينى خمسة جنية

مصروف واتصرفى انت ..

– وأنا مجنونة ؟ انت رب الأسرة ..

• أنا حفير مهنتى واشتغل مدرس وأعطى دروس

خصوصية •

– ياريت ..

– ياريت !؟ يعنى ايه ؟ مش عاجبك !؟

عاد الى نقوده يطرد القلق ..

– وأدى ستة جنية الولد ، واتنين مصروف .. الخ

– عندى لك مفاجأة لكك مدهشة ..

- خير ؟ طابخه باميه !
- همك على باطنك .. مفاجأة مفرحة .
- طمئيني .
- تعال .
- جذبتة من يده بدلال الى غرفة الجلوس .
- عارف الراديو المسجل المستورد الى شغناه عند خالتي تفيده ؟
- آه ..
- فتحت الباب و اشارت باصبع رقيق .
- آهه .
- كان الراديو المسجل موضوعا بعناية على مفرش مطرز فوق منضدة .. يبرق ..
- أعطتهولك هدية ؟!
- انت مجنون ؟! أنا اشتريت زيه ..
- حملق فيها غير مصدق فصاحت تطمئنه .
- لكن بالقسط .

— قسط ١٩ —

— ثلاثة جنيه ٠٠ واحدة زميلتى جوزها بيشتغل
فى السعودية ٠٠

فجأة اتسمت عيناها روعا ، فقد لعل صوت
عبد الحليم عاليا جدا بأغنية : « أغرق ٠٠ أغرق ٠٠ »
ثم تبينا معا ان الصوت ات من الخارج فضحكت
هى بينما اندفع أيوب ففتح الشباك وصاح :
— انت يا جدع ! انت يا صاحب القهوة •
أطل القهوجى من تحت :

— نعم ٠٠

— اقفل الراديو فوراً ! ٠٠

— ليه يا عم أيوب ٠٠ احنا مفرحين النهارده اول
الشهر والزبون مبسوط ويسمع ٠٠

— ده حى سكنى يا معلم والحصه حصه خدا ونوم
٠٠ اقفل !

— يا فتاح يا عليم ٠٠

تملص أيوب من يدى زوجته التى حاولت أن

تصدده عبثا ..

— اقفل لانزلك يا حمار !

— طيب انزل ..

اندفع أيوب كالصاروخ ثم ارتد يبحث عن القبقاب
تحسبا من مياه الشارع ، لم تنفع دفعات زوجته
ولا صيحاتها .. ام فلوسه من على السرير فى جيب
بنطالونه . وانطلق يطرُق القبقاب على السلم ..
واندفع داخل المقهى .. وحازل القهوجى أن يشنيه ..

— ايه يا أيوب افتدى مش كده ! احنا جايين
راديو اكسترا نفرح بيه الزباين وعابري السبيل .

— اقفل يعنى أقفل !

— طيب مانبش قائل !

— حكسره على دماغك .

— ان كنت راجل كسره .. هى سايبه .. ده أنا

دافع فيه خمسين جنيه النهارده من حر مالى .. تكسر فى
ملكى ؟! ما اتخلقشى !!

قال أيوب بنفس الصوت المتهجم ..

تبيعه ؟

• حملق القهوجى غير فاهم •

— تشتريه ؟!

— خمسين جنيه أهم •• على الجزمة !

— الله يسامحك •• انت جار •• والجار أولى ••

شيل ••

رمى أيوب النقود على الطاولة واحتضن الراديو
وهو يفنى فى حضنه ورجع ووجهه مايزال محتقنا
بالغضب •• راقبته زوجته وفتحت له الباب مذعورة
فدخل غرفته ورمى الراديو على السرير وأغلقه ثم قعد
على الكرسي ••

— انت مش اشتريتى راديو ؟

• تكسر صوتها وداهمها الخوف •

— أيوب •

.. — مش هى دى المشكلة ! المشكلة ان احنا موظفين
الحكومة ماسكين زمام البلد •• احنا الحكام لكن
ماعدناش ماسكين زمام أنفسنا ••

صاح :

– فهمت ؟

– فهمت .

لكنها أسرغت خارجة . باب الشقة مفتوح . .
جارتها سامية فى الطرقة تتطلع باشفاق . . وقد
اجتذبتها صياح جيرانها . . وقفت كل منهما تحملق فى
الأخرى . .

– مالك ؟

– مافيش . . لكن يتهىالى كده ان أيوب جوزى مش
فى حالة طبيعية ، وخايفه ليكون جن !
هزت جارتها كتفها غير مبالية :

– عدوك . . تلقيه بس بيعد ماهية الشهر . .

اللعبة

الكبار يلعبون ، والصغار يلعبون .. ولكن لا تحسب أن اللعب بعضه لهو ، وبعضه جد .. فليس ثمة لعب نزيه عن المنفعة أبدا .. كيف يمكن أن يكون لعبا نزيها عن المصلحة ، اذا كان الكبار والصغار لعبتهم الحياة ؟

أما هذه اللعبة فقد بدأت برنين جرس شقة صالح أفندي ، وخادمة صغيرة تعلن مقدم سيدتها وسيدها للزيارة ، فتجهز البيت الصغير على عجل لاستقبال الضيفين . وقد أضفت المقدمة على الموضوع ظلا من الرسمية لا يطمئن ..

تسامل صالح أفندى بقلق وهو يحكم الروب الحائل
اللون حول جسمه :

— عايز ايه يا ترى على أفندى ؟

وكانت زوجته أكثر شرودا وأقل مبالاة فلم تجبه ،
ولكن أحمد .. أكبر الأولاد ، الذى لم يتجاوز الثالثة
عشرة بعد ، اعتراه قلق مفاجئ ، فانزوى فوق سريره
وفتح كتاب التاريخ .. بعد أن دس قصة « غرام
الأميرة » تحت الوسادة وأرحف أذنيه ..

دخل على أفندى بقائه المديدة النحيلة ، ومن
خلفه زوجته سنية هانم .. بدينة مترهلة .. ثقيلة
الخطو .. وقد وضعا على وجهيهما قناعا من الجذ
توجس له صالح أفندى ، المتطير بطبعه ، الحذر
بغريزته ..

فبعد المجاملات الشكلية ، وتبادل الكليشيهات
المعتادة بالإشارة والقول .. بين الرجلين من جهة ،
والسيدتين من جهة ، انتثروا فوق مقاعد الصالون ..
وشمخ على أفندى برأسه ، وقال بلهجة حاسمة :

— احنا يا صالح أفندى جيران من زمان ، والحيط

فى الحىط ٠٠ هـ كلنا عندنا عىال ، والعىال بتخسر
بعضها ٠ وأنا والحمد لله خلفت وربيت ٠٠

فقاطعه صالح أفندى ، احتشد متحفزا للخطر
المرتقب :

— واحنا كمان خلفنا وربينا يا على أفندى ٠٠

فانتفض هذا واقفا وصرخ :

— الى يكتب الكلام ده مترباش ! وأبرز من فوره
ورقة صغيرة مطوية ، دفعها منفعلا الى الرجل الذى مد
اليها يدا مرتعشة ، وزوجته لا تزال تحملق بعينين
متطلعتين واسعتين ، الا أنهما غير مضطربتين ٠

قرأ صالح أفندى فى الورقة : « حبيبتي بثينة ٠٠
من عز الشوق أنا بكتب لك ٠٠ الخ ٠٠ الخ ٠٠ احمد » ٠

قرأها المرة بعد المرة ، لا ليفهم ، فقد فهم من أول
وهلة نوع المصيبة التى كان يحس ديب خطوتها الى
بيته ، ولكنه كان يراجع نفسه بسرعة ، ويتساءل
متوجسا : « لماذا لم يكتب الموضوع سترا للبنت وتجنبنا
للفضيحة ؟ » ٠

واستولى عليه شيئا فشيئا شعور بأنهما يعكران الماء
ليتصيدا من بيته شيئا .. ربما ليتصيدا الولد الصغير
نفسه ! لعبة ! لكن على من ؟!

ضبط صالح أفندى نفسه بسرعة ، وقال بهدوء
مصطنع ، وهو يغمز غمزات جارحة :

— أحمد ابني ؟! ده مبيعرفش يكتب .. شوف
أحمد مين اللى بيجرى ورا البنت . شوف كمان يـمكن
يكون خطها هـى !

ففتح على أفندى عينيه غير مصدق ، بينما دقت
زوجته صدرها واعتراها ذهول :

— خطها ؟! قال بطلوا ده واسمعوا ده ..

وصاح الزوج :

— انت حاتلعـب بعقلى وتقول لى كاتباه لنفسها ؟
ليه ! قول لى بعقلك أنت كده .. ليه ؟!

واكتسحه شعور بالفوز حين ألقى هذا السؤال ،
وأن كانت عروق دماغه لم تزل تنبض بالغضب .

رمى صالح أفندى نظره على زوجته ، ففهم انها
بدأت تدرك المسألة ، أخيرا .

وتمهل قليلا قبل أن يقذف قنبلة :
٢٦٣

— علشان تلفت نظركم انها كبرت .. تفكروا
تجوزوها ..

فمصصت زوجته بشفتيها ، وقالت .. وسرور
خبيث يدغدغ أعصابها :

— حقه على رأى المثل .. من البنات ياخواتى برية!
فالتفت اليها على أفندى وزوجته ورأياها ممسكة
ثوبها بأطراف أصابعها .. فغلى الدم فى عروق على
أفندى وقفز فصار وسط الصالون وصاح بأعلى صوته :
— لا .. انتوا زودتوها قوى ! أنا حاكسر رقبتة .
أنا حاشوف شغلى .. أبوه ألعن منه يا سنية يللا ! بينى
وبينك البوليس .. سبعتاشر سنة فى الحقة .. الخ .
وتصدى له صالح أفندى لئلا يفهم ان كل الطير
يؤكل لحمه .. وجاوبه صياحا بصياح :

— عندك البوليس والنيابة .. مش خط أحمد
ابنى .. احنا منعرفش حاجات زى دى .. الخ .. الخ .
وسنية هانم .. التى لم يعجبها أبدا الاتجاه الذى
جرت اليه الأمور حاولت جاهدة التدخل بقولها لزوجها :

— استنى ياسى على أفندى بس اما نشوف ..
نتفاهم بالعقل ..

وخافت زوجة صالح أفندى أن يبرد الجو فأرهفت
نصلا لتجهز به على الموضوع ، قالت بتأثر بالغ
الاصطناع :

— يا ساتر يا رب من لؤم البنات !

وهكذا انقلب الجانى مجنيا عليه .. وأصبح
المجنى عليه جانيا .. واستشاط على أفندى .. وروعت
زوجته .. فجذبها من ذراعها بقوة وخرج ..

★★★

قبل أن يفلق صالح أفندى الباب خلفهما كان
أحمد — وقد شعر بخطورة الموقف — قد نشط لاختفاء
« غرام الأميرة » فوق الدولاب .. وقلب أوراقه ومزق
الرسوم التى يتسلى برسمها أثناء المذاكرة .. كمن
يتوقع تفتيشا دقيقا مفاجئا .

فما أن أغلق صالح أفندى الباب .. حتى انقلب
هدوء المصطنع هياجا وانقض على غرفة الأولاد ..
فصاحت الأم وهى تعترض سبيله :
— يا مصيبتى ! ايه اللى حصل !؟

تقلصت عضلات أحمد وانكمش في السرير ..
بينما ارتعد اخواه سمير وسلوى واصفر وجهاهما ،
وانزويا كل منهما في ناحية .

– حصل !؟ انت عايزه يحصل بعد كده ! انا
حا اقطع رقبتك .. تلاتاشر سنة ولسه في اعدادى ،
وكمان بيكتب لى جوابات مسخرة ! أوعى من قدامى !
اعترضته الأم بكل ثقلها .. ودفعته خارج الغرفة
وهى فى شدة الجزع فما استطاعت أن ترحزحه قليلا :
– اسم الله عليك ياسى صالح . ما طلعت البت هى
الى كاتباه ..

– البت الى كاتباه ؟! الكلام ده على أنا يا ولية ؟!
يا ولد ! ..

كانت عضلات أحمد قد تصلبت تماما .. ولكن
النداء مع ذلك انتزعه من مكانه ، فأقبل متثاقلا :

– نعم يا بابا ..

– نعم ؟! حتقول لى نعم ؟ .. انت يا وله كتبت
جواب لبنت على أفندى الى تحت ؟

وقبل أن يجيب الولد كان قد رفع ذراعه ليصفعه
فاندفعت الأم وتلقت الصفقة :

– استنى بس يامى صالح أبا نشوف ..

وهلة سمعت لأحمد أن يمرق الى الباب، وان يخطف
السلام ويمضى على وجهه الى الطريق ..

وانقلب الموقف تماما .. وصاحت الأم :

– ح تضيع لى الولد !؟

وجرت الى الشباك تنادى البقال والمكوجى وعابرى
السبيل أن يمسكوه ..

ثم اختطفت الباطو ورمته على كتفيها . واندفعت
وهى تنتفض .. وسمير وسلموى فى ذيلها ، وتبعهم
صالح أفندى وهو ينفخ من شدة الانفعال .. وأغلق
الباب ..

قالت الأم بلهفة :

– يارب يكون راح عند خالته .

وقال الأب :

يمكن يفوت على عمه ..

ومع ذلك سارا متلازمين مع الولد والبنت ،
متماسكين يسترشدان بكلام الناس ..

من هنا .. لأمن هناك .. أنا شفته .. أيوه فات
من الناحية دى .. أهى دوخة !

مرت الدقائق ثقيلة مرهقة ... وتمتعت الأم
تجاوبها خفقات قلب الأم .. حتى وصلا الى البحر
وقلوبهم تدق بشدة ..

صاح سمير : أهه !

وكان سمير يتقدمهم وهم يلاحقونه .. فلمحه
تحت الكوبرى منكمشا .. فما أن سمع أحمد صيحة
أخيه حتى تزحزح قليلا فصار فى المياه الضحلة ثم حزم
أمره .. وتمرمغ فى وحلها ظهرا لبطن .. وبنصف
عين لمح أباه وأمه مقبلين فدس رأسه كلها فى العلى ..
وحبس أنفاسه .. حتى أحس بأيدى حانية وقوية
تنتشله ، وطالع وجه أمه الجزع الملهوف :

— بعد الشر عليك يا حبيبى .. كده ! تعمل فى
روحك كده .. سلامتك يا نضرى .. الله يقطع الجيران
وجيران الجيران .. كده يا صالح ؟! كده ..

وكان الأب واقفا على قيد خطوات .. لم يقترب
.. وقد انكمشت سلوى فى زاوية .. يصطنع الصرامة
والجد لا يزال .. وان كان قد انزاح عن صدره هو
الآخر جزع عظيم ، فابتلع تأنيب زوجته ولم ينبس ..
وما أن أحس بنجاة ولده حتى قال وهو يصطنع الثورة ..
لا يزال .. لكنها ثورة تضحضح عنفها !

— أنت يا واه كتبت جواب للبت دي ؟

— أبدا يا بابا .. دي هيه اللي كتبتة ..

فنظر الى ملابس الولد المبتلة المملطخة وأشاح بوجهه
وهو يهمهم :

— كلام فارغ .. ولعب عيال ..

قليل من الجنون

الأستاذ مسمود المحامى الشاب لا يدخل الكباريه
الا ثملا آخر الليل .. وقد همد الضجيج وخفت
الأضواء ..

وهو يشرب قبل حضوره لأنه يعرف أن الخمر ككل
شئ فى الكباريه غير حقيقيه ، ومع ذلك فما أغلى
ثمناها ! ..

وهو لا يحب الصخب والضوء الغامر ، ويخشاهما
.. فبعد انتهاء البرنامج تتهاافت الأصوات ويخفت
الضوء ، وعندئذ يحلو له أن يمكث ساعة هناك يستسلم
لخواطره ..

ورغم انه ليس من الأثرياء .. فهو زبون مرموق
لأنه دمث الخلق مجامل .. ولأنه يقدم لكل من يقصده
من عمال وبنات الكباريه مساعداته القانونية بلا
مقابل ..

للأستاذ مسعود دالة على الجميع ، بما فيهم صاحبة
الكباريه .. فهو ما ان يدلف الى الصالة الرحبة آخر
الليل حتى يبادره الجميع بالتحية فيردها مهذبا منشرح
الصدر .. واذا ما شرب كأسه وملأ ناظره بالاضواء
الخافتة الساحرة التي يسبح في تيارها الرقيق دخان
السجائر .. تقصده احدى البنات - غالبا تقصده بنت
غير مشغولة مع الزبائن .. لتسليته *

وغالبا ما يكون الاستاذ مسعود - رغم وحدته وثقل
رأسه - رائق النفس منطلق الروح متهيا لاجترار
أحلامه المثقفة من جديد .. من جديد *

فى تلك الليلة قصده نوال فور وصوله - اسمها
الحقيقى .. ولكن لا يهم - وبادرت به اهتمام شديد :
- أستاذ مسعود .. أنا عندى مشكلة من الست
أرجوك ..

- من عينى يا مدام ..

– مش ح أقدر أشرح لك دلوقت عشان يمكن
أقوم ..

– تحت أمرك .. فوتى على فى المكتب بكره .

– أصلى أنا كنت برقص مع المجموعة ، وبعدين ..

– آه .. الرقص فن جميل ..

– شفتنى يا أستاذ ؟ ..

– طبعا شفتك .. يا سلام !

– وعجبتك ؟ ..

– انا من عشاق فنك ..

وجرع كأسه وهو يرميها بنظرة صافية صادقة ،

تلقفتها بروح ممتنة جدا ، ثم احتقر وجهها بالغضب

.. وأطرقت تقول وهى منفعة ! ..

– قال مش عاجبها شغلى ..

– واش فهمها هى ؟ ..

فأشرق وجهها فجأة .. كما أربد فجأة . وقالت

بضوت فيه رنة دلالة ورنه مداعبة :

– مش تفهمها يا أستاذ مسعود .

– طبعا أقدر أفهمها .. معجبتهاش ازاي ؟ انت

يا مدام مش بترقصى ، انت بتطيرى زى الفراشة

فى بستان زهور « وأشار للجرسون ليملا له كأسه »
 طائر بدون جناحين - قدمك يتلمس الأرض لمس ، زى
 كف العاشق على كف معشوقته .. كلها احساس ..
 رشيقة .. خفيفة .. فيها نبض الفن .. ياسلام !
 عايزك كمان تخسى شوية يا مدام .. الراقصة لازم
 تكون نحيلة شفافة زى الطيف الرقيق .. كمان محبش
 أشوفك بترقصى فى ضوء ساطع .. غامر .. لا ..
 فى الضوء الخافت .. الأزرق أو الاخضر .. الاحمر
 لا .. تبان رقة مشاعرك .

كانت نوال طوال هذا الشتاء كطفل أسلم جنبه لمن
 يدغدغه .. تكتم ضحكات النشوة بجهد جهيد وفى نفس
 الوقت تتعلق وهى غير مصدقة بما يمكن أن يجعلها
 تصدق .. فتقول بنبرة اعتراض تلينها رنة اشفاق من
 اعتراضها :

— ياه ! دانت زودتها قوى .. مش معقول ! .

فاعتدل الأستاذ مسعود فى جلسته .. ومع كل ما
 فى عينيه من ارهاق .. نظرتة صافيه جدا .. ورشف
 من كأسه ، فامتلات عيناه بتهاويم الدخان المتصاعد الى
 السقف كفراشات بيضاء كثيرة تحوم فى كهف من كهوف

الأساطير تضيئه شموع خافتة ، وقال بنبرة احتجاج
مهذب :

— طبعاً تقولى مش معقول .. لأنك مبتشوفيش
نفسك الا فى عيون زباين من المخمورين والصعاليك ..
غوغاء بتصرخ حواليكى جعانة لحم مبتشوفشى غير جسدك
.. أما الى أنا بقولك عليه ده فحاجة ميشوفهاش غير
واحد مثقف . (وجرع بقية كأسه وأشار للجرسون
ليملأه من جديد) الفن يا مدام حاجة سامية .. حاجة
خالصة من شهوات الجسد .

حملقت نوال فيه وقد احتشدت نفسها بكل الحذر
الغريزى الذى صقلته ودربته المحن ، ومع ذلك بقيت
نفسها عاجزة عن كل حسم ، تتخبط فى حيرة حقيقية ..
بقلبها شىء ضعيف يريد أن يصدق . وشىء قوى يعز
عليه أن يسخر منها صديق محترم كالأستاذ مسعود ..
قالت بنبرة متكسرة :

— انت بتضحك على ؟

فنظر اليها نظرة صارمة — بقدر ما تسمح ارادته
المهتزة من السكر — ثم أشاح بوجهه للسقف .. حيث
تتداخل فى كتل الظلام الفاحم أطراف الضوء الضعيف
الصاعد من مصابيح الحيطان ، وخيل اليه فى لحظة

خاطفة انه يريد أن يضرب بخياله كما يضرب النسر
بجناحيه فى قمم الجبال .. بقوة وعزم ، ليبلغ أرفع
الذرى ! وفى نفس الوقت كان ركن من وعيه المثقف
يتلمس بمرارة الهوة السحيقة بين فننا وبين ما يعرف
عن الفن وما يرجوه له ..

قال بنبرة سأم ..

— الباليه .. تعرفى الباليه ؟

فخافت من غضبه ، وقالت تسترضيه بغنة ناعمة :

— مش اللى هو الرقص ؟

وقع صوتها على سمعه لينا .. وقدم له الجرسون
كأسه الثالث .. فرشف منه وطابت نفسه ، وأحس كأن
برأسه طفلا يتأرجح ، فأرخى جفنيه قليلا وعاد يقول :

— أيام الرقص الشرقى راحت ، أيام الباشوات
والعمد .. أما دلوقت الحضارة بتفجر النور فى كل
مكان .. دلوقت أوان الرقص العاطفى والتعبيرى ..
الخطوة المعبرة الرشيقة والمعنى العميق المثير .. رقص
يتعلموه الشباب فى مدارس زى الجامعة .. يرقصوا
قصص عميقة ومؤثرة .. نافورة باختشى سراى ..

روميو وجولييت .. بحيرة البجع . الخطوة لها معنى .
الاشارة بالذراع وبالكف وبالصواب .. العينين ..
الوش .. تعبير .. تعبير .

وتذكرت فجأة تلك الصورة الجميلة التي تأملتها
فى المجلة .. الباليه ! فهفت نفسها وهى تسأل :
— وده له مدارس فى مصر ؟
— طبعا .. انت واحدة زيك ..

وتوقف لأن الجرسون انحنى على أذنها وأشار
بأصبعه اشارة غير ظاهرة ناحية أحد الزبائن ، فتلفتت
هناك .. الى الوجه السمين الثقيل وتألبت عليها مواجع
كثيرة ، فى تلك الساعة المليئة بالقلق ، وقالت للجرسون
بحنق مكتوم :

— قول له مش فاضية !

ثم بصوت مهموم للاستاذ مسعود :

— أنا زهقت خلاص ، أنا تعبانة خالص .

— آه .. وأنا تعبان خالص ..

وأسبل جفنيه المرهقين تماما .. وعاد يقول :

— لكن ما علينا من التعب . زى ما بيقلولوا :

لا يهمنى أن تكون أقدامى فى الوحل ، مادامت عينى فى

السماء ، الحياة ثقيلة • لو رحت المحكمة • شوفى
 المحكمة • أنا كل يوم فى المحكمة أبص حواليه يتهاىلى
 العالم كله متخاصم •• خصوم •• خصوم ••
 منازعات •• منازعات •• منازعات •• أقول لنفسى :
 العالم جرى له ايه ؟ •• ميجيش يوم المحكمة تقفل
 وتقول : النهارده مفيش حد مخاصم حد ؟ يوم واحد
 بس •• يوم واحد ! •• ومع ذلك الدنيا كلها بتتطلع
 لليوم ده •• والأمل كله معقود على الفن •• الفن هو
 الكفاءة البشرية الوحيدة التى تستطيع أن تحل المحبة
 والتفاهم محل الخصام والشحناء •• الفن •• الأدب
 •• الموسيقى •• الرقص •• السينما •• المسرح •
 الفن العميق المؤثر المفكر ، يا سلام ! وانت يا فنانة ••
 بصى لبكره مش النهارده •• هز البطن ما ينفعش ، بصى
 لأنك ترقصى ليلى فى باليه قيس وليلى •• ترقصى
 شهر زاد فى باليه ألف ليلة •• نعيمة فى باليه حسن
 ونعيمة •• تبهجى القلوب وتزيحى هم الصدور ••
 •• تعلمى بفنك ورقة مشاعرك الاجلاف والأنانيين ••
 الجمال اللى فى حياة الصفاء والود •• الباليه هو
 طريقك ، اتعلمى الباليه تخلقى نفسك من جديد
 فنانة •• فنانة ! ••



استقبل الأستاذ مسعود نوال في مكتبه بعد ظهر
اليوم التالي .. جلست في « الفوتبي » تغمرها الشمس
وشربت القهوة وعرضت عليه أولا مشكلتها مع صاحبة
الكباريه فتطوع بالوساطة .. ولكن شيئا آخر أهم من
ذلك كان يشغلها بشدة منذ أمس ، وأن شعرت بالخجل
من مفاتحته فيه .. وبعد أن غالبت نفسها وتشجعت
بكرم استقباله وأنسه ولباقته قالت :

— أنا كنت بقول لو تعرف حد في مدرسة الباليه ؟

— باليه ؟! باليه ؟!

— عشان لو كانوا يعنى .. يرضوا ياخدوني ..

— انت عايزه تتعلمي الباليه ؟!

امتعضت للجهة الاستنكار والدهشة فقضمت شفرتها
وكتمت غيظها :

— هي يعنى مصاريقها ..

— مش مسألة مصاريق .. انما دول طبعا
مبياخدوش غير بنات صغيرين ، سن ثمانية ، عشرة ،

اتناشر .. عضمهم طرى .. عشان بيتدربوا كثير ..
يمكن عشر سنين تدريب .

– يعنى الى زىي ..

، ايه الى يخليك تفكرى فى التخريفة دى ؟!

– اصل كان فيه واحد يعنى قالى انى

وضحكت وقد سقطت عنها كل مشغولية واستراحت
من ذلك الحلم الخرافى الذى أرهاقها طول الليل .

– الله يجازى شيطانك يا شيخة ! الى قالك ده
يا اما كان سكران او مجنون !

– لا هو كان سكران بس ..

ونظرت اليه بعينيها الواسعتين ، نظرة صريحة
معاتبه ..

– اوعى أكون أنا ..

فاستغرقت فى الضحك ، وقالت ورنين ضحكتها لم
يزل يملأ المكتب :

– أهو عطية بيه امبارح طلبنى وكان حيفتح لى قزازة
شمبانيا وانت بتدينى درس الباليه قلت للجرس..ون

قوله له مش فاضية ٠٠ راح منى جنيه ونص واترقدت
من مدرسة البالية ٠٠ كويس كده ٠٠

فضحكا معا ٠٠ وهو يقول :

— جنون ! انت مجنونة وأنا مجنون! حنعمل ايه؟!
قليل من الجنون يصلح الروح .

★★★

السما

الذى رأى عبد التواب وهو يتنقل فى السوق ،
منكمشا متحوطا ، يخطو باحتراس ويساوم وعلى وجهه
سيماء المغلوب التعس . .

لا يراه وهو خارج منتفخ نشط يسوق حماره
المجديد بألفاظ خشنة أمرة وعصا حانية ولكنها حازمة
ويتطلع حوالية بكبرياء الغالب الظافر . .
ولكن على من ؟! . .

التقطه اخوان من أولاد نعمان الأشقياء . .
اختاراه من بين عشرات الداهيين والراجعين ،
فتسكع أحدهما على ناحية ، وتقدم منه الآخر وخاطبه
بجد :

— هيه ، اشتريته بكام ده ؟

فتطلع اليه عبد التواب بعينين مشغوفتين •

— يسوا كام ؟

فتقدم النعماني من الحمار ، وأخذ يجسه ويختبر
أعضائه بيد مدربة سريعة ، وقلب عبد التواب يدق بلهفة
في انتظار أن يؤكد له عابر السبيل انه كان في الصفقة
غالبا غير مغلوب •

قال النعماني

— ده كويس ، رجنه شادة ، هيه •• بكام ؟ سنانه
سليمة وعال •• وديله •• لا لا عال •• مبروك عليك
•• وضهره شادد •• بكام ؟

انفرجت أسارير عبد التواب وتساءل ولهفته
متزايدة :

— يسوى كام يعنى ؟ تجدره بكام كده ؟

— يسوا له اتناشر جنيه ••

فقطب عبد التواب محنقا ، ورماه بنظرة جانبية
تقطر ازدراء :

— اتناشر ايه يا جدع ، طب ده أقلها حمار فى

السوج يسوى تمتاشر دلوجت ، هي كيلة الذرة بكام ،
ما تتكلم كويس ..

– اربعتاشر ؟ ..

فانفرجت آساريره على الفور وغلبته اللهفة من
جديد :

– ايه ! يسوى اربعتاشر صحيح ؟

– أهو يسوى ، أما أشوف كده ، هيه ، لا لا كويس ،
اوريني كده .. آه ، يسوى اربعتاشر تمام ..

– آنى بجول كده برضه ، خدته بتلاتاشر ..

وتهللت آساريره ، ورقت نظرة عينيه ..
والنعمانى يقول :

– عال ، مبارك ، كسبت فيه جنيه ، لاجدع ..

– مش كده ، أنا جلت برضه يسوى اربعتاشر
تمام ، سلامو عليكمو بجى ..

وهم بالزكوب ، الا أن النعمانى أمسك به ، وأنبه
بعنف :

– سلامو عليكمو ازاي ؟ يا راجل اختشى عيب
عليك ..

فواجهه عبد الواب وقد أخذته الدهشة كل ماخذ :
— ايه ؟! ..

— هات امال ، أنى بسرچ منك ؟! ادينى حجى .
— حجك ايه يا ضلالى ؟! ..

— السمسرة ، مش انى شفت لك الحمار ،
والاجصدك تاكل حجى يعنى ..
فتحفز عبد التوات بكل ما يستطيع من المدافعة ،
وهتف :

— سمسرة ايه يا جدع ؟! انت مجنون ؟!
وصفق الآخر كفا بكف ، وتطلع حواليه كالمستجير
بالمارة وهو يقول :

— أما دى عجيبة صحيح ، حاتاكل حجى يعنى ؟
والله ما أسيبك ، حجى يا ناس ..

ثم أمسك بخناقه ، فسرعان ما أدركه أخوه فى
اللحظة المناسبة ليهيب بهما :

— يا رجاله وحدوا الله ، ايه الحكاية بس !
وحدوا الله امال .. من ربع ساعة بس وجع جتيل فى

الحقة دى .. يادى النهار الى زى الطين يا ولاد ، ايه
الحكاية بس ؟

فاستغاث به « السمسار » على الفور :

— تعالى أشهد ، بجى بدمتك الراجل الضلالى ده
أسمره فى الحمار ، وبعد ما يشتريه عايز ياكل
حجى ؟

— يا ابن الناس انت سمسرت والا بيعت والا
اشتريت ، أما دى عجائب والله !

— انى مش شفت لك الحمار وتمنته لك ..

— أى صحيح لكن ..

فقاطعه الثالث :

— تبجى بجى تحج له السمسرة • هلا هلا ع الجد •

— انت حتحكم جبل ما أقول لك الى حصل ؟

— يا راجل اتق الله ، ده حصل هنا جتيل من ساعة

بس ، هى سايبه ! والا سايبه يعنى ..

— الله الله الله .. ده منسر ده ، ده الاستعمار

ياخواتى ! بجى يا هوه ..

وتدافعت الكلمات فى فمه حتى ضاق بها فانقلب
تمتمة مختلطة •

وكانت الناس قد تجمعت تتساءل عن الموضوع
فانطلق الثلاثة فى نفس الوقت يتكلمون •
كان عبد التواب يقول :

— بجى يا خواتى •• راجل من الطريج يخش على
يجول لى شارى الحمار بكام •• أجول له •• النخ •
بينما أخذ « السمسار » يقول :

— انى رح أشهد عليك الخلع ، بجى أشوف له
الحمار ، وأجول له ده يسوى كام وتشتريه بكام ورجليه
ايه وأسنانه ايه •• النخ ••
بينما أخذ « الشاهد » يقول :

— أنى شاهد يا ناس ، جعد ولا ساعة يجس رجلية،
ويعد سنانه ويشوف ديله •• النخ ••

وغالبا ما يفهم عابر السبيل القضية فهما سطوحيا،
انه يتطوع لمجرد فض النزاع ، لا لضبط الواقعة
والتحقيق فى الموضوع وسماع الطرفين والشهود طول
النهار ثم اصدار حكم عادل فاهم • ولذا قال أحد
المتجهرين بلهجة أمرة :

.. اديله بريزة ياللا خليه يمشى ..

— لا لا لا . والله ما احط ايدى فيها . بريزة ؟
ده شارى حمار بتلاتاشر جنيه . آجلها من خمسين
جرش ، احكم بالعدل يا راجل . ايهيه ! ده حجي
يا ناس ..

واصل عبد التواب طريقه الى القرية وهو فى غاية
النكد ، بسبب نزوله عند رغبة الناس ، ودفعه خمسة
قروش « للسمسار » المزعوم ..

الا انه لما دخل القرية بدل وجهها بوجه ، وأهاب
بكل ما فى روحه من حيوية وبشاشة ليستقبل أفواج
المقبلين نحوه يتفرجون على الحمار ، وليقنعهم ويزيدهم
اقتناعا بأنه غالب فى الصفقة لا مغلوب ، فيعيد لكل
منهم على حدة ..

— السمسار تمنه لى باربعتاشر لكن أنا خدته
بتلاتاشر بس .. وكمان غلبت السمسار معطيتوش غير
حقة بخمسة !

وتتراقص عيناه بالجذل وهو يرقب وقع كلامه ،
بينما كل منهم بدوره يجس رجليه ، ويرى ديله ،

ويختبر ظهره ، وينظر داخل فمه ، ويربت عليه من حين
لآخر ، ثم يقول :

– لا • كويس • عال • يسوى أجلها كده برضه •
مبارك عليك • حتة بخمسة يبجي غلبت السمسمار
صحيح •

هارب

الدنيا حر • الدكتور محمود متمد على الرمل قد
أحكمت على جسده شمسية البلاج ظلا كافيا ، ولكنه
ما يزال يتقلب على ظهره ، وعلى جنبه ، وعلى صدره ،
والجريدة تخرخر في يديه ، وهو مقبل في اهتمام
بالغ على القصة ، يريد أن يفرغ من قراءتها قبل أن
ينزل البحر •

وحينئذ أقبل أخوه أحمد ، طفل في السادسة يلوح
بخطاب ويصيح • • يشق زحاما رخوا من الناس وهو
بادى الانتباه والاهتمام الى أن يصل الخطاب الى أخيه •

وكانت القصة قد تمت ، فاختطف الدكتور محمود

حكايات - ٢٨٩

الخطاب وقلبه . ثم ابتسم وفتح المظروف ونظر في توقيع ممرض الوحدة الصبغية الريفية بالكفر وقال :

— الله يلعن شيطانك يا سيد !

ورمى الخطاب جانبا لم يقرأه وقفز الى البحر .
وهو يجر أخاه أحمد من ذراعه ، وأحمد يصيح :

— الجواب حاطير • الجواب حاطير •

وطأر الجواب فعلا . وأنكهما بعد دقيقة كانا قد
نسياه تقريبا وضاعت كلماته كما تخبو الصوارين في
الهواء •

« حضرة المحترم سيدى الدكتور :

بعد السلام وفيه ناس يسألونى عن حضرتك وقتلتهم
بأنه يحضر يوم الجمعة القادم • وازاى صحتك وازاى
صحة سيدى الكبير وسلامى على الست الوالدة •

سيدى العزيز •

باقى أنا كنت عيان خالص كنت هاموت وبعدين
ربنا نظر تحتته على العبد الفقير وبعدين انه لقانى
مقطوع من الأهل وبعدين سابنى لغاية مايكون لى أحد
يريدنى قبل ما أموت • وأنا أعرف أنه هيكون لى مكان

عند الله أكثر من الذى ربوه أهله • وانى هاتمتع بكل
النزاهة التى أتمناها • من أجل انى من عمل فى عمل
سيئ لم اشتكيه لأحد انما اشتكيه لربنا وأقوله هو
السبب الذى منعى من نزاهات الدنيا • فأنا لا أعيش
الا تحت سيطرته هو وحكمته العليا ومن صبر نال كل
ما يريد •

أعرفك يا سيدى الدكتور بأن الولد عبد الله جاء
تانى يوم الى العيادة وشرب معايا شاي وقال عندى مغص
ونام على الأرض وبقي يرغب برجليه وأنا أعطيته
حقنة فى العرق فى ذراعه الشمال حسب التعليمات
وهو صرخ صرخة تجيب البندر وقال :

— سمنى الواد التمرجى سمنى •

وأعرفك يا سيدى الدكتور أصل الحكاية ان الولد
عبد الله غيران منى وبياكل فى بعضه ليل مع نهار
عشان بيعب البت حسنية بنت أبا عبد الرازق وكان
حصل كلام وأبا عبد الرازق قال :

— ميكونش الا الولد العريان ده الى زى الطين
المقشف يناسب الرجاله •

وعبد الله زعل منى أنا بقى علشان فكره الاسود

انى أنا السبب اكمن ابا عبد الرازق يحبني ويودني
 فقام دور اشاعات فى البلد كلها ويقول : الدكتور
 مشغل سيد ببطنه وبيغسل له ويقعد على طشط الغسيل
 زى المرأة وبعدين رحت لمحمد أفندى الباشكاتب أعرفه
 الكلام ده وبعدين محمد أفندى يقول لى طبعاً زى المرأة
 وأنا أعرف لك طريق عمل عال عند جماعتنا علشان
 الدكتور ده لم ينفعك فى شىء • أنظر علشان أنت طلبت
 من دكتورك حكاية زواجك وانك عرفتة ان الطلب ده
 لم يتكلف غير ٧ جنيه ورفض عنك طلبك وانت بتعز
 وأمين وشايف شغلك تمرجى وخدام ومع كده
 رفضك ويقول لصحابه ولعمدة البلد أنا لم أريد سيد
 تانى يشتغل عندى أبدا • قتلته هو قال كده علشان فيه
 حكاية سر يعرفها الدكتور قال لى هو رفض الزواج
 بتاعك على ٧ جنيه •

وأعرفك يا سيدى الدكتور انه بعدها على طول
 الولد عبد الله قام وجه عندى وهو حالف يعمل فيه
 مصيبة علشان يوديني السجن علشان ياخذ حسنية •
 على العموم أنا بختى كده من يوم ما اتولدت وهو بختى
 غاطس فى البحر كل ما أقصد أطلعه من البحر يقول
 لى اسكت أحسن ما أغطس كلى • وبعد ، صبرت ولكن
 الصبر انتهى لأنى لم أقدر أطيقه بعد كده •

سيدى الدكتور أرجو وكلى رجاء أن تسامحنى لأن
 الولد عبد الله الآن جرى وراح للعمدة يقلب المركز
 لاجل يحطنى فى الحديد وأنا ما عادلى مستنية فى البلد
 دى ورايح بلاد أبويا فى ريح أسوان واللى يجرى هو
 اللى يكون • واعر فك انه لم يوجد معى ملیم فى جیبى
 الآن لأن المصروف الذى حضرتك قلت لى ان عبدالحكيم
 افندى وسيدافندى هيعطهولك لم يعطونى غير صاغ وعلى
 كده أنا بقى لى ٣ أيام أفطر نوم وأتمسى نوم وأتغذى
 بالنوم فسامحنى يا سيدى الدكتور أن أشيل معى زوادة
 أكل حبة السمن اللى فاضلة والزيت والشاى والسكر •
 كما سامحنى يا سيدى الدكتور انى أريد فلوس لاجل
السفر الى بلدنا فأخذت من الدولاب الكبير بدلتين وعدد
 ٣ قميص وفانلة واحدة كما أخذت عدد ١ سماعة وعدد
 ١ علبة مشارط وأخذت ٩ اقراص سلفا و ٣ اقراص
 اسبرين لاجل ما يحصل لى مرض ولا جروح • وأودعك
 ياسيدى الدكتور لاجل أن تسامحنى فى الحاجات اللى زى
 دى انت راجل طيب وكريم وربنا فاتح عليك وماتهمك
 كثير • بس انا مائش حد غيرك فى الدنيا أقوله اذا
 شفت حسنية بنت أبا عبد الرزاق تقول لها محمد
 التمرجى بيسلم بقلبه من جوه وهو فى غاية الاشتياق
 ومع السلامة •

وفى الختام اسلم عليك ياسيدى الدكتور وأرجو
كل الرجاء انك لم تبلغ عنى المركز زى الولد عبد الله
وتعود بالسلامة ان شاء الله وتدعى لسيد فى غربته أن
يعود ويرمى الله على قلبه الأمان ويشوف من تانى وش
حسنية بنت أبا عبد الرزاق يارب والسلام ختام *

التمرجى

سيد الافرمى

(طبق الاصل)

القيار

الخيانة مرة . ولكن ما أغرب ما تعلية النفس .
كانت عيناه ثقيبتين كحجرين ، وبراسه طنين يكاد
ينسف أبراج عقله . ساعة مضت ، وبنفسه عاصف
حائر لم يهدأ . أشبعها ضربا وإيجاعا ، ولكنه هو الذى
كان يئن ويتوجع . ولم يكف عن سؤالها . . . مائة مرة .
الف مرة . . . مرة بلسان عنيف ، ومرة بلسان شقى ،
ومرة بلسان مستغيث :

— الواد ده كان عندك يابت ؟

وهى لا ترد .

ومع ذلك . . . نعم ، نعم - كان عندها .

ألم يفاجئه بنفسه نازلا من فوق السطوح ، وهو طالع فى غير مواعده المألوف فى عز النهار ؟ من يسكن فى السطوح غيره وزوجته ؟ ماذا يمكن أن يقصده شاب عايق - لعله تلميذ من أشقياء المدارس - فوق السطوح غير زوجته ؟

لماذا . . . لم أقتله يارب ؟ لم أتعرض له حتى !

عندما التقت عيونهما حلق فيه عطية كمن يرى شبحا . وشمله خوف أكيد . برهة قصيرة أتاحت للخائن أن يفلت تحت ستار المفاجأة التى أخذت روح عطية من كل جانب ، والزمته موقفه كالمشلول . . . برهة ثم أفاق بالتدريج ، فأول ما تزاخم فى رأسه كانت النكات والغمزات البذيئة التى يتبادلها مع الصحاب فى قعدة القهوة ، ما يجوز وما لا يجوز أن يقال . . . والقهقهات . وهو الآن .

استبد به شعور بالغثيان ، وأشفق على نفسه حتى غص حلقه . أحس كم هو منحط وحقير ، فعصف به العاصف الذى اقتحم البيت معه ، وقلبه على رأسها وهو لا يكف عن السؤال :

— الواد ده كان عندك يابيت ؟

ولا حياة لمن تنادى •

تسمر فجأة حيث هو • • وتنبه للطرقات المتتابة
على بابه • ثم امتلأت أذناه بصوت نسائي :

— ايه ؟ كفى الله الشر •

فأخذته رعدة. ولكنه تمالك نفسه بسرعة، وضغط
عضلات عنقه حتى يخفى ما بصوته من اضطراب :

— أبدا • ده أنا •

— فيه حاجة لا سمح الله ؟

— لا لا • ده احنا مسافرين البلد •

— بالسلامة •

من تكون ؟ جارة ؟ جيرانه أغنياء • ومنذ سكن
غرفة السطح فى هذه العمارة وهم لا يخفون تأففهم
منه ، يقولون : « البقال » •

مع ان أى موظف فيهم لا يملك أن ينفق على بيته
ما ينفقه هو على مزاجه ، الا أنهم أوغاد •

— لا بأس • البلد البلد • كلمة رماها بغير قصد،
ولكنها الحل الأمثل • سيرمى القذارة لأصحابها وينفض

يديه • رمى قميصه وبنطلونه بلهوجة ، وأدخل رأسه في الجلابية الفلاحى ، فما إن انسدت على جسده حتى أحس بقشعريرة تشمله ، وإن للجلابية قوة تمنع في تحقيره •

تذكر يوم جاء القاهرة من البلد ، ومعه القرشين • وافتتح دكان البقالة فى أطراف شبرا وسكن سطح العمارة ، وكسب • • كسب ولكنه لم يفكر أبدا فى أن يتزحزح عن مكانه الصغير المنزوى لأنه عرف حلاوة الربح فى البيع بالقرش والقرشين بلا ميزان • وخلع جلابيته ولبس القميص والبنطلون ، وطمس الدوشم على صدغيه ، وقعد على القهوة آخر الليل مع الصحاب يتندر على خلق الله •

لم يكن ينفص عيشه طيلة السنين الا أن امرأته لم تنجب له أولادا • ومع ذلك فقد حيره أمرها • فهى منصاعة ممثلة لا تكاد تتكلم ، قليلة التكاليف • • فضلا عن أنها بنت الشيخ عبد العال الرجل الصالح الذى تجله القرية كلها • طلاقها صعب ، والزواج عليها سيبهظه بالمصاريف •

لذلك رضى بهما • • ولكن الهم لم يرض !

اختلس اليها النظر ، فلما رآها مستفرقة في
نشيجها الخافت المتبخر. أحصى نقوده على عجل وأخفاها
جيذا في جيب صديريته .. ثم ركلها ..

— قومي يابت .

فصعدت اليه عينين حمراوين غارقتين بالدموع .
— البسى .. حنسافر .
فشهقت :

— موتنى أحسن ولا تودينيش لأبويا .

— وأبوك حينفعنى لما أغرق فى دمك ؟

فقفزت مذعورة ، وألقت على رأسها الشال ،
وانتظرت مستسلمة .

تقدمها عطية الى السلم ..

آه .. لا أريد .. لا أريد . منذ هجرت البلد ،
لم أكن أعود للزيارة الا ويستقبلنى الناس بكل تجلة
واحترام .. الآن أذهب ملطخا بالعار .

ولكنه مضى .. وهى تتبعه صاغرة ..

تاكد من قفل الدكان ومشى الى محطة الأتوبيس
وهى فى عقبه .

وفى المحطة قعد على الفرزة ينتظر أتوبيسه • وهى واقفة عند الكشك •• ومرت براسه خواطر شتى والشمس تنحدر عن السمى ، ولكن سؤالا واحدا أخذ يلح عليه :

— ماذا لو هربت الآن ؟ لو جرت فى الشارع واختلطت فى الزحام ؟ ••
— ياريت •

هكذا كان يجيب سؤاله •• ثم يشمله شعور بدناءة الموقف كله ، فيعتمر قلبه حزن مقبض •
ماذا أفعل ؟ ماذا أقول ؟

هبط الظلام وهما فى الاتوبيس فلم يزد أعصابه الا تهالكا • وفى زحمة الاتوبيس وزیطة الركاب كانت عينه الحجرية عليها، ولا يكاد يراها • وقلبه — لاسانه — يستنزل عليها اللعنات ، ويود لو تقع عليها مصیبة تخفيها من على وجه الأرض •

لم تكن عادته النزول فى البلد ليلا • لم يزر القرية من قبل الا صباحا • كان حريصا على ذلك • كان اذا دخل البلد ومشى متمهلا فى طرقاتها الضيقة تلقاه من

يتلقاه بالحضن ويربت بيده الخشنة على جلايته الناعمة
ويقول :

— ما شاء الله • ما شاء الله • ربنا يجعلنا من بركات
مصر وأهل مصر •

فيرقص قلبه طربا •

ولكن ها هو يشق الطرقات نفسها ، الا انها معتمة
مقبضة ، فلا يتلقاه غير الزعيق الناشز •

— مين اللى جاي هناك ده ؟

فيقول من حلق جاف :

— ده أنا عطية محمود يا سلطان •

ويمر على الخفير الذى الجمته الدهشة فما أن يخلفه
وراءه حتى يفيق الخفير فيقول :

— عطية ؟ الله ! هو انت عطية ؟ وايه اللى جابك
دلوجت ؟

— أشوف أبا عبد العال •

— ايهيه • حمد الله على السلامة يا شيخ • خضيتنى •

وطرق الباب فبعد فترة جاءه صوت أبيها :

مين ؟

اضطرب البيت كله ، ولكن الشيخ عبد العال أيقظ
النائمين وأخلى القاعة فى الحال وقعد بعد أن أمر
بالعشاء وبالشاي .

– خير يا عطية .

– ولا خير ولا حاجة . انا راجل عندى شرف .
بنتك لغمطت شرفى .

وما أن نطقها حتى تدهورت السدود التى كانت
تضبط انفعاله ، وحشد فى فمه كل ما أسعفته نفسه
من قوة المجنى عليه . وأطلق عنان الثورة والغضب .
وجعل يبصق أرذل الكلام ويلوح بذراعيه . . لم يراع
هيبة الشيخ ، ولا هدأة الليل .

استمع الشيخ عبد العال وهو يربت لحيته البيضاء
السوداء ، استمع لآخر كلمة ولآخر بصقة . استمع وهو
ينتفض ووجهه ثابت مع ذلك .

ثم نظر اليه بصرامة وقال بصوت خطير :

انت واخذ البت ازيها يا عطية ؟ واخذها بنت
بنوت والا لا ؟

فوجيء عطية بالسؤال العجيب ولكنه ما اصطفى
بنظرة صهره حتى قال بارادة مسلوبة :

– وحد جال حاجة فى دى •

– وجى دلوجت تلغمط شرفى زى ما لغمط شرفك

بيدك • خدها وروح لحالك • آوعك تورينى وشك انت
والا هى تانى • سمعت الكلام ؟!

انتفض عطية واقفا ، وصرخ :

– آنى سايبهالك •• اصطفل فيها انت •

– ليه ؟ انت منتشر راجل ؟ اجيب البلد تحكم

ما بينى وما بينك يا عطية ؟ اصحى البلد علشان تشوف
لنا صرفه ما بينى وما بينك ؟ انت ماعنتش فلاح
وعملت بندرى وجاى عايز ترمى علينا بلاك احنا
يا فلاحين • امشى يا ولد ! امشى ! •

ذعر عطية من مجرد تصور ان البلد ستحكم

بينهما ، فانطلق خارجا على وجهه ، وصوت الشيخ
عبد العال يتراعى وراءه :

– بنت ! انت يابنت ! ياللا وراه • يلمن أبوك

لأبوه •• احنا بيتنا طول عمره نضيف ، ييجى ولد رخم
ومتبندر يوسخنا على آخر الزمن • جاييها لى ليه ؟ أما
دى عجايب والله • وجاييها لى ليه ؟

وصرخت الأم وراء البنت التى فرت من وجه أبيها .
وبكى الأطفال ، فاستشاط الشيخ وصرخ فيهم أسكتهم ،
ولكن قلوبهم لم تسكن وعيونهم ظلت تحمق ، وأذانهم
تنصت طيلة الليل . .

شق عطية طريقه المظلم وساق تتعثر فى ساق ،
وكل انتباهه لهذه الراكضة ورائه لا يراها ، ولكن وقع
خطاها يملأ خواء نفسه بضربة جهنمية صاعقة .

اختصر الطريق الى الحقول ، هائما لا يقصد
الا الابتعاد بسرعة عن حيث يمكن أن يلتقى به انسان .
فما أن استتر بعيدان القطن حتى التفت ورائه قرأها
منكمشة تتبعه فى انصياع عجيب . عرته دهشة ورعدة
اذ تصور أنها هى أيضا ، والعالم كله من ورائها
يدفعونه باصرار الى هاوية .

لطمها لكمة أسقطتها تحت قدميه وسألها بلهفة لم
تضمحل أبدا :

— الواد كان عندك يا بنت ؟

فلم تنبس ، ولكنه أشاح بوجهه لا يريد جوابا .
كأنما يخيفه السؤال كما يخيفها ثم ضاق صدره
وانقبض ، فتخبط حيث لا يعرف ولا يرى . . وعندئذ

فقط انهمرت من عينيه الدموع فالتفت الى تابعته
المنصاعة وواجهها ٠٠ وجها لوجه ، مقهورة ومقهور ٠٠
ثم امتلات نفسه بتمرد شيطاني ، فدار على عقبه واتجه
نحو الرياح ، ووقف على حافته واركن على شجرة كافور
شامخة ورماها بنظرة صارمة :

— ارم نفسك يابت ٠

فسقطت على ركبتيها وتطلعت اليه بعينين مبتهلتين
خراوين . أفقدتاه الصواب فأخذ يركلها بكلتي قدميه
ويدفعها بساقيه وهو يبح بصوته حتى لا يسمعه أحد
— ياللا يابت ! ياللا يابت ! ٠

وهي تقاوم بعزيمة واهنة ٠ أحس يديها تقبضان
على ساقيه ، ولم يفته ما فيهما من حنان هيج شجونه ٠
انقلبت على وجهها تحت ضغط قدميه ، وتدحرجت رغما
عنها ٠٠ ثم تشبثت بأعشاب لينه ، وأخذت منها حفنتين
مليئتين الى التيار ٠ نفخ الهواء جلابيتها الفضفاضة
برهة ٠٠ ثم أفرغ الهواء وانداح الماء ، وبعدها سكن ٠

وقف عطية يحملق في التيار ٠٠ وتذكر عندها
كمن تشرق في ذهنه حقيقة صارمة مع ذلك لن ينجو من

الاتهام بقتلها فدهمه دعر واحتشد بكل قواه وانتلق
يجرى نحو الزراعة ويقدح ذهنه ليرتب وسيلة للنجاة ،
ومع ذلك كان عقله يظلم بينما فى نفسه يسرى كالسم
السريع شعور « بالفقد » تتعاضم وطاته ، وبالفراية
ما خطر له حينذاك ، توقف برهة ليملا نفسه بذلك
الشعور . . اذ خطر له أنه أول احساس طيب يغشى
قلبه من أول النهار .

حلاوة روح

أصم الدوى أذنيه :

عشرة ٠٠ عشرون ٠٠ مائة طلق نارى فى سكور
الليل ٠ الكلاب !

كلهم يحققون على ٠٠

لوهلة خاطفة أخذه الدهول ، لكن قفزة الجواد فى
الهواء ، وصهيله المذعور ٠٠ أفاقاه ، فقبض على الزمام
يشده حتى توازنت الكارثة ، وغمز جواده غمزات
متشنجة ، ثم أرخى له العنان ٠٠ فانطلق بأقصى سرعة
كمن ركبه الجنون .

ثم أحس نصلا حادا فى الصدر ، ولكن تبدد الألم

الا من وخزة الساعة المعلقة تحت جلبابه تتأرجح
كالبندول وتخزه كلما مست ضلوعه •

راسه ثابت مع ذلك •• حمدا لله ، وهذا الخدر لم
يوهن حواسه التي يشمر - ويا لفرحته بهذا الشعور -
أنها تنبته جدا ، وأن يقظة حقيقية شملته ، انه
ليستطيع أن يجزم بأن أحدا لا يتبعه •• ان أحدا
لا يترصد الكارثة من أمام ، رغم الدرب المظلم الذي
يفرق في حقول الذرة ، رغم هذا الوقت من الليل الذي
لا تستبين فيه شيئا حتى العين الفاحصة •• فانه ليعرف
بحسه المدرب انه لم يعد خطر في الطريق • لا صوت •
لا شيء الا الحفيف ، وصفير الريح الخافت •

وفجأة •• أحس ان الكارثة صدمت حجرا ، فطار
جسمه العملاق في الهواء ، وارتدى على وجهه في حقل
بور ، ووخزته الأشواك في كل أعضاء جسمه •• فقفز
واقفا ، وتلفت حواليه ، بيثها ••

طرق الباب كمادته ، فما ان فتحت له حتى قالت
بجزع :

- جوزى • جوزى •

- ماله ؟ !! مات ؟ ••

فاتسعت عينها بالذعر ، وأطلت من بين ثدييها
تماما فوهة بندقية •

— كل شيء بشمه !

انه ليكره هذا الوعيد ، ويحقد عليه •

أما الثمن ، فهو يدفعه عن طيب خاطر • لقد دفع
هذه الليلة مع الصحاب في البندر ، لتلك الفازية التي
أحيت ليلتهم • وجهها الملىء المستدير ، وعودها البصر ،
وسننها الضاحك •• ولكن من تكون هي في بنات مصر ،
وخاصة تلك البنت التي ترقص في الكهاريه • عودها
نحيل قليلا • ولكن •• يا لها ! يا لها ! يقولون ان بنات
مصر يسرحن شعورهن عند الحلاق • يا بدع الحلاقين •
وطريقتها وهي تدبث بأصابعها في صدره فتدغدغه ••
وتخزه •

لعنة الله على الساعة • ولكن لا وقت ليرميها في
الحلاء ، ويريح صدره من وخزها •• هرول الى الباب
وطرق بشدة ، فما ان فتحت له غشيه خوف أكيد ، لأنها
لم تهتف بجزع :

— جوزى • جوزى •

ولأنه لم ير فوهة البندقية بين ثدييها ••

وانما لاح له وجه ولده العاق البارد ، فصاح به :
- بكره لما أموت خدوا الفلوس بعثروها في مصر .
- وتفول على نفسك ليه يا بابا ؟ متدينى دلوجت .
وجهه بارد . بارد .

ولكن حمدا لله ان رأسه ثابت مع ذلك . ليس
الا خدر الخمر والسهر الذى ألفه ، وحتى هذا الخدر
لم يكن يوهن صحوة حواسه . الشطارة تشرب
ولا تسكرشى . الرك ع الصنف . الغالى تمنه فيه . كل
شئ بتمنه !

الثلث !

تلفت حواليه فجأة . وضرب بسوطه هنا وهناك .
ثيران هائجة تجرى حول الكارثة . وما هذه العفرة ؟
امتلات عيناه بالتراب وبالدموع . . أكاد أختنق .

تلفت ثلاثة من الفلاحين ساهرين فى العقل نحو
مصدر الصوت . . ثم فى لمح البصر مرقت أمامهم
الكارثة كالسهم المنطلق ، فتراجعوا ساخطين .
- ده الأفندى عبد المجيد . .

– انتو حتدوله آفندی بالعافية • يعنى هو كان
بيجرا والا بيكتب ، والا عشان الأربعة وتلاتين فدان
يعنى ؟ جه مصيبة •

– راجع سكران م البندر زى عوايده •

– جليل الجيمة صحيح •

بأى حق ؟! سأقول للمحكمة • يا حضرة القاضى •
الماء فى البحر • فلماذا ينازعوننى عليه ؟ أنا أخذت
الأول وهم سيأخذون من بعدى •• أنا أملك الماكينة ،
والذير يريد تأجيرها عليه أن يدفع الثمن • نعم • فكل
شئ له ثمن • عندما كان كوز الذرة العشرة بمليم •
كنت اشتغل طول النهار بكوزين !! الثمن يتغير والنساء
تتغير • وحتى القاب لا يثبت أبدا • لم أرى فى حياتى
شيئا ثابتا غير عيني البنت أم عيالى ، ومصباحها اذ
تفتح الباب لى آخر الليل ، وصوتها المحزون دائما .
هذه لا تتغير ، لأنها بلا ثمن ••

فى حين كل شئ له ثمن ! ••

خفق قلبه خفقة مؤلة •

أنا لا أخشى الوعيد ! بين البائع والشارى يفتح
الله . الأرض نزلت . يا اما البيع يا اما الحجز .

— الى عايز يحجز ع الأرض يجينى هنا يا عبدالمجيد
— انى جيت لك أهه .

— انت فين ؟

— جدامك أهه . منتش شايفنى معنى ؟

— بسم الله الرحمن الرحيم . انى سامع صوت
لكن مش شايفك . اللهم اخزيك يا شيطان ! . .

آه ! الوخز من جديد . الساعة وقفت على قلبى !

★★★

عند القنطرة كان اثنان من الفلاحين يتسامران ،
فتلفتا نحو الصوت ، ثم ألقى كل منهما بنفسه من فوق
الجسر قبل أن تدهمهما الكارثة المجنونة ، وصرخا
وراءها :

— ايه ده ! مش تفتح .

— انت غرضك تجتلنا ؟!

★★★

البلد ! أخيرا .. هذا مصباح . لا .. ليس
مصباحا . راكية نار ؟ بل هي الشمس .. لا . بل
القمر . الليلة معتمة جدا ، ودوى الرصاص من بعيد .
هل قامت الحرب ؟

الطريق طويل . ورؤوس بنادق في الذرة ..
ولكنه سيأخذ المحصول رغم كل شيء . المحصول .
أما النقد أو المحصول .

... طيب الى يعرف يزرعها يعرف يجدها
يا عبد المجيد .

— لابد من الدفع . كل شيء بالثمن .
ظل يسبح في التيار .. الشاطئ قريب .. قيد
ذراع . نحن في أوان الفيضان ؟ هذا عرق .. ورذاذ
مطر .



سمعت أم العيال صوت الكارثة ، فقامت بعيونها
الثابتة الهامدة ، ومعها المصباح .. وأسخطها الطرق
الشديد المتلاحق على الباب قبل أن تدركه . ولكن ما ان
فتحت حتى لقيته هادئا على غير عادته ثابتا كتمثال
لا حراك فيه ، فقالت بانزعاج :

— ماتخش •

فوقع على الأرض ولمحت من فورها بقع الدم
الكثيرة تلتطخ ملابسه ، فصرخت من كل آحزان قلبها
المنهوك •• صرخة دوت في القرية وقلبت المركز ،
وجاءت بالنيابة والطبيب الشرعى ، والمعارف والفضوليين
•• وصاروا كلهم يرددون همسة الطبيب لوكيل
النيابة . وهما يدخنان فى المنذرة •

— عجيبة قوى • سمعتاشر رصاصه فى جسمه
ويسرق الكارثة ثمانية كيلو لحد ما يخبط على باب
بيته •

فقال وكيل النيابة :

— حلاوة الروح •

★★★

حلم بالقمر

••• واذا غشى المساء تهمد الحارة ، وتطبق سحب
الظلام الاسود على الفتائل المتناثرة خلف الشبايبك
أطباق الخناق المحزون •

وحين دلفت حميدة الى الحارة ارتعشت ركبتها ،
كما ترتعشان دائما اذا سمعت تصايح المساكر في
هدأة الليل •

كانت تعرف طريقها جيدا ، وتدرك بحساسيتها
مواضع شوالى الزرع أمام القهوة ، ونتؤات الدكاكين
والمطبات والعتبات السوداء الصخرية على أبواب
البيوت •

وتعرف انها ستمر عن يسارها بعد عشر خطوات
بذباله غارقة فى الظلام لا تبدد منه غير صورتها
الملتبة ، وستسمع بين الهمهمة المبهمة والسعال الخافت
الرتيب صوتا صلبا منتهرا :

— اتسمى بقى يا ولية !

وستشيع فى شرايينها برودة الذعر .

وبعد سبع خطوات أخرى سيمس أذنهما نشيج طفل
لعله نائم يحلم فى ركن مجهول بين كومة الحيطان
الراكعة . . نشيج يقبض القلب كمويل الأرملة المعذبة .
خمس خطوات أخرى . وتدلف فى الباب عن
يسارها اذا سلم الله .

هى تعرف طريقها جيدا ، ولكنها خائفة ترتعش
ركبتاها . وهى تقدر من خوفها أن مجرد جمالها الاسمر
السافر ، وشفتيها الداكنتين المثلثتين جريمة تستفز
أهل الحى ، وتكره ان تصدق أن أولاد البلد يمكن أن
تشمل سناحتهم هذا .

— ولاد البلد يحبوا المشى الدغرى . آه او أهلى
شافونى ، ويا مصيبتى لو حد عرف كده والا كده . .

ويداها السرور وهي تردد هذا وتشرق على
وجهها ابتسامة صغيرة آسية •

ولذا ، فهي ما زالت تغذى المخاوف الرهيبة منذ
دخلت الحارة ، وتستعجل الوصول ، حتى تعثرت في
حجر وأحدثت صوتا مكتوما اثار كلبا فزام ، وألقى
الروع في قلبها! فجرت ، وحينئذ انتبهت كلاب الحي
فتصايحت •

••• وفتحت حميدة الباب عن يسارها ثم صفقت
خلفها وجرت على السلم فتعثرت ومدت ذراعيها في
النساء العالكة أمامها تنلمس شيئا تتعلق به • وفي
الزواغ هوت على درجات السلم وذراعاها مفرودتان
كالمصلوبة •

ثم تحس حميدة في أول الأمر وجعاً ولكن الخضة
حلت مفاصلها ومدت ذراعيها وقد استبد بها ذعر
سباغت ، وتحسست بطنها ، وأحست طرقات رقيقا مكتوما
في أحشائها فاطمأن بالها واسترخت وكفها على بطنها ،
وأغمضت عينيها ، واستقبلت في شغف دبيب الأوجاع
التي تمشت في جسدها ، بطيئة ••• في جنبها خبطة ،
وعلى رأسها كدق القادوم ، وكوعها الذي ارتطم
بالدرازين أسرى دبيب النمل في عروق ذراعها •

ولكنها لم تتأوه • بل مسها شغف مبهم كبير • آه
لوتنام هكذا ، الآن فلا كلاب تزعجها ، ولا نشيج .
في هذا الصمت الكبير ، في مवाद الظلمة الشاملة •
وأغمضت عينيها وهي راقدة هناك بلا حراك •
لعلها نامت ، ونباح الكلاب البعيد يدغدغ حواسها
في دعة ، فلقد حلمت •

سيعرف سعيد مقداري • سيصبح رجلا خطيرا
كمأمور البوليس ، كنجم السينما ، وسأعمل عنده
خادمة ، وسيعطف علي عطفا لا حد له لأنني سأحبه من
قلبي • وسيثير هذا غيرة زوجته • ستضربني ولكني
لن أبكي •

ورأت امرأة تخطر في أقراص من النور ، وساقاها
فاتنتان ، وبلوزتها مفكوكة الزرار الأعلى يرتج فيها
ثدياها كرمانتين كبيرتين ، وبين قدميها رمحت عرسة
كبيرة أفزعته فصرخت ، ورجال البوليس يطلقون النار
على العرسة الشرسة ، فتجري المرأة الى الزقاق المظلم ،
مفزعة • فتري العرسة تبحث في سرعة عن شيء
ما أضاعته في صندوق القمامة • يارب انها ليست •
عرسة • انها طفل !

ثم تداخلت في العالم الذي تفتق أمامها ضحكات

رنانة صاخبة ، لكنها ذات رنين عذب • وخفتت ،
وسمعت صوتا حادا ودودا يقول :

— يا عبيطة • ما تسقطى روحك •

وحينئذ انتبهت حميدة • مالهـا تعلم صراحية •
وتحسست بطنها المتكور مرة أخرى ، ودفعت أصابعها
فى خصلات شعرها وقبضت على دوشة دماغها فى كنفها
وتمتمت فى انزعاج :

— عبيطة !؟ حد يقطع فى لحمه بخطرہ ؟

وقامت تتعثر على السلم فى الظلام •

وعادت تحس بالحمل الذى فى أحشائها . وتغمض
عينها نصف اغماضة . وترهف حسها لتتبين حدود
شمالا ويمينا ، وتقدر فى خيالها ان هذا الشئ الذى
يضغط فوق •• هو الرأس ، والشئ الذى يدق فى
الجنب •• هو القدم • انه يملأها ، هذا الحبيب . انه
لحمها ، يرقرق فى مشاعرها وجداصوفيا عميقا عذبا
اليمـا •

والقلق ، وتهاويل تتناوش رأسها بأن هذا الشئ
ينحسها ويوقف سوقها وسيقعدھا عن السعى • تهاويل
تحاول اخمادها فى صرامة •

وأمام الباب وقفت يعلو ويهبط بصدرها انبهار ،
وخلال شق طويل يتسلل سكين من النور يمس فستانها
في حدة • وقامت بنفسها رغبة أن تنزل فتجربى في
الشارع الى بعيد •

ولكنها وقفت تتذكر في الظلام الذى يشقه سكين
النور وداعه لها منذ أسبوع • وداعا فاترا مرتبكا •

احست يومها بشيء يغور فى صدرها ، ويجرف منه
كل نبش بالحياة ، وثرأغا خاويا خربا يتفتح فى قلبها
فيماؤها ، وكأبة شاملة تلفعتها كالغمة •

وأحست حميدة بثورة المنمردة • وحلمت أن تدق
بابه فى عنف ، الآن ، لتصرخ فى وجهه •

— تطردنى من بيتك؟ إهو أنا حرامية والا سراقه؟!
وتبلل قميصه بدموعها •

لا • بل ليته يضحك وتستطيع أن تجعله يبش لها •
وضحكت حميدة ، ضحكت كالمنفجرة وهى تدق
الباب فى عنف وتنتظر ، ضحكت فى وجهه حين فتح
الباب • وقد امتلات عينهاها بسماره وامتلا قلبها
بالسرور ، وفمها بالضحك وهى تقول متقطعة الأنفاس :

، مش وقعت على روحى فى السلم ! كنت طالعة
فى الضلعة اتكعبلت يادى الخيبة عليك يا حميدة ! قال
ما يقع الا الشاطر • كده يا سعيد أقع فى بيتك •

وتكسرت نبرتها وهى تمس ياقة جلبابه فى رقة
وتفرق وجهه بنظرتها الشائنة الشاردة فى تقاطيعه
الصلبة •

ودق قلب سعيد وهو يحس طرف اصبعها على
صدره ، وارتعد •

ولمحت حميدة وهى تخلع حذاءها كتابا مفتوحا على
الترابيزة ، فقالت فى ألفة :

— انت بتذاكر يا سعيد • طيب ذاكر يا حبيبى وأنا
راح أناام لحد ماتخلص •

وقفزت كالهرة على السرير • وركعت على ركبتيهما .
ثم رفعت أطراف فستانها تخلعه • • وحملق سعيد فى
فخديها ، واستدازة ردفها ، وانهمار ثدييها من فستانها ،
وصعدت عيناه الى شعرها وقد هوشه ضيق فتحة
الفستان ، وود لو قام فسواه بكفيه ، وانزلت أصابعه
على عنقها • • فأغمض عينيه وقد احتقن الدم فى
دماغه •

لو سقطت هذا العام فريلك ، سيتناول أباك البلغة
الصفراء لينزل بها على دماغك يقرعه حتى يشجه
وتموت .

وتكور جسد حميدة على السرير . وجذبت البطانية
فوق رأسها وفي الحلقة شدت ركبتها الى صدرها .
وضغطت بذراعيها على صدرها ، أخذت تلحس بطن
كفها في نشوة .

ورفع سعيد وجهه عن كتاب القانون التجارى ، وحدث
في هذه الكومة الصغيرة المتفعة بالبطانية على سريريه
وهو يردد :

— العقد شريعة المتعاقدين . . فهو القانون الذى
يضبط الحركة التجارية . .

وتذكر انه حام منذ ايام انه نائم فى حقل أبيه
يتقيل تحت الشجرة على التربة ، وأنه استيقظ مذعورا
وأبوه يزغده بفوهة البندقية ويقول من بين أسنانه :

— اختك جلبت علينا العار ، حتما حنشر من
دمها .

ودفع اليه بسكين فقام مبهور الأنفاس فائر الدم .
زائغ البصر ، يتعثر ، ومشى خلف أبيه . . مشى طويلا ،
طويلا . .

وتخطيا الكوبرى وحدود غيط الحاج علوى .. وعبرا
 الزراعية ، وشجرة التوت العجوز ، وأفزعا ذكرا أبو قردان
 .. والدوشة تتصاعد فى دماغه .. ومشيا ، وأحدهما
 لا ينبس بكلمة .. مشيا ، وأبوه قابض على بندقيته ،
 وهو قابض على سكينه ، وأقدامهما تطرقان الأرض الطرية
 كالمكاديم . وقلبه يدق كالطبل فى صدره .. يدق ..
 ساعة .. ساعتين .. مشيا دهرًا طويلا ، وانفعاله
 يتصاعد . ويفور . حتى عبي وسقط سقطة انتفض لها
 جسده على السرير ، وصحا مناعورا مقطوع النفس ..
 وحين ثاب الى وعيه صار يتمتم بقية الليل .

— اللهم اجعله خير .

ودس رأسه تحت الوسادة وضغط بها على جمجمته .
 وانتبه سعيد وهو يحملق فى الجسد المتكور فى
 البطانية ، ووجهه مخطوف ، وقد تفجر فى كيانه رعب
 تتقبض له شرايينه .

« عين الله لا تغفل » ، وأبوه سيعرف أيضا ويله ان
 عرف انه قرب امرأة . سيحمله وزر كل مصيبة تقع على
 رأسه ، وما أكثر مصائب الفلاحين . لن ينجح . وإذا

رسب ، فسيخمن أبوه السبب • يجب أن يذاكر • نعم
•• يجب أن يذاكر • وعاد يردد :

– شرط انعقاد العقد الايجاب والقبول ، وعلى
هذا فالمقد الشفوى تتوافر فيه أركان العقد القانوني
طالما شهد الشهود على الايجاب والقبول ••

ونظر الى الكومة المتداخلة في البطانية فوق
سريره بانفعال •• يجب أن يركز ذهنه • كيف ؟ هو
لا يريد لها • ستفوض عليه العالم • اذا حدث شيء في
البلدة • وهبط أبوه على بين غرة وجدها عنده • اذا
جاءه عمه من امبابه •• اذا •• انه لا يستطيع أن
يلم شتات خواطره ، وسيرسب • قام ورجلاه أصلب من
ارادته ، وكشف عنها البطانية في عنف ، وحلقه جاف
•• فتبسمت :

– اخص عليك خلينى أنام •

– مش حتتعشى ؟

الأحسن أن تتعشى قبل أن يطردها ، فذلك أكرم
له • وقامت تتشاءب وتفرّد ذراعيها هنا وهناك ، وقد
داخلتها بهجة صغيرة ، وأشرق وجهها •
– أنا حاقوم أعشيك •

وفتح درج الترابيزة ، وأخرج منه رغيفين من
العيش الريفي وجبنة حادقة وزيتون .

– الله . العيش بتاع بلدنا .

وكسرت قطعة منه وأخذت تقرمشها في تلذذ .
وقالت بفمها المليء :

– اقعد يا حبيبي وأنا حالقملك .

وجلس جوارها . فدست في فمه لقمة ، فعول فمه
بعيدا ، فجلجلت ضحكتها وهي تصيح .

– الله . انت مش عايز ليه . انت كبرت ياروحى؟

وارتجت أعصابه في عنف حين مالت عليه ، والتصق
ذراعه بصدرها ، فصرخ كمن ينازع .

– أيوه كبرت .

فخفضت يدها ، وقد مسح الجد وجهها وارتعشت
شفتاها ، وصلبت ارادته ، وأحس حين انكسرت عيناها
بقوة تجتاح نفسه في هدوم ، ولكن في حزم فقال :

– أنا الليلة يا حميدة عايز أكلملك في حكاية
مهمة .



فقالت بصوتها المنكسر :

— طب بعد ما نشرب الشاي يا سعيد •

وحينئذ اطمأن قلبه انها فهمت • ورضى حتى

انفجرت شفتاه :

— حاضر • أحسن برضه •

وتضاءلت بجواره على الكنبه ، وعقدت ذراعيها على

صدرها ، وقد أثقل الهم رأسها فمال على كتفها وران

الصمت لا يחדشه سوى خرخشة الخبز الجاف •

ولكن سعيد أدرك انه لم يسيطر تماما على الموقف •

شيء واحد يبغض قوته أمامها • انها لا تأكل خبزه •

— كلى •

وأحست فجأة باهتزاز أعصابها ، لقد كانت غافية

ورفعت عينيها الواهنتين تحتويان وجهه الصارم :

— حاضر •

وأخذت تكسر العيش فى بطء شديد ، وتغمسه فى

الجبن ، وتمضغ فى ضعف •

ونظر سعيد الى قمة رأسها المطاطاة ، وأحس

المهانة • وفكر انه لم تعد به جرأة ان يقسو عليها •

لو بكت الآن فسيتقطع قلبه حتما ، فكر انها ربما كانت

شديدة الحاجة للعشاء والشاي وسيجارة ، والفراش .
فملاً قلبه الأسف ، ونظر الى قمة رأسها الصغير، وشعرها
المبعثر .

– انت زعلانة من حاجه ؟

فأجابت بصوتها المتكسر :

– ابدأ . مش عارفه ساقعانه ليه .

فأحاط جسدها بذراعه ، فارتعشت . ثم ارتخت
عضلاتها .

أحست انها تحن الى أن تتألم .. أن تعود الأوجاع
تتمشى فى جسدها .. كما لو سقطت على السلم .
واشتاقت أن يشدد ذراعه على جسدها فابتهلت ثانية .

– بر .. دا .. نة .

فضمها اليه بقوة ، فتأوهت .

– كلى .

لم تغد تريد أن تتحرك . علقّت أصابعها فى كتفه ،
وأرخت يدها الأخرى على ساقيه ودفنت رأسها فى
صدره .

لم تعد جائعة • آه لو تنام بعد أن تخدر جسدها •
- كلى •

- ماليش نفس •

- مالكيش نفس ازاي •

- أصلي ، متعشية •

وفكر والشوق يملأ كيانه • طيبة البنت دى • لو
أمى متعرفشى انها دايرة • »

وفى رأسها الهامد تصورت فى خجل انها تستريح
أكثر لو كانت عارية وودت لو انها ثرثرت وملأت بيته
بصوتها • واحست بخدر يزحف كدبيب النمل فى قدمها
المحشورة تحت التراييزة • ولكنها لم تشأ أن تحركها ،
واستعذبت ألها • وبعد قليل مات النمل الضارب فى
عروقها ، وتصلبت رجلها • ولكنها لم تكن تشعر بلذة ،
الآن ، أكثر من أن تفقد رجلها • وفكرت • لو يقطعوا
رجلى ويأخذنى عنده • »

لم يعد فى طاقته أن يسد أنفه عن رائحة الأنثى
المنتشية فى غرفته ، لم يعد فى طاقته أن يسد أذنيه عن
أنفاسها الرتيبة الهادئة ، لم يعد يستطيع أن يسد

شرايينه اذ يقفز الدم في ذراعه اللاصق بصدرها ،
وركبته التي تحمل كفها • وفكر « لازم الواحد يعيش •
وايه يعنى لما تكون ••• » وتخرج ان تكمل الجملة في
وعيه • ومال على قمة رأسها فقبلها •• وأحس ماردا
في قلبه يريد أن يقفز من ضلوعه • ويحطم شيئا ما •

وتذكر كيف يعيش أهله في القرية • في الأسن
والطين والذباب • يجب أن يصفى له الناس ، فكل
الناس تقول انه متعلم ومسنور • والفلاحون في قريته
ينصتون حين يتكلم • فحتى الفلاحون يتطلعون لمنطق
القادمين من القاهرة في العيد •

ونظرت اليه وهو يأكل في صمت ، فرحة برؤياه •
وراقبته في دقة •• فكاه وهو يلوك الطعام ، ونظرت
الثابتة الى الحائط ، وأصابه وهو يلتقط زيتونة •

ثم نظرت الى كومة الكتب والكراريس المبعثرة على
الترابيزة والأرض • وفرحت به •

انها لتدرك أن المذاكرة أمر خطير • جد خطير •
والا لما سهر لها كل هؤلاء الطلبة ليالي طويلة شاقة •
ودهشت كيف يستطيع انسان أن يستوعب آلاف الكلمات
المنقوشة في كل هذه الاوراق •• وتحس لهذه العملية

جلالا تتضاءل امامه ، ورهبة تهزها • فهذه الكتب
الكثيرة تحيل أى صبي مكوجى الى رجل خطير كمأمور
القسم أو كنجم السينما ، ويقابل الحكام ، ويلى المناصب
التي لا تخطر لها على بال ••• وتدرك أن هذه النقوش
المبهمة الكثيرة أفل بالسحر من أحبة الشيخ والى كلها •
وشددت ذراعها المعلق فى كتفه وهمست :

— ساكت ليه •

فخفض بصره الى مصباح المكتب الصغير الخامد :

— أصل ضرسى نقح على •

وأحست ساعتها بالبرودة تسرى فى ساقها الخامد:

— تشربى شاي ؟

— عندك ؟

وقامت لفورها ثم ارتمت على الكنية متأوهة •

— مالك ؟

— رجلى مخدلة •

فبعد قليل قال :

— لا • دلوقت تتمدل •

— أدلكها لك •

— لا ، دلوقت تتعدل •

ولكنها ودت لو يفعل ، وهى تريد أن تعرف كيف
تعود الحياة الى الميت بلمسة الكفين •

• وجمع بقايا الخبز والجبن والزيتون فى الدرج •
ثم قام ودار حول الترابيزة •
— افردى رجلك •

ففردتها فى سرور • وقعد ثانيا ركبتيه ، وظل
يمسح ساقها بكفيه • وأحست كأن الدم يجرى تابعا
كفيه فى رجلها • وعاد اليها الخدر ، ودبيب النمل ،
والأمل الخفيف العذب • وأحست انها كبنات السينما
المدللات فاختلفت نفسها ، وقامت تدوس على نمل
كثير •

— ميصحش • هات لى باكو الشاى •

وأحست وهى ترشف الشاى بحاجتها الى سيجارة
ولكنها خجلت أن تطلبها ، فجلا لا يضايقها • هذه الكلفة
ترمى على عريها قناعا كالحفاظ الذى يبقى لها ركنها
قصيا عن عبث الناس • • ابتهجت له • هذا الحرج • •
كالبنذرة البعيدة المدفونة فى أعماق نفسها ، أحسبت

بوجودها ، بثقلها كأنها بذرة موضوعة في مكان ما
بصدرها ، وقد استراحت لها وابتسمت في سرور وهي
تفكر أنها تحس احساسا عذريا عبيطا .

وتملص سعيد من هذه الكآبة الثقيلة التي حيرته
وفكر انه انما يغامر مثل سائر الشباب ، وهم
لا يرسبون ، ولا تحقيق بأسرهم المصائب من جراء
مغامراتهم ، وأراد ان يملأ البيت بالحديث المسائي
الطيب ، حتى يدركهما النوم .

— انت منين ؟

— أنا ؟! . . من تحت قاع البحر .

وداعبها سرور وهو يقدم لها سيجارة ، ونحت عن
ذهنها قصة زوجها ومصرعه ، والقصص الخرافية عن
ماضيها التي تفتن في اقتباسها من قصص السينما ،
وتنتحلها أمام زبائنها . . وفيها مواعظ الشيوخ وعبت
الشباب ، ومواقف دينية وأخلاقية وعاطفية عنيفة
ومختلطة . .

وحلمت بجنية البحر في صندوق الدنيا التي رأتها
وهي صبية . كم هي جميلة ، كم هي قادرة ، فقفزت
كالفراشة الى مصباح المكتب فانارت وضحكت وهي
تزوي ما بين حاجبيها .

– سيبني اذاكر باه • انا عايزه أنجح •

وفتحت كتابا أمام عينيها فسقطت منه صورة •
ففكرت انها لابد صورة أمه ، وأشرق وجهها فى براءة
وقبلتها •

– الله •• ماما • حبيبتي ماما •

ثم توجهت للشباك •

– النور الى هناك ده بتاع سينما النصر • أنا
عارفاه علشان أحمر • لأ ؟ أنا عارفه كل حته فى مصر •
ورحت الهرم مرتين • وشفت ابو الهول • وكلت
شوكلاته فى المحل الى فى شارع سليمان •

ووضعت كفها الأيمن تحت ذراعها اليسرى ،
وأصبع يسراها على شفتيها المنفرجتين وهى تقول فى
رنة أسية :

– •• لكن يا خسارة •• معرفش أكتب •

وقال على الفور فى خفة :

– عايزة تكتبى ايه ؟

فجلست كخائبة الأمل ، والابتسامة المشرقة عليها
قناع يصطنع الألم الزائف فى عذوبة •

– عايزه اكتب كتابى •

فضحك :

– عايزه تتجوزى ؟

وشعر كمن سيفلت من قوقعة كانت مطبقة على

روحه ، سيفرح • • حتما سيشرق قلبه بالسرور •

– عايزة تتجوزى مين يا قمر ؟

– أنا قمر ؟! أهو انت • أنا حلوة ؟!

وفتحت زجاج الشباك على مصراعيه ، وتلقت هبة

الهواء الباردة ، ونور البدر المكتمل مسح وجهها على

الفور : بلونه الصوفى العميق الرقيق • وصاحت على

القمر :

– أنا وحشة • لكن عايزة أتجوز القمر • جوزنى

القمر • أنا مالى • أنا باحبه •

ثم تحولت ، وقد استبد بها فرح جامع ، فأمسكت

بكتاب القانون التجارى وهى تضحك ودموعها تنهمر

كالسيل وألقت به على الأرض ، والورق بعثرته ،

وصورة أمه طارت فى الهواء •

ووقف سعيد لحظة كالماخوذ ، ثم اندفع فى غضب

كبير فلطمها على وجهها ، وفى عينيه خيبة تزحم الغضب ،

ولمعات متضاربة من الاثارة والحيرة والعجز والرغبة ،
فسقطت على وجهها معولة ، وتناولت صورة أمه في
حنان ، ووضعتها على صدرها ..

وقامت تنظر حواليتها في جزع ، وقد هدأ نحيبها ،
وتملأ عينيها بوجه الأسمر الذي انتفخ ، وأشلاء الكتب
والكراريس على الأرض . لقد ذهبت الابتسامة التي
كانت انتزعتها من صميم قلبه لترسمها على شفثيه . كم
هو حزين ، ومهيب ، وجامد وعملاق ، عيناه ثائرتان
حائرتان .

ثم ارتمت على صدره ، وسيل الدموع يبلل جليابه ،
وتعلقت بعنقه وقد أحنت رأسها ، وشعرها مبعثر ..

وحينئذ أفنت المارد ، فأحاطها بذراعيه وضمها
بقوة عارمة يريد أن يدخلها في ضلوعه ، ومسح صفحة
وجهها المبلل بشفثيه في نهم ، ولم يعد في صدره
الخوف القديم أن يتعلق قلبه بها (!) .

— أنا بحبك يا حميدة .

— ده أنا اللي بحبك يا سعيد .

وانفتح قلبه توا ليستقبل اشعاع السرور ،

سيذاكر ، وسينجح ، وسيحب ، وسيبنى بيتا أخضر ،
وستكون لزوجته خصلات شعر مبعثرة ..

والمسكينة حميدة .. ستفرح أيضا ، والناس ، كل
الناس ، لأن حديقة بيته ستسع الناس كلهم وستظل .
القاهرة الكبيرة أشجارها .

★★★

الصباح بشرق دافئ . وسعيد يفتح عينيه
ويغمضهما . وتغشاه كآبه شاملة تفرق روحه . لم
يذاكر القانون التجارى .. ملعون أبو القانون التجارى
.. ما قيمته . ما قيمة كل العلوم ، والموسيقى والأدب ،
وكل العبقريات التى خلدها التاريخ .. لا تساوى ثقلها
ترابا ما لم تسوى له هذه المسألة : لماذا يحب حميدة حبا
مذعورا ؟

لماذا يمسح الصباح على صدره رهبة وتقززا
ويشمله بالكآبة حتى لتأخذ بأطراف أعصابه كلها ..
وفى المساء كانت له فرحة تأخذ بأطراف شرايينه كلها ؟
ومشت حميدة تحت الشمس ، وأحست دفاها ، وهى
لا زالت مشبعة بأحاسيس غريبة . ويمر بخاطرها من

وقت لآخر أن وليدها يجب أن يكون غلاما ، لأن الستات
غلابة •

ولكن وجهها أشرق ، وبرقت مفاتنه ، وهى
تتساءل : هل يحلم سعيد مثلى أحلاما مزعجة فى الليل ؟

ويملاها السرور وهى تخمق أن سعيد رجل سيصبح
كأمور القسم أو كنجم السينما أو محاميا خطيرا ،
فلا يمكن أن تتناوش رأسه الأحلام المزعجة ، وسيتزوج
أحسن بنت فى البلد . لكن •• ليته يأخذها عنده ، ولو
خادمة تطهى له الأطباق البلدية الحبيبة ••

المهم ، أنه لا يكرهها ، وستعود ، فقد ألح عليها أن
تعود •

وتفتحت على شفيتها بسمه صغيرة راضية ، وفى
عينها بريق يعبت •• وسعيد ، ما يزال يفتح عينيه
ويغمضهما وهو فى سريرته هناك •• ويفكر أن حميدة
بنت طيبة ، وأن هناك شيء ما •• حتم عليه كرجل أن
يتمرد عليه ، شيء ما يحمله كحجر الرعى فى نفسه •

، -

خطاب غرام

ما كان أبهج مدرسة البنات الثانوية الصغيرة وقد تسللت إليها أولى لسعات الحر في مايو ٠٠ والامتحانات الدانية توقظ في البنات نوازع الضعف الانثوى ٠٠ وتدفق الشمس الحارة يثير نبض الصبا في عروقهن ٠ وكانت الأبلوات الصغيرات اذا ما أقبل مايو ينظرن في أنفسهن فاذا هن عاريات الصبا كتليمنذاتهن، يهوين الممازحة والعبث ، تصغر عقولهن ! ويغلبهن هذا الفيض الدافق من شباب المدرسة ٠ فيضعن أيديهن مع أيدي البنات ، ويشتركن في كل شيء : طلاء قصارى الزرع بالأصفر والبرتقالي والأخضر والاحمر ٠٠ تزيين الفصول بورود من الورق الملون والرسوم ٠٠ رفع

عديد من الرايات على قمم المدرسة .. صنع براويز
من الخوص للصور المعلقة فى غرفة أبله الناظرة .. التبرع
بالاسطوانات للمدرسة التى كانت تسبح اثناء الفسح
فى سحابات الموسيقى الكلاسيكية ، والأغانى العاطفية .

فى شهر مايو تتزين المدرسة ، وتدب فيها روح
عروس تنهيا لزفاف عظيم .. يأخذ قلوب البنات بالشوق
واللهفة والتوثب ..

ومع ذلك فقد كن يتسلل فى ثنايا هذا المرح قلق
غامض يخطف لون الوجوه ، ويخفض الروح النشاط من
حين لحين ، قلق المثل فجأة أمام الجنة اللذيذة المحرمة
.. وتجربة الامتحان .

وكان يدمدم تحت هذا كله حيوان أراضى مخوف
.. يهدد الحيوية جميعها ، ولعله يستتر دائما فى ظل
أبله الضابطة العانس المكتنزة ذات الملامح الصرمة ..
التى ما كانت تمشى فى المدرسة الا وتسكت من حولها
كل ثرثرة ، وتحتبس كل أنفاس لاهثة ويتقنع كل مرح
بقناع من الجد الكاذب ..

ان أحدا لم يتفاعل بوجهها أبدا .. أو توقع خيرا
حين دقت باب السنة الثانية أول ، متطفلة على خواطر

البنات الهائمة فى شعر والتر دى لامار ٠٠ لتنادى
بصوت مزعج :

– زينب حسن على ٠٠

– نعم ٠٠

– تعالى كلمى أبلة الناظرة ٠٠

فوقفت زينب بفرعها الطويل النحيف ، وخطت
خلفها فى خفة العصفور . البنات يرمقنها فى انهيار
مخفى بحذق ٠٠

لقد كانت زينب نجمة ساطعة ٠٠ طويلة فى جيل
يغلبه القصر ٠ بيضاء البشرة جدا ، فاحمة الشعر جدا ،
خضراء العينين ، عذبة الصرورة ، مثال البنت الجميلة
الناضجة ٠٠

مشت خلف الضابطة فى هدوء ، وان كان القلق
يأكل قلبها ٠ الى ان فتحت لها أبلتها الناظرة وقالت :
– اتفضلى ٠٠

وما أن خطت داخل الغرفة حتى أخذ بها توقع
الخطر من كل جانب ، واختلطت المفاجأة صوابها ،
فرفعت يديها على صدغيها بحركة غريزية ، وفى نفس

اللحظة انهالت كفا أبيها على وجهها ورأسها وعيناه
تطلقان بالشرر ، وهو يصيح من صدره :

— والله لأدبعك ! تخربى بيتى ؟! أنا طول عمرى
ما حد قال على كلمة بطالة .. تفضحينى فى آخر العمر
.. أنا راجل حر .. سمعتى زى الجنيه الذهب ..
تفضحينى فى البلد ؟

أما الناظرة فقد قفزت من كرسيها ، وعيناها
واسعتان بالدهشة ، والفرع . وأخذت تصرخ :
— يا أستاذ حسن .. نتفاهم الأول ..

ووقفت الضابطة حائلا دون الناظرة ، وهى تصرخ
فى نفس الوقت :

— هو حر .. دى بنته .. انشالله يموتها بخطر
.. سيبه انت يا أبله الناظرة ..

وعيناها محسرتان بهياج وحشى ، وقد تصلبت
ذراعاها تماما وجسدها كله يرتج على وقع الضربات ،
ووجهها يتفصد بلذة خبيثة عجيبة ، واستغرقها تماما
متابعة المشهد بتفاصيله الدقيقة جدا، تستوعبها جميعها
بقدره وانتباه .. لم تشعر بالناظرة وقد اندفعت الى

غرفة الوكيله وأغلقت الباب وراءها ، وارتدت على
أحد الكراسي كأنها تنتظر فاجعة ..

ولكن الدنيا هدت فجأة ، كما كانت قد ثارت
فجأة .. وأفقت الناظرة من كابوسها فعادت الى غرفتها
بخطى مترددة ، فتحت الباب فاذا بالأستاذ حسن جالس
فوق الكرسي ورأسه في راحة يده ، وزينب راكعة على
الأرض في ركن الغرفة ، ورأسها بين ركبتيها في زاوية
الحائط تماما .. كأنها حيوان صغير ينبش لنفسه
جعرا في الأرض ..

صرفت الناظرة البنت وأباها واستدعت الضابطة ،
وحذرتها :

— أوعى تجيبى سيرة لحد ، لو طلعت على البنت
سمعة ، أو على المدرسة .. انت المسئولة ..

— والنبي ده لو على رقبتى .. أنا أقول لحد ده ربنا
أمر بالستر .. أنا المسئولة يا أبله ..



ومشت زينب من المدرسة لم يلحظها أحد ، رافقت
أباها الى البيت مستسلمة استسلاما مصدره التمرد
والرفض .. استسلام الأسير المتكبر يقوده جلاؤه ..

كانت تعيش ساعتها ، لا فى العالم المحيط بها ، بل
فى العالم الكامن فى أعماق نفسها .. فهى لا ترى ،
لا تسمع ، وانما تتقلب على دفعات الانفعال الحاد
كزورق صغير فى المحيط .

وكانت كبرياؤها لا تعجز دموعها فحسب ، بل
تكسو وجهها جمودا وصمتا ، كأنما لا تريد أن تبتذل
انفعالاتها باخراجها لضوء الشمس ..

وعلى عتبة البيت استقبلتها أمها ، بانزعاج شديد ،
وحين رأتها توجست شرا ، فدقت صدرها واهتزت
عينها ..

وتركت زينب أباهما يشرح لأمها الأمر ويسببها
ويتوعدها ما شاء ، واندست فى فراشها ونامت على
الفور .

وظلت زينب راقدة فى السرير أياما ثلاثة لا تتكلم ،
لا تأكل ، لا ترفع اللحاف عن وجهها الا لما ..

وفى اليوم الرابع لبست ملابسها ونزلت لخمس
دقائق وعادت بأنبوبة اسبرين ابتلعته .

صرخت أمها واضطرب أبوها جدا ، واستدعيت
الاسعاف وتطلع الجيران من الشبايك فصاحت الأم من

الشباك البحرى كما صاحت بعد ذلك من الشباك
الشرقى ..

– البنت عاديك جالها مغص شديد قوى قلت له
ياسى محمد الاسعاف على طول وعملوها اللازم هناك .

أما الضابطة فقد عاشت من يومها كالقربة المملوءة
بالهواء المضغوط .. تكاد تنفجر .. وأخذت تحصى
تفاصيل المسألة . وتدقق . وتتأكد من أنها تذكرها
جميعا .. وتتحسر لحبس هذا كله . وتضيق به . وتشعر
حتى بأن ذلك يسبب لها أوجاعا فى جنبها ..

وكانت خائفة .. فحبست الحكاية فى جوفها ثلاثة
أيام كاملة ، حتى استقرت آخر الأمر فى غرفة الجلوس
عند جارتها سيدة الخاطبة ، وشربت شايها ، والليل نفسه
سائر الأمرار .. فهمست تحت سقف جارتها بالأمر
كله ، بتفاصيله الدقيقة جدا ..

– أنا باقلب فى الجوابات .. والتقى لك جواب
مكتوب عليه زينب .. ولا حدانا زينب مدرسة
ولا نظرة .. إلا البنت المفجوعة بتاعت سنة تانية !
يا خرابى .. ودى كانت تجرى دى .. الولد بيعت لها

جواب على المدرسة .. كده على عينك يا تاجر .. نهارها
 أزرق .. الناظرة قالت : مصيبة ايه دى ؟ ونعمل ازاي ؟
 قلت لها : نعمل ازاي ، نعمل اللازم .. ننده لها هنا ،
 ونخليها تقر بحكاية انواد ده لحد ما تقول ، وعنهما علقه
 تمام ورفت ١٥ يوم .. الناظرة قالت لى : لا لا لا ..
 مالناش دعوة .. دى حكاية مشوكة .. واحنا نقطع
 الجواب ولا من شاف ولا من درى ..

قلت لها : يانهار .. نقطع الجواب .. ده ورقة
 وما سكينها عليها .. الله .. دى فى ديك الساعة عينها
 رايعة تقوى علينا وتمرمط بنا الأرض .. ألا دى ،
 ده حتى الأخلاق فضلوها عن العلم .. قصر الكلام ،
 قالت : نجيب أبوها يتصرف . وعنهما ..

الخ .. الخ

وكم استراح قلب الضابطة حين باحت بسرها ،
 ولكن العبء الثقيل ، التفاصيل المحتبسة فى الصدر ..
 كل هذا انتقل الى سيدة الخاطبة لتعانيه من أول وجديد ..
 ولتفرغه فى لحظة ضعف عند الست فاطمة الخياطة ..

وتدور الدائرة ..

أما الناظرة فقد ظلت حائرة مرتبكة ، لا تدري

ما الصواب وما الخطأ فيما فعلت ، ولكن قلبها كان يأكلها
بندم طفيف ٠٠ وفي آخر المساء ، عادت تقرأ خطاب
زوجها المسافر في العراق وغلبها الحنين له ٠٠
وبديهي أن زميلات زينب انتبهن الى غيابها، وظللن
يحدثن السبب - عبثا . وفي آخر النهار افترقن وفي
القلوب وحشة ٠٠

وفي اليوم التالي بادرن الى سؤال الضابطة ولكنها
اجابتهن في اقتضاب .

— زينب عيانة ٠ أخذت أجازة كام يوم ٠

ومع ذلك لم تسترح خواتمهن أبدا ٠٠ اشتكين
الى أبله نادية ، واثرن فضولها ومخاوفها ولكن الناظرة
طمأنتها حين قالت لها :

— أبدا كانت تعبانة ٠ أخذت أجازة كام يوم ٠٠
ولكن البنات لم يهدأن ٠ فقالت لهن أبله نادية :
— حد منكن يروح يزورها في البيت ، ويقول
لنا ٠٠

وعادت البنات في اليوم الثالث يقلن لأبله نادية :
— ماما زينب قالت لنا الدكتور قال الزيارة تتعبها ٠

فصاحت بنت :

— وده كلام يخش عقل حد • دى كانت فى الفصل
اول امبارح زى الفرس •

واستطاع لغز صغير واحد ان يفتح أبواب المدرسة
كلها لتتسلل اليها بمرور الأيام وحشة غريبة ، وكآبة •
وقد هدأت ثورة الربيع ، كأنما أحبطتها قوة غير
منظورة ، فهدم النشاط •

وأخذت حدة القلق ترتفع ، ومزاج البنات
يستشيط ، فحاولن الافلات من الضيق والوحشة
بالثرثرة •• ولكن التكاليف الذهنية والدروس
تصدمن ، فيعود قلق مايو ، بلا بهجته

وحتى سطوع الشمس لم يعد يقينا خالصا فى
مدرسة البنات • وألقى اللغز المبهم بظله الكثيف بين
تلميذات يعبىء حياتهن بالريبة والشك •• ويصيب
أرواحهن بالخوف والانكماش

ولكن الى متى يمكن ان يظل السر سرا !

ذات يوم نشرت أبله الضابطة تفاصيل الحكاية
بين يديهما أمام أبله نادية ، ولم تطلق أبله سكوتا ،
فأفضت بالأمر الى مديحة التلميذة الوديعه المتزنة ،

وقالت مديحة لصديقتها فائزة ، فضحكت فائزة ضحكة
جلجلت في الفصل وصاحت :

– جولييت حسن علي .. عيان بايه ؟ ..
وأنا مجنون أقولك عيان بايه وحاسس بايه ؟ ..

وتطايرت الكلمات هنا وهناك .. ولا نظرة التوسل
في عيني مديحة ، ولا ذراعاها المفتوحتان المتلهفتان
استطاعت أن توقف انهماج الحكاية وانتشارها في
المدرسة كلها خلال نصف ساعة ..

واجتمعت مديحة وهانم واقنعتا فائزة بزيارة
زينب ورؤيتها بأى ثمن .. وقابلتها أمها على الباب ..
وتلعثمت :

– لكن الدكتور ..

– احنا عارفين ..

فدقت الأم على صدرها :

– يانا يبتى ! .. والنبي مش صحيح ، الحق يا سى
حسن ..

وكان أبو زينب واقفا في الصلاة ، وأسرع إليها ،

وبنظرة واحدة أدرك الموضوع ، فاصفر لونه وحملق
فيهن ثم استدار ورزق الباب ..

وحارت الأم لحظة . ثم رأت انه لا يصح رد الضيوف
للمرة الثانية فدعتهن للجلوس فى الصالون ، ويدها
لا تزال على صدرها وعيناها لا تستقران . ثم حشدت
نفسها فجأة ، وقالت :

– تعالى شوفيها يا بنتى . وماله . دى مقطعة قلبى
أبوها كان حيتسبب فى موتها . يا نظـرى هى عملت
ايه يعنى ؟!

واندفعت الى باب احدى الغرف ففتحته فى عنف ،
فدخلت البنات الثلاث فرأين زينب راقدة فى الفراش
وقد غطت جسدها الى رأسها باللحف – رغم الحر –
ووجهها للحائط . وما أن شعرت بالداخلات حتى رفعت
رأسها ونظرت خلفها ، فلما رأتهم عادت تجذب اللحف
وتحكمه فوق رأسها بالبكاء ، وجسمها يهتز كله .

وكانت أمها تكاد تمزق الهواء حولها بذراعيها ،
وكانها غارقة فى بحر تناضل لتطفو وتقول :

– عمل لك ايه أبوك يا بنتى .. الهى ينتقم منه .
أعمل لك ايه ؟ أعمل ايه يا نظرى ..

وجاشت نفوس البنات بسحر الألم وطلعن على
السريـر يحاولن كشف اللـحاف عن رأسها ، وهى تمنعهن
بقوة فتألبت شجونهن الخفية الخاصة فتناثرت دموعهن
على اللـحاف على وجهها ، على عنقها ثم انهمرت فى
صدرها . .

وتكومت عقدة البنات جميعا يحتضن بعضهن
بعضا ، والأُم واقفة باكية ويدها لاتزال على صدرها . .



وفى صباح اليوم التالى كانت البنات الثلاثة ينثرن
التنهدات والدموع فى فناء المدرسة وهن يروين كيف
حاولت زينب ابتلاع انبوبة اسبرين ، ثم اضرابها عن
الطعام وذبولها وبكائها .

وعندما دق الجرس وقفت الناظرة من أعلى ترقب
الطابور ، فلاحظت أن بنات سنة ثانية أول يتهاـمنن
ويبكين لا يزلن .

فنادت عليهن :

ـ ايه . انتم عاملين مناحة ؟! كفاية بقى .

فعلى نشيج بعض البنات ، وخفت صوت الأخريات ،
ولكن مديحة نادت من وسط الطابور على الناظرة :

– زينب كانت حاتموت يا أبله الناظرة • • حرام عليك !

واندفعت تجرى حتى أدركت الحائط فأسندت عليه ذراعيها ودفنت رأسها فى تجويفه ، وجسمها يهتز بشدة •

وأخذت الناظرة بالمفاجأة ، فصاحت :

– زينب مين ؟ أنا مالى أما تموت . هيه ؟! يالله على الفصول قوام •

ولكن الناظرة سمعت طرقا خفيفا على بابها بعد ساعة واحدة وفتح بابها ، ودخلت بنتان • قالت احداهن :

– سنة ثانية أول بتعيط كلها يا أبله •

وقالت الثانية :

– احنا لينا طلب يا أبله وحياء عينيك •

فأدركت الناظرة لفورها ما ستعرض له ، فصاحت :

– تعيط ولا تنفلق • مش شغلى • يالله ع الفصل •

وذهبت البنتان •

وأخذت الكأبة تلقى بظلها القاتم على الفصل ،
فيثقل جو المدرسة ، وحتى الرغبات الشريرة للمسخرية
من زينب وتقطيع فروتها اختفت ، ولم يعد أحد يبالي
بقصارى الزرع ما لونها ، أو بالرسم على الحيطان ،
أو برفع الاعلام فوق قمم المدرسة •

وبدأت الوحشة الباردة تتسلل الى غرفة الناظرة
نفسها ، ولم تعد أعمالها الروتينية تكفى لطرد
الوساوس من بالها . أخذت تدمن التفكير فى زوجها
المسافر فى العراق . وتكتب له الخطابات ثم تعود
فتمزقها لتكتب كلاما أكثر بهجة •

ولكن أى بهجة :



وفى اليوم التالى غلبت الناظرة خوفها ومرت بفصل
ثانية اول طرقت الباب برفق ودخلت خفيفة باسمة :

— ازيكم يا بنات ؟

— كويسين يا أبلة •

ونظرت اليهن ، وقد اتسعت أعينهن وامتلات
بالرجاء • ومرت بين صفوفهن ، ونظرت فى كراساتهن
وسألت أستاذهن :

– ماشين كويس ؟

– كلهم كويسين •

– خلوا بالكم يا بنات لامتحان قرب •

فردت بنت واحدة :

– بنذاكر يا أبله •

والأخريات يتطلعن اليها من كل جانب بعيون
يملاها الرجاء •

وبعد لحظات أحست الناظرة انها ستتعثّر في
نظراتهم . فحزمت أمرها لتصل الى الموضوع مباشرة .
فتظاهرت بأنها تنهياً للخروج ، ثم التفتت اليهن من عند
الباب وقالت :

– حد فيكم بيزور زينب ؟

– كلنا يا أبله •

وأشرقن كالزهور في الفجر ، وأسرعت الناظرة
تقول :

– ابقوا وروها كراساتكم تذاكر منها، الا الامتحان

قرب •

ولم تنتظر برهة أخرى ، بل فتحت الباب ومرقت منه وأغلقت خلفها ووقفت هناك لحظة ، فى الممر الطويل المعتم تتساءل هل أصابت ؟ ولكن الخوف ملا قلبها ساعة كاملة •

وفى اليوم التالى طرقت بنتان باب الناظرة ، وما أن رأتهما حتى فهمت رسالتهما ، فوقع فى قلبها قلق :
- الامتحان قرب يا أبله •

- وبعدين ؟

- زينب •• مش عارفه تذاكر فى البيت ، أبوها ما بيكلمهاش •

- وأنا رايحه أعمل لها ايه ؟

- فـات عشر أيام يا أبله •• وانت رفدتيتها خمستاشر يوم ، كفاية عشرة •• والنبي يا أبله •

- أنا مش عايزه أسمع سيرة زينب تانى • هو كل يوم زينب زينب زينب • أنا مش فاضية الا لزينب ، روحى الفصل انت وهى يالله •

- حاضر يا أبله •

– اسمعى • أنا مش عايزة فلقة • خليها تيجى من
بكرة • • خلصونى بقى •

– والنبي يا أبله ؟ صحيح يا أبله • •

وجرت البنتان ، كأنهما تتطايران فى الهواء •

وفى اليوم التالى كانت زينب فى الطابور ، ولكن
الناظرة لم تخرج من مكتبها لتواجه البنات فى ذلك
اليوم • شئ ثقيل أقعدها ، وفى قلبها تردد وشك • •

فلم تشهد ذلك الصباح ثرثرة البنات ، وتهالكهن
على بعض يضحكن ويتغاصرن •

لم تشهد بنات الفصل يطلبن من المدرسين جميعا
اعادة شرح دروس العشرة أيام الماضيه وتظاهرن
بعدم الفهم •

لم تشهد البنات كيف كان انتشاؤهن وهن سابحات
فى شعر والتردى لامار •

ولكنها استطاعت أن تلمح فى الفسحة تجمعهن مع
الأبلوات حول قصارى الزرع يضعن الرتوش لألوانها
التي كادت تلتهمها الشمس ، ويصنعن براويز الخوص
وينفضن الأعلام •

وفى العادية عشرة بالضبط دخلت مكتبها الضابطة
وهى غاضبة :

— يا أبلة ده ما كان يصح أبدا ، البنت المجرمة دى
تسامحها ؟

الله ! احنا مالناش شغلة غيرها بقى . خلاص مش
عايزة كتر كلام . كفاية كده !

وظلت الضابطة طول النهار ترغى وتزبد وتجار
هنا وهناك . ووجهها المكتنز يتفصد ببريق شرير .

حتى انتهى بها المطاف فى المساء عند جارتها سيدة
المخاطبة فما استراحت حتى أفرغت كل ما حفظته من
شتائم فى الناظرة وبنات اليومين دول ، والمدرسة ، وهى
تؤكد بالأدلة القاطعة ، وبالقرائن ، وبالشكوك ، ان
الوزارة ستأمر باغلاق المدرسة وشريكا بسبب هذه
الحكاية !

وقع فى عالمنا

فى ساعة العصر كانت مبروكة تقدم القهوة لأبيها
وهو قاعد على الكنبه الأسيوطى بجلبابه الفضفاض
ثانيا ركبتيه ، مرخيا احدهما على الكنبه والأخرى
قائمة ..

فما ينظر الأب الشيخ فى رأس ابنته المفروق ،
ويلمح جفاف الوجه وخشونة الشعر المصفور .. حتى
يزفر عن صدر أسيف ، ويعود يكرر بصوت متعثر :

— ماهيتى ، ومعاشى ، وعرقى .. طول العمر
متكفيش غير شوار بنتين ؟ طيب والثالثة ؟ منعرفش
ندبق لها قرش تعريفة ؟! أعوذ بالله .

فترتاع الأم لوقع الكلمات ، وتدق على صدرها
بجزع حقيقى واستنكار :

— يا راجل بطل الكلام ده .. بكره مبروكة ييجى
لها العدل وتبقى حلوه خالص .. ده شىء باذن الله .
وتتلقى مبروكة كلمات ابيها وامها كنصال تغوص
فى قلبها ..

ويقصر عبد المغيث أفندى عن بلوغ قمة حنقه —
كعاداته — وتخيّب ثورته ولما تبدأ ، ويشمله الندم على
ما فرط من قوله .. خشية أن يكسر نفس البنت ،
فيعود ويقول :

— الأكادة أن شبان اليـومين دول ما عادش فيهم
نافع .. اللى فيهم فاكرها شروة .. وده مايليقلناش
لأنه اذا لقى شروة أحسن يبيعنا على نكلة ، وبعد ما
أخذنا تمر يرمينا نقى ، واللى مفسود ولا هوش بتاع
جواز .. واللى مطين على عينه ولا يخافش على عرضه
وخاسر دينه ، رايح يناسب الافرنج . ولا حول ولا قوة
الا بالله ..

وتكون مبروكة قد لاذت بالشـباك فرجت ما بين
خصاصه لتنظر فى العالم الزايط من تحتها ..

وفى الشارع أسفل يبدأ الأولاد ساعة العصر يلعبون
الكرة . ثم سرعان ما يشتبكون فى معركة عنيفة ،
ويزعقون بصيحات القتال ، وتتداخل أذرعهم بين
أرجلهم . وتلحق أرجلهم وتتدحرج رؤوسهم حجورهم ،
وجلابيهم تشيل وتحط عليهم حتى يصعب على المرء أن
يتبين حقيقة عددهم .

ويمر وقت قبل أن تفتح الشبابيك لتطل الأمهات
والأخوات وغيرهن . . يتصايحن :

— بس يا واد انت وهو . . سيبيه يا مضروب
لانزل اكسرلك رقبتك . . اطلع فوق يا حسين . .
وربما اشتركت مبروكة مع الأمهات فى صيحات
الزجر والوعيد هذه — على غير رضى تام من الامهات
اللائى كن يضمرن خوفا من « عينها » ومع ذلك فلم يكن
انشغالها بالمعركة التحتانية ينهيها تماما عن تتبع ما
يجرى خلف ظهرها . . فان لها أذان هرة . . وتستطيع
وهى بموقفها من الشباك أن تسمع بابا وهو يفتح ،
فتحدد باب أى شقة هو ! وتتابع بأذنيها مالا تستطيع
متابعته بغير ذلك . .

وفى الشقة التى تواجه شقة عبد المفيث أفندى

يقيم زوج ابنته الكبرى محروس أفندي الكاتب بوزارة
الزراعة ..

وهو اذا خرج بعد العصر أعلن من خروجه بجلبة
تغنى مبروكة عن طرطقة الاذنين . فما ان يفتح باب
الشقة حتى يتدافع منه أهل البيت : محروس أفندي
وزوجته وولده محمد .. سجتهدين دائما أن تسمعهم
فرجته خارجين معا – ولا يثبط همتهم أبدا فشلهم المرة
بعد المرة ..

فتقول زوجته :

– عايزه سلامتك ياسى محروس .. مع السلامة ..
يكفيك شر الطريق .. وترجع بالسلامة ..

ويدخل محمد ذو الخمس سنوات رجله وذراعيه
فى زخارف درابزين السلم وحديدته المتشابك ويهتف
بصوت منذر بالصياح :

– هات لى شكلاته يا بابا من أم خمسة صاغ .

– حاضر يا بابا .

– بس انت مابتجيش وبتنسى ، وما بترضـاش
تشتريلى حاجة .. والبنطلـون الى قلت لك عليه زى

بتاع محمود ٠٠ وزى ما قلتلى أما تنجح ونجعت ٠٠
هات لى البسكلتة ٠٠ وعشان كده مش حذاكر تانى ٠٠
وعمرى ما حنجه لك أبدا أنا مالى ٠٠ مش حنجه أبدا
٠٠ هه ٠٠

ثم يبكى بكاء لا ينفع فيه وعد أو وعيد ٠٠ وأمه
تأخذ رأسه فى حضنها بقسوة وبرقة معا وأبوه يقول
ولم يتوقف :

— طيب يا بابا ٠٠ أما أرجع ٠٠

تصيح الأم فوق صياح الولد :

— ترجع بالسلامة ٠٠ يكفيك شر الطريق .

وتتذكر فجأة ، بعد أن يكون محروس أفندى قد
غادر البيت ، فتهرول فى جزع الى داخل الشقة ٠٠ الى
الشباك ، ومحمد يتعثّر فى فستانها الفضفاض ،
ويعوقها ، ويمسك بملابسها احتجاجا على تجاهله
والتنكر له ٠٠ وهى تتملص منه وتضربه على جميع
أجزاء جسمه وتصيح :

— أوعى تنشك فى قلبك ٠٠ ياسى محروس ٠٠

سى محروس .

وتلوح له بذراعيها كالمستغيثة :

— هات لى معاك نص وقة سكر .. والقميص من
عند المكوجى وفثيل لوابور السبرتو بس من الكويسين .
وتيجى بالسلامة ، مع السلامة .

وتفنيق مبروكة فجأة على أبيها يشهق فتتوقف
أنفاسها ، وينفقبض وجهها على انزعاج شديد ، وتنصت
وهى لا تقوى على الحراك .. وعبد المفيث أفندى يقول
بصوت خطير :

— ايه اللى وقف الساعة !؟

فتزفر ما احتبس فى صدرها من هواء ، وتبتسم
وقد أفرج عنها الانزعاج ويتلبسها عتاب وضيق فما
باله يروعها بشهيقه لأن ساعة الحائط قد توقفت ؟
هكذا يفعل دائما .. رغم ان الساعة لا تتوقف الا لأنه
ينسى ملأها ..

— امشى يا بنت .. امشى ..

وتختلس النظر خلفها ، فإذا أبوها مستند بذراعيه
على الحائط لاصق أذنه على الساعة ، وجسمه مائل الى
الحائط ، وبعينيه قلق فصيح .. وبعد برهة يهمس
بصوت مضطرب :

— واقفة ! .. تمام واقفة !



وهاهو ذا يوم الجمعة الذى اعتاد محروس أفندى الخروج فيه مع الضحى ٠٠ ولكن مبروكة تنتبه فجأة ، فى السادسة صباحا على صوت المزلاج والباب ، فتحدد على الفور انها شقة أختها ، فتزداد انتباها وانصاتا ٠٠ لاضجة ولا زمبليطة ، ولكن محروس أفندى نفسه قد خرج ، وزوجته تدعو له بصوت نعلان خافت :

— يكفيك شر الطريق ٠٠

ويقول محروس بعد أن ينزل درجتين من السلم :
سلامو عليكمو بقى ٠٠ مش عايزه حاجة
يا خديجة ٠٠ ؟

فجرت مبروكة تتلقاه من خلف خصاصى الشباك بعد أن رفعت عارض الشيش ٠٠ فاذا هو محروس نفسه ٠٠ « جزمته دى الى مدهونة الصبح ، لكن شرابه مقطوع من ورا ٠٠ وموش باين عليه لحق يستحم ٠٠ لازم زعلان يبقى مش رايح القهوة ٠٠ نازل البلد ٠٠ الله آمال ايه الى فى جيبه ده ؟ ده مش جرنان ، ده زى ما يكون ورق عرضحالات ! ولا بس الكرافتة البنى ٠٠ لكن ماله زى المقهور كده ؟ مش زى عوايده ٠٠ ده طول عمره فاكر نفسه أبو زيد ٠٠ يا باى !

ومن فى الدنيا تنوشه هذه التيارات الخفية المنهمرة
على رأسه من فوق ، فلا يتعثّر فى شباكها .. وهذا هو
ما حدث بالضبط ، لقد وقع محروس .. مد زراعیه
فلم تقياه ، وحط على الأرض كتلة واحدة ، وتلوى ..
ثم صاح من حلاوة الروح :

— الحقينى يا أم محمد ..

وانقلب الشارع الساكن النائم .. ودبت فيه الحياة
فجأة .. فتفتحت الشبـابيك بعزم . واندفع ناس من
الأبواب فاحتاطوا بمحروس تماما ، وأخفوه عن زوجته
المرتاعة المذهولة فى شبـابكها ، وكأنما غطوه بأذرع
ورؤوس وجلابيب وصيحات :

، جرى ايه يافندى ؟ ايه يا ابو ابراهيم ؟ سمعتى
ياختى ، قال خناقة قال ؟ سور السطح وقع عليه ؟ !
الحقوه يارجاله .. ده أبو محمد يا ضنايا .. جت سليمة
شيل يا واد معايا ..

وتلقته زوجته ومبروكة وحماته ، وعبد المغيث
أفندى حماء بقلوب أنهكتها المفاجأة ، ونهبها الخوف
وحطوا محروس أفندى على سريريه الذى كره أن يخرج
من دفته منذ برهة ، قال محروس :

رجلى يا أم محمد .. الحقينى بالدكتور .. ودارت
مبروكة فى البيت تفتح الشبايبك وتولول :

– يا سوء بختك يا أم محمد ! « وفى الشباك »
يا الى محاوطينك العوازل يا أم محمد يا تعب قلبك
يا أم محمد .. « ثم عادت » سلامتك ياسى محروس ..
ألف بعد الشر ياسى محروس ..

فتلقفتها ذراعا أختها فاحتضنتا وانتحبتا ..
ومحروس لا يزال يهتف بصوت أنهكه الانفعال :
– اسكتى يا وليه انت .. هاتى الدكتور
واسكتى ..

– شد حيلك يا أبو محمد .. ساكتة أهو ياخويا
.. أدينى ساكتة أه .. الدكتور بعتناله ..

ومن باب الشقة المفتوح تدفقت النسوة وانتشرت
فى البيت وأحطن بأم محمد ، وولدها يصرخ ويتشبث
بجلبابها ، والقين عليها ملء فنطاس من الأسئلة الحارة .

– هو تقل فى العشا ؟ بتقول عنده ضغط دم
ماكانش بيشكى من بطنه ؟ عمره ما وقع فى الشارع
قبل كده ؟ عينيه بتغشش ساعة العصرية ؟ الخ .. الخ

ولما يئسن من الزوجة المرتاعة التائهة .. تفرقن
فى البيت رانحات غاديات ، جماعات جماعات يتحدثن
ويتشاورن ويهمسن ويجهرن .. وأطللن من الشباك
ما شئن ، ونادين على الأولاد وحذرنهن من اللعب فى
التراب ومن الشجار والعبث ، وألقين التعليمات اللازمة
لبناتهن .. لم تثبط همتهن قط صرخات مبروكة
التي لم تفتأ ترددها ..

— يالى محاضينك العوازل يا ام محمد !
لم يسكت مبروكة غير همسات رزينة لاحدى
السيدات ..

— اذا كانت نقطة يبقى لازم من الفصد حالا ! وفى
الرجل الى انصابت .. أنا يوم ما أبويا حصلت له
فصدت له بنفسى ، نزل منه ولا كوزين دم وبعدها قام
ومشى وبقى حلو خالص ، هاتى سكينه وافصدى له
يا أم محمد .. متأخريش، عليه هاتى هاتى .. بلا دكتور
.. الدكتور ح يقولك كده برضه ..

فكأنما رأت مبروكة أمام عينيها رؤيا الخلاص
الأكيد فاندفعت الى المطبخ .. واذا هى فوق سريـر
محروس ، وقد شرعت السكين وفى عينيها بريق اللقيا
السحرية ، وفضت عنه الغطاء فصرخ محروس منكمشا :

— بره يا غجر .. الحق يا عبدالمغيث • أنا دبيعة
يا بنت الكلب !

فانقض عليها البعض يحولون بينها وبينه ، بينما
نفس السيدة التي اقترحت ذلك تقول بصوتها الخافت
الرزين :

— اعقل ياسى محروس .. متبقاش خايف زى
العيال .. أبويا ولا قال : آه ولا حاجة اهدأ امال •
ونظر محروس لزوجته التي غاب صوايها ولم تعد
تستطيع حراكا ، وصاح بذعر حقيقى :
— يا قتالين قتله ..

وكان عبد المغيث افندى لا يزال يناضل ابنته
ويصيح بها :

واندفع الطبيب الى داخل الحجرة ، فأخفت السكين
كالمدنية وكشف على ساقه جيذا وأعاد الجس والسؤال •
ونظر فى الترمومتر ، وأنصت فى السماعاة .. ثم تنهد
فى ضيق :

— ايه الحكاية ؟!

فحكى له محروس .. وهول له وقع السقطة :

— لا حول الله يارب • يا اخوننا مش كده ميصحش
تصحونى الساعة ستة ونص عشان راجل رجله ملووحة •
فشهقت زوجته •• كأنها لم تسمع •

— بتقول عنده ايه يا دكتور ؟

— رجله ملووحة ياست •• رجله ملووحة •• أنا
بتكلم عربى ، دلکیها له بشوية زيت •
فسألت مبروكة بجزع واضح :

— وبعدين يا دكتور ؟

— ولا قبلين ••

ومش ضرورى المخابراتى حتى !

— اعملوا لها أشعة من باب الاحتياط ••

وعندها دقت مبروكة صدرها :

— أشعة ؟! ليه يكون فیها ايه يا دكتور ؟

وعلى هذا السؤال لم يجب الطبيب وانما التفت
للزوجة وبصوت خافت :

— جنيه يا هاتم ••

أما مبروكة فكانت لا تزال تدور حول سرير الرجل

– الذى اشرق وجهه ، روجهها لا يزال مكفهرها وهى تهتف :

– اعملى الأشعة أحسن يا أم محمد .. الأشعة
ليكون فيها حاجة .. شوفوا له الأشعة يا اخواتى .
ولكن القصة لم تنته عند هذا الحد .. وكيف
تنتهى ؟

لقد ظلت دائما حديث النسوة فى طول وعرض قطاع
المسكن الذى يستند بظهره الى الحى الفقير وتطل شبابيك
منه على العمارات المتوسطة الارتفاع .. ظلت النساء
تلت وتتعجن حديث محروس حديث مبروكة بين أخبار
الأولاد والبنات ويعيدونه لتأ وعجنا .. لا يفرغن منه
أبدا .. ومع مرور الأيام ، بعد أن هجر محروس أفندى
الحى كله صرن يزدن على الحكاية تهاويل جديدة ويختلقن
فى ثناياها مصائب شتى .. يظهرن عندها الأسف البليغ
والأسى .. وفى قلوبهن مرور خفى ، وطمانينة ساذجة ،
وكل منهن توشوش نفسها :

– أليس قضاء غبرى أخف من قضائى ؟!

خيال الماتة

لعلها كانت ملحوظة عابرة أبدائها الدكتور سامى
بحكم المهنة •

– باين عليكى تعبانة شوية اليومين دول •

ولكن هذه الملحوظة أحدثت فى جو السهرة الودود
ما يحدثه حجر سقط فى المياه الهادئة •

أما مضيفتنا سميرة فقد اختلج جفناها وقالت
باضطراب ظاهر :

– أبدا • أنا مش شاعرة بأى حاجة •

بينما انفجر زوجها الأستاذ فهيم ضاحكا – ضحكة
غريبة.. • • مجلجلة ولكنها جوفاء • ولمعت فى عينيه

نظرة متشفية سريرة • ثم تطلع الينا نحن ضيوفه
الثلاثة – الدكتور سامى والأستاذ محمود المحامى ضابط
البوليس السابق ، وأنا •• تطلع الينا بنظرة تحد وقحة
حاول أن يلطفها بنبراته المتهكمة ••

٥٥٠ – أهو من يوم الحادثة وهى أعصابها تعبانة •

تساءلنا كلنا : حادثة ؟! • بينما كان يملأ كأسه
الرابعة ، ويرمقنا بسلطة •

هكذا عرفناه دائما •• متحديا مشاكسا ، فظا
خشن الطبع – ولكن خشونة الهزل والمداعبة • وقد كان
فهيم غالبا يحرص على المظهر الخشن المتحدى المشاكس ،
لأنه كان ميسور الحال الى حد ما •• وقد جعله ذلك
هدفا دائما لنكات أصحابه ، وهذرهم ومعاكساتهم ••
وكان رده عليها أن يتخذ ما يظنه طباع ومظهر ابن
البلد •

ألطنا منه هذه الغلظة ، وحرصه على المظهر المتواضع ،
وعلى سكنى هذا الحى المتوسط ، الذى لا يتناسب مع
أثاث بيته العصري الأنيق •

ولكننا اعتدنا منه أيضا أن يتحول اذا ما شرب ،

الى طفل وديع — طفل دمث الخلق جدا . . شديد الكلفة
بالكلمات المنمقة ، واظهار الود .

لذلك أحسست فى ذلك المساء بقلق وضيق لما
يبيده من الخشونة والقحة فى نظرتة وضحكته . . وأنا
أقول مع القائلين :

— حادثة !؟

لوح بيده لزوجته وهو يصيح :

— هاتى لهم خيال المآة عشان يشوفوا بعينهم .

ف قالت سميرة بصوت فيه عناد ، وقطع ، وهى ترفع
الأطباق الفارغة :

— قوم هاته انت . أنا مقدرش أمسكه .

تكهرب الجو لوهلة قصيرة . . ثم جلجلت ضحكته
العارية عن الصدق وقام بجذ وجاء بشماعة من نوع
الحامل من غرفة النوم وحطها أمامنا . كانت على الشماعة
جاكete رخيصة وبنطلون وقميص سبور ، وعلى قاعدتها
ملابس داخلية وحذاء وجورب متسخ .

نبش الملابس بأصابع متصلبة ، وهو يهتف كأنه
دلال :

– خيال المآة ٠٠

والحق أن منظرها ، وصفتها التي أطلق عليها لم تكن تسوغ ما يحاول اصطناعه من مرح ٠٠ لا تنطوى على أى بهجة ٠٠

أخذ يحكى بصوت مرتفع ، وحماس ٠٠ ما سماه بالحادثة ٠٠ ويملاً كأسه ويشرب ٠٠ وفى عينيه لمعة جذل وظل جهامة وبعض أنفة أطلق سراحها الشراب ٠٠ يحكى وكأنه يخوض التجربة من جديد ، بكل احساسه . جاهدا مع ذلك أن يضبط نفسه •

فى ذلك اليوم قبل زيادتنا له بأسبوع كان مستعدا للسفر الى بلدته ، وكانت سميرة تجهز حقائبه ٠٠ ولكنه لاحظ على حد قوله اضطرابها ٠٠

– خايفه تباتى لوحذك ؟

– أبدا • دى الحنة زايطة والدنيا صيف ٠٠

خرج يرتب بعض أموره ، وعاد للبيت فى المساء ليأخذ حقائبه ويودع زوجته ، ولكنه لم يستطيع أن يصرف ذهنه عما بها من قلق •

– ايه • مالك ؟

— أبدا • مفيش أى حاجة •

« الستات عندها حاسة سادسة » ••

وضحك لنا وهو يقول ذلك •• وقرر أن ينتظر

ولا يسافر ••

ويا لذلك الأرق الذى أصاب زوجته ليلتها • ما أن

تغفو لحظة حتى تهب جالسة على السرير ، فتراه قد نهض

بدوره حائرا ، فتقول :

— الدنيا حر ••

— أفتح لك باب الأودة ؟

— لا لا لا كفاية الشباك ليعمل تيار ••

دارت عقارب الساعة حول منتصف الليل •• وقام

فهيم ليتأكد من مزلاج الباب •• ثم عاد وأغفى بعض

الوقت ، ولكن قلق سميرة أم يتح لحواسه أن تغفو ••

هب من نومه فجأة وأنصت •• وجدها جالسة الى جواره

ترتعد ، وأنفاسها تتلاحق • ثم قالت بصوت متهافت :

— اسمع يا فهيم •• أنا خايفة قوى •• المفتاح

ضاع منى النهاردة •

— آه ! ••

— مرضيتش اقول لك عشان ماتخافش على وتأخر

مفرك ٠٠

– ضاع ازاي ؟

– وأنا في السوق ٠٠

– طيب متتحركيش ٠٠

تسلل من سريره والمسدس في يده ٠٠ وعند
الباب تحقق أن ما سمعه حركة مفتاح لحوجة ٠٠ فرفع
المزلاج بهدوء . وفتح الباب فجأة ٠٠ فطالعه من ورائه
عينان واسعتان مذعورتان ٠٠

جذب اللص الى الداخل بقوة وأغلق الباب وأدار
زر النور ، وهتف به وهو في شدة الانفعال :

– اقلع ٠٠

وبينما كان يسترد جأشه ، كان اللص يرتعد وقد
استبد به الاضطراب ٠٠

أعاد عليه بلهجة أهدأ وأكثر صرامة :

– اقلع ٠٠

ولما استرد اللص بعض جأشه ، وأفاق من الصدمة
٠٠ انهارت أعصابه وأخذ يتوسل اليه بصوت ممزق :
– أنا في عرضك ٠٠ أنا غلطت .

وتدخلت سميرة تصيح ويدها على فمها ، وهى واقفة على باب غرفة النوم :

– الناس الى تحتنا الى مسافرين •

– انا غلطت فى الشقة •• سيبنى الله لا يسيئك •

– اقلع ! (ولوح له فهيم بالمسدس) انت مقتحم

بيت بالليل أقدر أقتلك •• لكن مش حازيك •• اقلع
هدومك وروح ••

تردد الفتى •• وتطلع حواليه غير فاهم أولا ، ثم حار ، ثم مستغيثا • صاحت سميرة ، وهى مستندة للحائط :

– اقلع الجاكته ••

فانصاع اللص ، وخلع الجاكته • ولكن فهيم بادره
بقوله :

– كل هدومك •• اسمع الكلام •

– تسائل المص :

– القميص ؟

– كله •• متضيعش وقت ••

فخلع القميص ، ثم الفانلة •• وصوت فهيم الصارم يلاحقه :

— كله !

فلما شرع يخلع البنطلون شهقت سميرة ، وقد غلبتها فظاظة الموقف وهرولت فارتمت على السرير وسحبت اللحاف على جسمها . .

ووقف اللص عاريا تماما في الصلاة . وكان فهميم قد هدا هدوء من حسم أمره . . فقال :
— شيل هدومك . .

فحملها الولد وقد تعلق ببارقة أمل .

— خش أودة النوم . . مع هنا .

ولما دخل ، صرخت سميرة وغطت وجهها باللحاف . . قال فهميم :

— علق هدومك على الشماعة دي .

فانصاع وهو يرتجف . . وما صدق أن تلقى اشارة فهرول الى الباب . . ولكن قبل أن يفتحه غلبه ضعفه فبكى وحط على الأرض يستعطفه وهو متعلق بساقه :

— أنفد من البواب ازاي وأنا عريان ؟! امش في الشارع ازاي ؟! الدنيا صيف والناس سهرانة . . أنا

معملتلكش حاجة .. انا ابن ناس طيبين ميتركش الى
انا فيه .. حقك على انا غلطان لك .. أبوس رجلك
.. الخ .. الخ ..

— امش ! ..

وركله فهيم بقدمه فرماه وراء الباب وأغلقه
دونه ..

★★★

ملا فهيم كاسه مع جديد ، وقال وهو يرفعه الى
شفتيه :

— انا قلت احسن حاجة اعمل خيال مائة عشان
اطفش الأخرية •

يصيح جذلان ! .. والموقف كله ينطوى على لغز
يفرغه من كل فكاهة .. لم نضحك ، وان كانت الدهشة
عقدت لساننا بعض الوقت .. لم نكن نعرف عن فهيم
أنه كفاء لهذا التدبير الرادع .. وان كان ذلك أهون
ما يثير العجب .. اللفز هو :

ما الذى جعل سميرة تقول ان اللص أخطأ فى الشقة
وهى تعلم أن مفتاحها هى .. هو المسروق ؟!

لماذا يحكى لنا فهيم الحكاية بتلك التلميحات القوية
.. وفيها نبرة وقحة لا تخلو من تلذذ ؟! ..

وبينما كنت ما أزال أتساءل عن مصير رجل عار
تماما فى شارع سهران .. كان الدكتور سامى يقول :
- مالکش حق يا فهيم .. انت عارف سميرة
اعصابها تعبانة ..

فيجيبه فهيم بضحكة مجنونة .. بينما كان الأستاذ
محمود ضابط البوليس السابق يفتش جيوب خيال الماتة
بفضول دربته عليه المهنة الأولى . ثم همهم وهو مطرق
بفكره :

- الله .. ده الواد ممعاهوش حتى طفاشة !
فقال سامى :

- ما معاه المفتاح ..

فهز محمود رأسه قائلا :

- يعنى كان معاه مفتاح الدولاب كمان؟ والترباس؟

مش يعمل حسابه .. غشيم صحيح !

ولكن عيناه غامتا بظل غريب .. بينما ضربه فهيم
على ظهره ثم لوح بذراعيه كمن يخطب ، وقد استبد به
الجدل :

— أهو ده اللغز اللى مايحلش غيرك .. ياناصح
.. حل بقى يا عم ! سميرة مع رأيها .. الله .. هى
فين سميرة .. يا سميرة !

قال الدكتور متجهما :

— سيبها . يمكن نامت ..

— أنا عايز أنشر صورة البدلة دى فى الصحف
واكتب تحتها .. حرس من فهم .. تيجى تصيده
يصيدك ! ها ها ها ..

مزيج من مشاعر الرثاء والتقزز .. الشفقة
والنفور .. أثارت بى دوار الفسيان ، أحسست انى
أريد الهواء الطلق أو أختنق . وبخلقى قصة . قمت
أستاذ . وكان الصديقين كانا ينتظران الإشارة . فلم
ينفع معهما ولا معنى الحاح فهم . ولا رجاء سميرة التى
أقبلت تستبقينا وقد اصفر لونها تماما وغشيها قلق
مززل ..

فى الأيام التالية سمعنا ان فهم طلق سميرة ..
وقد زرتة لاسرى عنه وأنا ممتعض وشديد الاحساس
بثقل هذا الواجب الكريه . أما هو فقد واظب على
محاولته أن يخفى انفعاله ، وحدثنى فى مواضع شتى
بنصف انتباه .. كلمة واحدة أفلتها دون قصد :

— ولا يهملك .. أنا بس كان نفسى أرنها علقه
سخنة قبل ما تهرب بيت أبوها وتطلب الطلاق ..
ولاحظ أنى لمحت ما كانت تبرق به عيناه ، فقهقه
ضاحكا ليخفى ما بنفسه من حسرة على ضياع تلك
الفرصة .. ضحكة مجلجلة وخاوية ، ثم شهق كما لو
كان يسترد أنفاسه التى ضاقت بالضحك .

★★★

الحب زمان

فى تلك الأيام الدافئة فى قلب الشتاء كانت تحمل
ابراهيم مع سنية ذات السبعة عشرة عاما موجة هائلة .
كانت اجازة نصف السنة قد اتاحت له فرصة أوسع
للقاء مع نفسه وقراءة الشعر والتعجب فى سحر الليل،
واستعادة تفاصيل ذكرياته تلك ، الحلوة الغريبة كأنه
يحكيها لروحه . وكم كانت غريبة ! فانه لو حكاها
لغيره ما أقام له وزنا . فذكرياته تدور حول كراس
محاضرات أمسكت به أيديهما الأربعة ، فلم تستقر عليه
ثانية ، من فرط قلقها بالشوق ونكوصها . . وتدور
حول لحظة صمت طالت فاستقر لها معنى عميق ، أو

قصيدة حب طالماها الأستاذ من كتاب في يده . . والطلبة
مشغولون يتتبعون فيها مظان الامتحان . .
— الحمقى ! —

أما هما فقد تلقياها كرسالة شاعر اليهما .
والعين في العين . .

وهكذا كانت ذكرياته . .

ولم يكن ينهك قلبه أى تلفف حاد أو استشاطه . .

كان كالساكن في سحابة خضراء محلقة . .

وفي ذلك اليوم من أجازة نصف السنة كانت قد
انقضت أربعة أيام لم يرها .

ولكن الصباح المشرق الدافئ وحده هو ما أغراه
بالذهاب الى هناك . . وربما أغرته نزوة طارئة ،
ولكنها صافية .

وعلى سلم بيت الطالبات التقى وجها لوجه بالأستاذة
نعمات مدرسة اللغة اللاتينية ، فابتسمت في وجهه —
أولا :

— ازيك ؟ بتذاكر كويس ؟ عايز حد ؟

— صفية . .

وكانها التفتت لخطر ما .. وان لم تحرك انملة.
هادت تسأله بنبرة متحفظة :

— عايز منها كراس والا حاجة ؟

— أبدا ..

وقد كادت نظراتها أن تجهز على شهيته تماما .
وجمودها ..

ولكنها سرعان ما زفرت .. نعم . زفرت وأولته
ظهرها وأسرعت نحو باب غرفة مديرة البيت بقوامها
النحيف النشيط . وأشارت له بحركة خاطفة فتبعها .
وجلست الى المكتب وأشارت له فجلس .. ثم زفرت
ثانية !! .

— أنا مش عارفه ايه الى حط فى عقلهم انى أنفع
فى الشغلة دى .. أنا منتدبة أسبوع واحد علشان
الست المديرة فى إجازة .. لكن مش عارفة أعمل ايه
.. الأصول أعمل ايه ؟ قول لى يا ابراهيم لو انت محلى
تعمل ايه ؟ الحكاية دى مضبوطة ؟ لكن أنا ح أسالك
انت ؟

ودقت الجرس وهى لا تزال تتكلم :

– ومع ذلك يمكن أكون أنا دقة قديمة • نادى صفية
يا تفيدة •• خليها تيجى هنا •• انت بتذاكر كويس ؟
أنا عارفة اللاتينى صعب •• عايز تركيز •• اذا قدرت
تركز عقلك ••

ولكن عقل ابراهيم خرج من الغرفة فى تلك
اللحظة ، منتبها ينصت عند أول درجات السلم ••
خطواتها رشيقة خفيفة حبيبة ! فى الدور الأول ••
الآن أبطأت تثرثر مع تفيدة ، هوذا وجهها الأسمر
العذب ، وتصافحا ••

– اقعدوا مع بعض شوية فى الجنيينة • وهاتى له
شاي والا حاجة ساقعة ، على حسابى ، أنا ماشية داوقت
وراجعة بعد ساعة •

– صفية ••

فاقتربت منها صفية جدا ، وعيناها مفتوحتان
تتطلعان اليها ، تنتظر • ولكن آبله نعمات زفرت فقط •
وخرجت نشطة ••

ولكن • صفية بادرت فتادت من أسفل السلم ••
– ألفت • عليه • تعالوا اقعدوا معنا فى الجنيينة •
وعندئذ توقفت آبله نعمات عند الباب والتفت
لصفية • ونظرت كل منهما فى وجه الأخرى ، بارتياح •

وجلسوا جميعا جنب حوض الزهور فى الشمس
الساطعة .. قال ابراهيم ، وهو لا يزال يغالب ارتباكها
قد تراكم على روحه :

— ما سافرتيش ليه ؟

— عشان أروح رحلة لبور سعيد .. لكى كتبت
لبابا جواب قلت له فيه المذاكرة مقطعة بعضها ..
وضحك ثلاثهن ، وقالت عليه :

— أما من جهة المذاكرة .. معندكش فكرة .
وصاحت ألقت :

— بنات اليومين دول ! ح تعمل ايه ؟
وبادرتها صفية :

— امشى ..

وانطلقن يضحكن طويلا ، كأن قوة سحرية تدغدغ
اجسادهن .. وعادت صفية تقول لألفت :
— طيب وانت ماسافرتيش ليه ؟

— وأنا أقدر على بعاذك يا نور عينى ! .

وغمرت بعينيها فى شقاوة .. فقالت عليه :

— ولما انتى مش قادرة على بعادها بتروحي سينما
مترو لوحدك ليه ؟

واحس ابراهيم انه يؤخذ به فى لعبة عابثة ، وانه
أحيط فى شباك من التلميحات تقصده هو وحده وغاصر
فى ملابسه محرجا حائرا ، ولكن الفت لم تدعه لحظة
أخرى الا وقد سددت له نظرة عابثة وهى تقول له :

— وانت يعنى مصدق أنها ما سافرتش عشان
الرحلة ؟ طيب والنبي ما هى رايحة بور سعيد .
ح تشوف .

وتعت الشمس الساطعة احس كان ضحكات الفت
وعلية الحادة تتقاذفه وصفية فى الهواء . والحر يجرى
فى العروق مع الدماء . . وحتى النسمات ، والكلمات
التي تسره فى أعماق القلب لم تعد تقوى على أن تقيهما
السقوط . .

واحساس السقوط أيضا بدأ يلهب خياله بسخونة
لذيذة . . فهما معا يسقطان فى شباك البنتين فى لعبتهما
الخبیثة . . هما معا . .

ومع ذلك فقد كان سروره وارتبাকে يفيضان من
نفس النبع ، يتدفقان . . ولم يكن يدرى أين ينبئ أن
يضع يديه أو أين يتجه بنظراته ، أو ماذا يصح أن
يقول . . لقد غلب على أمره تماما واكتفى فى النهاية

ان يظل ساكتا ، وهما تحومان حوله تتكلمان ولا
تقولان ..

ومرت فترة طويلة قبل أن تقوم الفت لترد على
التليفون ثم تنظر من البلكونة تنادى عليه وتلح عليها
فى الصعود .. وصفية تقول لها :

— لا . أوعى تمشى . بتضحك عليكى .

والفت تصيح بصوت أعلى :

— ما تيجى بقى خلى عندك دم . بلاش تلامه ..

فقامت عليه ، خجلة تتضاحك ، وجرت خفيفة الى
البيت .. وقالت صفية :

— ح يتفرجوا علينا من فوق .

— تعالى نخرج ..

— لأخلىنا .. بس تعال الناحية دى من الشمس .

وزحزحت كرسيها مترا الى الوراء ، لتحتفى بظل

السور .. وتبعها بكرسيه ولكنه ظل تحت الشمس .

وسقطت بينهما صمت طويل .. وهو ناظر طول

الوقت للارض وبينهما ظل السور ، خط مستقيم تتمايل

بين ناحيتيه أعشاب الأرض ..

وبينهما كذلك هذا الهواء السخن يصلهما

ويفصلهما • وفى الهواء شبح من ظل السور ، موجود •
غير موجود ، يرسم خطا على كفه لو مد زراعته ولكنه
لا يستطيع أن يقبض عليه فى كفه •

وبينهما شئ سحرى آخر كالرائحة فى الهواء ،
كالمزاج فى النفس ، كطنين السكون • شئ ليس من
الوجود ، ولكنهما يدرفان أنه هناك ويدوران حوله
بلا كلل ولا سأم ، وتكاد أيديهما فوق كراسة المحاضرات
أن تمسه برفق •• ولكن أن لها أن تدركه ، فهو كهذا
الهواء الخواء ، كهذا الظل الذى يرسم خطا على كفك لو
مددت ذراعك ، ولكف هيهات أن تلمسه !

وحول هذا الشئ السحرى كانا يتكلمان • فى
خفوت كأنهما يخشيان أن يخذشاه ، وفى حذر كما لو
كان فى أيدهما قطعة من غزل البنات ، تذيبها لمسات
أيدهما ••

قالت :

— أنت عرفت انى ما سافرتش ؟ أنا ما قلتلكش ؟

— أتهيا لى أنك يمكن ما تسافريش •

— فيلم ايه فى سينما مترو ؟

— أنت ح تروحى رحلة بور سعيد صحيح ؟

- مش عارفة .. يمكن •
- فيه رحلة للبحر الأحمر على مركب ، حاتقوم بها كلية العلوم ..
- فيه ايه البحر الأحمر ؟
- مش عارف •
- لا • قولى • وحياتك •
- .. بيقولوا بعيد عن الشط صخور حمراء ومرجان ، وحيزوروا المناير ..
- هي فين ؟
- كل منارة مبنية على صخرة فى قلب البحر ومركب تروح لهم بالأكل كل ثلاث شهور •
- قاعدين لوحدهم ؟!
- كل ثلاث شهور يغيروهم •
- يا حرام !
- يمكن هم مبسوطين أن مافيش حد حوالِيهم •
- البنت ألفت بتبص علينا من فوق •
- خليههم يبصوا •
- ح يكسفونى •

— صفية ..

— الدنيا حر ..

— صفية ..

ومس يدها برفق ، ولكنه أحس بقوة دافعة جعلته يقبض يدها فى كفه وعندئذ انهار شيء عظيم الحجم فى نفسه ولكنه شيء كان يثقله . والآن يتخفف منه . حتى ليطفو .. يعلوا .. كأنه . يسيطر أما عينها فقد غامت . وبان فيهما جزع خفيف . وجذبت يدها .. لحظة واحدة .. ولكنه أمسك بها فلم تفلت وأحس كفها الساخن يطرق حتى يسترخى فى كفه . ثم يمتلىء بحرارة ما فيقبض على كفه بدوره فيكاد قلبه أن ينخلع من فرط اقباله عليها وهو ساكن حيث هو .

— صفية .. أنا بحبك ..

ورأى دموعها .. كالندى المعلق فى عينها أول الأمر ، ثم انهمرت بقوة ، ويدها تمصر يده .. ودموعها تجري لا تتوقف . ثم يهمس لها نشيج خافت جدا ينطوى على ألم معذب .. ورجاء للانطلاق من الأسر . ويدها الثانية تبحث عن منديل ، وتغطى به عينها .

أما الفتاة فقد توقفت تماما عن العبث والضحك
وأخذت تنظر اليهما من خلف الشباك . . كالمزهوة
كانها ترى لأول مرة شيئا لم تكن تعرفه أبدا .

وقد سكتت عليه فترة طويلة أيضا . ثم انسحبت
الى سريرها فرقدت هناك لا تنبس .

وفى تلك اللحظة وصلت الأستاذة نعمات من
الخارج ، وثار حول أقدامها لغط وهرج ، كماداتها حين
تصل البيت . . ومرت بغرفة البنات . فما ان رأت
ألفت واقفة تطل من الشباك حتى فتحتة وأطلت منه بكل
رأسها . ثم ارتدت بسرعة وأغلقتة بعنف وجلست بين
البنتين . . تائهة تماما . .

— ايه الحكاية يا بنات ! .

— كنا بنشتم هوا يا أبله .

— أنا مش عارفه أعمل ايه . . أنا ح أمنع
الزيارات خلاص . . مفيش زيارات . دقة قديمة .
دقة قديمة كلها يومين وترجع لكم مديرتكم . أنا كان
مالى . خلاص .

وهرولت نازلة الى مكتب المديرية . ولم تستطع أن
تحول بصرها وهى داخله المكتب . . فالشباك المواجه

كان يطل أيضا على الحديقة : وهمت بإغلاقه ولكنها
تراجعت فجلست على الفوتيل المواجه له .
- أما أشوف ايه اللي ح يجرى ..

وكانت صفية متهافتة تماما ، أنفاسها لا تزال
تتلاحق ، ونظراتها قد ارتمت على الأرض .
- أنت عملت لى ايه ؟

- ولا حاجة .

- لا انت قلت لى حاجة

- قلت لك ايه ؟

وود لو يسمعها من قمها ..

- مش عارفة .. مش عارفة ..

وفى نبراتهما رنين ويأس ، كأنها تتخبط فى شبك
مجهولة ، ولا فكاك . ودموعها لاتزال تنساب على
خديها . على أعشاب الأرض .. والشمس قد زحفت
تماما فغمرت صفحة وجهها الأسمر الذى شرب من
سنخونتها ..

- ابراهيم . روح دلوقت . أنا تعبانة .

— أشوفك بكرة ؟

— مش عارفه .. مش عارفه ..

وظل ممسكا بيدها حتى باب الحديقة •

وعندما دخلت صفية البهو قاصدة السلم تمسح
دموعها وتتنفس بقوة ، نادتها الأستاذة نعمات ،
فارتجفت أو صالها تماما .. لم تقو أن تمشي اليها ،
وأحست أن ركبتها قد قصمتا • وأنها ستسقط راکعة
لأمرها ..

ولكن ذراع الأستاذة نعمات التف حولها فأقامها ،
وضمنتها الأستاذة بقوة ، بينما رق صوتها وهى تسر
اليها بصوت خافت :

— انت مش صغيرة يا حبيبتي • انت تعرفي
صالحك • لكن بلاش تتقابلوا فى البيت • ابقوا اتقابلوا
بره يا حبيبتي •

فعدت دموع صفية تنهمر • وجرت على السلم ،
لم تلتفت حتى دخلت غرفتها وأغلقت الباب واستندت
اليه • وفى تلك اللحظة عاودها خوف فجائى ، كأنها
دخلت مصيدة ، وتطلعت الى زميلتيها مشفقة منهما •

وكان ابراهيم فى الشارع المريض النظيف جدلا
نشيط الاقبال على الدنيا .. والشمس والنسمات
والأشجار وما فى قلبه .. كلها كانت تشيل عنه الذى
بقى مما يثقله ، وتملأ نفسه بحبور واسع يكاد أن يكون
عصبيا .

وصدره قد تخفف نهائيا من آخر الأعباء .. لم
يعد فى صدره غير قلب طرى خفيف وثرى ، يملك
القفص الذى يكمن فيه . ويذيع منه دقات كأنها شفرة
سحرية قديمة جديدة .

مغامرة أخطر سما كان يتصور

فتح عينيه والنعاس مازال له أثر المخدر في دماغه
ونظر أمامه مباشرة ورأى وجهها الصبوح ، فشعر
بارتياح يغمره ٠٠

أخذ يتبين مواقع المعالم حوله ٠٠ الواحد بعد
الآخر ، شأن المستيفق من نوم ثقيل ، انه مسافر في
قطار المساء ، الساعة التاسعة ، لابد أن القطار يقطع
آخر مراحل الطريق ٠

كان بالديوان عدة أشخاص ساعة قيام القطار، ولم
تكن فيه هذه الجميلة ٠

الآن لا أحد الا هي ، وهو - ولكن من أين له
الجرأة ؟! - في ديوان مضى يشق الطريق في بحر من
الظلام ..

اختلس نظرة أخرى من الوجه الحسن ، فلاحظ
أنها ترنو اليه بهدوء ، فانتشى لذلك واضطرب في
نفس الوقت ، هذا نوع خاص من النساء يتميز
بالصراحة والثقة .

ولم يكن هو بالرجل الذي يتوثب للمغامرات ،
لقد نأش بلا خبرة ولا جرأة .. الى أن أصبح زوجا
وأبا لخمس أطفال ، ان يكن تعلم شيئا في حياته فلا
غير الحذر والتحوط والتوجس والتأني الشديد ..

ولكن سحقا للمحذر .. ففي قلبه نشوة أيقظها
النعاس . أو لعلها استغاثت أخيرة لرجل عائد بعد غيبة
أيام الى البيت والنكد والنقار والهموم والزياط ، الى
الطاجونة التي هو ثورها ..

دقق النظر من زجاج الشباك ، ولكنه لم يتبين غير
أستار السواد العميق ، لا شيء في الخارج .. فاشاح
بوجهه مضطربا ، وعاد يتلمس بعينيهِ أرجاء الديوان
المفرب ، ويؤنس نفسه بتأمل ما يعرف مواضعه جيدا ..

الصدور ، المصباح ، الرف • الباب المفضى للممر ،
والفراشة الحائرة أبدا حول النور فى دواوين قطار
الليل ..

وعيناها لا تزالان ترمقانه فى ثبات وهدوء :

طرق على زجاج النافذة ! التفت بحركة آلية قبل
أن يتبين استحالة الطرق على نافذة قطار يتحرك • فلما
تبين ذلك بعد وهلة تفرس فى الشباك منزعجا ، ثم خطر
له أن يقول :

— يضايقك لو فتحت الشباك ؟

فتبسمت ، وأجابت بسرعة ، بلا تردد ، بنبرة
ثابتة :

— بالعكس ، أنا أحب الهوا ..

فتح عينيه دهشة ، فلم يكن يتوقع هذه الاجابة •
وتولاه خرف شديد تحت سطوة نظرتها الصريحة الثابتة
الواثقة ، حاول أول الأمر ، فلما فتح سقط فى مجراه
سقطة مدوية انتفض لها ..

ولكنها هى .. لم يعترف لها جفن •

أحب الهوا .. أم أحب الهوى ؟

تحسس جيبه بحركة آلية – به مائتان وسبعون
قرشا – ورمق ساعته وقعد ، هذا نوع من النساء يخيف
ويثير الخيال ..

آه ! حياته شقاء فى شقاء .. ماذا عليه لو ..

ما قيمة أن يقول لنفسه : أحب هذا النوع من
النساء ، فلم يحدث له أبدا فى حياته أن تذوق ليقول ،
أو مامعنى أن يقول أخاف هذا النوع من النساء ..
ولم يحدث له أبدا فى حياته ان لحقه أذى ليقول .

وفى قلبه عضلة تنكمش وعضلة تنطلق ، وكما
يدور الدم فى عروقه فرأسه يدور .. ولم يعد يعرف
ان كان من التطلع أم من الخوف فكر أن يقول :

– ناس كثير بتخاف من تيارات الهوا ..

زوجته .. هى التى ترتعد من سيرة تيار الهواء ،
تحكم عليه فى بيته أن يظل حبيس الشبايبك المغلقة .
– بالعكس ، أنا أحب الهوا الطلق ..

من عنف الدوامة التى تدور برأسه التبس عليه
الأمر .. ولم يعد يعرف ان كان يتكلم أم يفكر

فحسب .. ان كانت هي تجيب على عبارات ينطقها
بفمه ، أم انها تجيبه على خواطر برأسه ..

وعيناها الصريحتان الهادئتان ، ونبراتها الثابتة ،
واجابتها الواثقة المشجعة على الاستبسال دفعت الدم في
عروقه ..

ترى ما رأى زوجته في سيدة تجاوره بهذه البساطة
والطلاقة في قطار الليل ..

مومس ! .. نشالة خطيرة ! .. ريا أخت سكينه ؟
فسعل سعلة الشارق بالماء لمجرد التوهم ..

— خدت برد ..

— بابا من أقل شوية هوا يبرد مسكين منتظر دلوقة
في المحطة هو يستنى القطر قبل وصوله بساعة ..

وتبسمت .. يالشعرها المرسل على كتفها في غير
كلفة .. ووجهها الصبوح ..

سكن الديوان الا من دقة العجلات وحفيف الهواء
البارد المتدفق مع الشباك ، ودوامة رأسه ..

سينالها بنفس الثمن الذى ينالها به سائر الرجال ..

ماذا عليه لو كانت مومس ! ؟ أو نشالة ! ؟

سترتمى فى حضنه منكسرة الجفنين لاهثة
الأنفاس .. سخنة طرية حلوة بينما تلتقط أصابعها
محفظته التى ليس بها سوى مائتين وستين قرشا يستطيع
أن يخبئهم قبل مطارحتها الغرام فى جوريه .. وان
ضاعوا فعليهم اللعنة ! ..

ما عليه !؟ يا لنعومة كفها .. قال بصوت ذائب :

— مسافرة فسحة ؟

— رايحه أزور حماتى . اف ..

حماتها ! نظر اليها بدهشة ، ففهمت تساؤله على
الفور وأجابته بسؤال لبق :

— وانت كمان متجوز ؟

فاجاه السؤال تماما ، فنظر حواليه كمن يبحث عن
مخرج ، لماذا تسألنى ؟ سؤال جرىء نعم ، إلا انه جرىء
جيدا ، مغامرة أخطر مما كان يتصور ! قال بنبرة
متخاذلة :

— وعندى خمسة عيال ..

ثم استراح كأنه احتفى منها بعياله الخمسة •
— كثير ••

وتفرست فيه ثم عادت تقول :

— ده البيت يبقى زيطة قوى •
— ربنا يدك ••

فضحكت :

— أهو حماتى كل ما أزورها تقوللى هاتى لنا
العوض ، أنا مش متلهفة قوى على الأولاد •• لو عندى
واحد أو اثنين كنت بقيت سعيدة خالص ••

خمسة ! خمسة والسادس فى الطريق •• البيت
أصبح مدرسة ابتدائية أو سيرك ، وأنا فى أول الشباب
وعلى قد حالى ، ماذا أصنع ؟؟ ••

— انت سعيدة فى بيت بلا أطفال ؟
— اف ! أبدا ••

— ولا أنا ••

— نبقى فى الهوا سوا •

وضحكت ..

لا ، هذا كثير ، ربما كانت .. ولكنه كره أن يسلم
بافتراض خيالي مفزع ..

— ايه اللى يخليك تسافرى بالليل ..

فضيقت ما بين حاجبيها ..

— القطر يبقى أهدا ..

محترفة .. محترفة .. ما من امرأة تفضل القطار
الهادئ .. خصوصا فى الليل .. الا اذا ..

سأفترض يا حلوة مع ذلك انى أعزب ، فتى مغامر
.. أى صورة كنت أتخيلها لصديقة خير منك ؟ ..
آه ! ..

— أيام ! ..

— أيام ! ..

رددتها كرجع الصدى ، فخفق قلبه بشدة ، أكانت
خواطرها تسبح حيث تسبح خواطره .. تحرك فيه
الحذر والتعوط من جديد وقال غير مصدق :
— أيام ايه ؟ ..

— أيام ما كانت الوحدة حرة نفسها ، بإيدها تختار
.. ورمته بنظرة أصابته بفرع حقيقى فتلفت حواليه ،
كيف يمكن أن تقرأ أفكاره بهذه السهولة ، بهذه الدقة ،
بهذه السجية .. الا غانية فاتكة أو امرأة خطيرة من أى
صنف ..

عاد يتحسس أشياءه بتحوط أكثر وقد انعقد لسانه
تماماً . والقطار يبطل التفت للشباك ، يا للحظ الحسن
.. وصلنا . تنفس بارتياح ولكن قلبه أخذ يخفق بشدة
لتكن أى شيء ، موسم أو نشالة أو صمائدة رجال ..
ما يخيفه ؟ ماذا يمكن أن يأخذ الريح من البلاط ؟ !

ومع ذلك فقد استولى عليه شلل تام .. أعجزه حتى
عن مواصلة التفكير .. لحظات ثم نهضت ، نشطة حية ،
ما أحلاها رغم كل شيء . وتناولت حقيبتها ، ورمته
بنظرة أخيرة ، قال :

— فرصة سعيدة ..

فأطرقت وعلى وجهها سحابة وقالت بنبرة مريرة
مخيبة :

— متشكرة ..

وما ان اختفت فى الممر حتى قفز نشطا مضطربا ،
التقط حقيبته وهرول الى الرصيف ، وأحس حين غادر
القطار بأمان شديد وتطلع حواليه .. ويا لدهشته :

أبوها هو كما تصوره شديد الشبه بها ، رجل مهيب
وقور . يبدو رقيقا مهذبا ، أحس بنصل خنجر يخرق
قلبه .. مومس ! نشالة خطيرة ! ما أحملك ! بنت صريعة
جريئة هى زينة البنات ، بنت رجل مهيب .. ولـكنك
رعديد . ما أحلى مشيتها وشعرها المرسل على كتفها
بلا كلفة ..

ثم تجاذبته يدا زوجته من جانبيه معا ، ونظر فى
وجهها المرهق المترهل وشعرها المهمل وعينيها الغائمتين .

— حمد الله على السلامة ، ازاي صحتك ؟ ..

— زى الزفت .

ولكنه أخذ يحايل قلبه الذى يدق دقة السخط ؟ ..

— يعنى كنت حاعمل بيها ايه ، خلاص ما عادش

لينا فى الطيب نصيب ..

الجن الأزرق

وقف يعقوب باك ينفخ فى ضيق هناك فى نهاية الممر الساعة الثامنة الا خمس دقائق وما من موظف وصل الى مكتبه بعد ٠٠ كيف يصنع بهم ؟ لم يعد التقطيب بنافع ، ولا الزجر نافع . ولا حتى التهديد بالفصل .

واليوم بالذات . لقد نبه عليهم أمس بأن المدير العام نفسه ، والوكلاء ، والوكلاء المساعدين ، وكبير المفتشين . . سيهبطون عليهم للتفتيش . نبهه عليهم بنفسه ، واستيقظ هو من عز النوم ، ليكون فى مكتبه قبل الساعة الثامنة ، لم يفطر ، لم يشرب قهوته .

ليس فى أوراقه دالة واحدة على التقصير . وهو دقيق ، لا يفلت تأشيرة خاطئة . . وكل رؤسائه يعرفون .

ولكن أن يصبح مسئولا عن تقصير غيره .. عن هذه
البهايم التى لا تحس ولا تختشى ولا تخاف أيضا ..
ماذا جرى له ..

انه خائف كطفل ، يده نفسها ترتعش . لم كل
هذا ؟ هل سيفصلوننى يعنى ؟ سيخصمون من مرتبى
يعنى ؟ هل سيشنقوننى حتى ..

فى داهية هذه الوظيفة . أنا أشتغل كالحمار منذ
عشرين عاما . زملائى قضاة محاكم . لم أكسب منها
شيئا غير ضغط الدم والتهاب الكلى وخمسة أولاد
وبنات لا تشبع رغباتهم ، وكأنى أقطع لهم من تل .
وهذه البنت الشقية ، أصبحت تلبس الجابونيز وتمرح
فى الحدائق .. قال رحلة قال . كيف تسمح وزارة
التربية ؟ ولكن الحق على أمها .. أبوه يا حبيبتى ،
حاضر يا حبيبتى .. حبك تعبان ..

الناس كلها تتزوج فمالى أنا أطفح الدم وأسمع
زعيقها وصراخها من أول الفجر ، وفى الظهر وأنا هامد
الجسم مفلوق الدماغ . وكل يوم عزائم وكأننا فى
فرح متواصل ، فرح وأنا رجلى فى القبر ولكنها امتصت
لحمى وعظمى ونكشت دمي ومالى هذه المفترسة ..
وتتصايبى .

أه لو جاء من يمنحنى قهوتى ، راسى ساخن وتاكل
مخى الديدان .. ولمح عثمان مقبلا من بعيد ، الساعة
الثامنة وعشر دقائق ..

— .. روح .. روح .. مش عايزينك خلاص ..
روح !

— ايه الحكاية يا سعادة البيه ..

— جاي ثمانية ورابع ، وعاييز تشتغل .. روح اشتغل
فى طابونة هناك .. مش فى الحكومة ..
— طيب .. زى ما يعجبك ..

وراح عثمان ..

ولكن كيف يفعل يعقوب بك فى المشكلة الجديدة
لقد هبد عليه قلبه وكأنما أصابته لومة ذعر .. فمن
المستحيل عليه أن يفصل موظفا .. هكذا بدون تحقيق
وسين وجيم ..

واستدار كالمخبول فخبط الباب رأسه ، وصاح
بأعلى صوته :

— يا محسن أفندى ، نادى الراجل الحمار ده !

وذهب محسن أفندى يتحايل على عثمان وعثمان قد
قرر نهائيا أن يشوف هايعملوا له ايه . .

— قال روح قال . . أنى بشتغل عند أبوكى . .
ومن هنا لهنالك قبل عثمان أن يرضى بالمفاوضة
السلمية ورجع .

— أيوه يا سعادة البيه .

وانتفضر سعادة البيه كمن اصطقق عليه باب
زنزانة . كيف السبيل الى أن يتراجع اذن . احتشد
احتشادا ليقول :

— روح خد خلو طرف من ميشيل أفندى ، وسلم
عهدتك حالا .

• لو رجاء ، فقط ، لو توسل اليه . . بكلمتين .
ولكنه واقف كالصنم ، وجهه مربد ، والشرر فى عينيه .
— مش عايز خلو طرف . . هات لى النيابة .

ومشى . . ياله من لثيم . سيمشى ، سيوقعه فى
مصيبة ، هذا المتعجر الدماغ واليوم بالذات ، يوم
التفتيش . .

— . . ولد .

.. انى مش ولد • انى راجل • •

واستدار اليه • هو ذا الآن • يجب أن يفض
المسألة • سيخرب بيته فيما بعد • ولكن الآن ، لابد من
حل ، وهذا الصنم كيف السبيل الى أن يفهم أنه أكل
عيش ، ان المسألة لا استهتار فيها ، انها حياة أو موت ،
وخبز ، يجب أن ترتعد فرائصه أمام التهديد بقطعه
عنه ولكن كيف يفهم • • كيف تفكر هذه المخلوقات
يا عالم ..

.. انت معندكش عيال • • انت ؟

.. انتى عارفه •

.. مش خايف على عيالك ؟

.. انتى تهافى • • انى مهافش م الجن الأزرج • •

.. امشى • • امشى روح هات لى القهوة •

.. بالذوق • • من عينيا • لكن بالشهط لا • •

واستدار ، وذهب • ودقات قلب يعقوب بك عنيفة

كالطبل ، وفى يده قلم الحكومة الكويتيا ضبط نفسه
يحاول أن يكسره فاهتزت يداه ورماء •

جاء الموظفون وهو يسمع بأذنيه ويحس بكل كيانه
تروس الآلة الضخمة التي تعمل على مكاتب ، وتنجز في
المدى الطويل ذيلا صغيرا هاما من العمل الذي تضطلع به
الحكومة .

• • كل شيء على أحسن ما يكون وهو يراقب قلق
الموظفين وخوفهم من حملة التفتيش ، فيطمئن قليلا
لهذا الخوف . ولكن شيئا ما يزال يملكه ، ويقبض عليه ،
شيء في أعماق أعماق نفسه ، شيء غريب ونافذ يأخذه
بالخوف ويمر في رتابة واصرار أطراف أعصابه ،
الأطراف الأشد حساسية : ويؤلمه ويوجع قلبه ويقنع
وجهه بتقطيب ثقيل كمن يعاني من المفصل .

شيء يأخذ على المسالك ، كما تأخذ العساكر باللص
الهارب • شيء لا يفهمه ذلك « المدقع الجاهل » عثمان
الذي لا يخاف الجن الأزرج • •

زهرة

يقولون ان الزهر ينبت فى الوحل .. ان أعظم
شئ فى الحياة هو قلب الأم .. ان الحياة فى تطور
متصل .

يقولون ان الجو الصحو يرقق المشاعر .. ان
ارادة الانسان من قوى الطبيعة الخارقة .. ان الغد
أجمل من اليوم ..

يقولون ان الرجل العصامى هو الذى يصنع نفسه
بنفسه .. ان رزق العيال تحت أرجلهم ..

كلمات ، كلمات .. كاعلانات النيون القائمة على
واجهات الدكاكين .. تومض وتخبو .. حمراء ،
زرقاء ، خضراء ، صفراء .. تصنع الأضواء والظلال

الملونة تلويّنا جزافيا ، والتي يسبح فيها الناس غادين راثحين على الأرصفة .. من بيوتهم لأعمالهم ، ومن ملاهيهم لبيوتهم •

هى المحيط .. ونحن أسماك هذا المحيط .. ولا مفر لأسماك المحيط من أن تأكل المحيط ، وتشرب المحيط ، وتنفعل بالمحيط ..

ومع ذلك فإن « عبد التواب » قد روض نفسه من زمان على أن يتجنب الانفعال ، ويوفر على قلبه الشيخ مغبة الغضب .. ادخارا لنبضاته التى يجهدا كل يوم صاعدا سلم الخدم حتى قمته ، نازلا يمر بكل باب فيقلب ما فى الصفيحة فى قفته .. ثم يلثم ما تناثر أو سقط بالصدفة من الصفيحة أو من القفة على الأرض .. ثم ينتع القفة ويتابع النزول ، فالصعود والنزول من عمارة لعمارة .. وإلى عربته الصندوق الصغيرة يجرها تارة ، ويدفعها تارة •

عشرون عاما أو تزيد .. وعبد التواب يجمع فضلات البيوت ، ويفرزها ويسلمها للمعلم .. وعنده من الرزق ما يكفيه ويحمد عليه ، لا يكاد ينبس طيلة النهار • حتى اذا صادف خادما فوق السلم ، أو اذا

صادف خادمة فى فرجة الباب ، لا يكاد يرفع الى ايهما
عينيه الا اذا قرأه أحدهما السلام ..

لم يكن بالرجل الثرثار اللكمى ، لا يكاد يبادل
أحدا الحديث سحابة نهاره الا فى ذلك اليوم المشحون
من كل شهر ، يوم القبض .

طرق أحد الأبواب . ففتحت الخادمة ..
- قولى للمست عايزين الأجرة .

فخرجت الست ، وفى رجليها ولد صغير مأكـر
العينين يمسك بكنتا يديه أطراف فستانها - بادرت
الست :

- أنا مش قلت لك ألف مرة متدلّقشى الزبالة على
الارض ! توسخ لنا هنا وعاييز أجرة كمان ؟!

- طيب ياست معلّش .. معدتش أدلق الزبالة ..
حقك على ..

- وكمان لازم تكنس هنا كل يوم ..

- على عيني .. أكنس .. متزعليش ..

راقب الولد هدوءه وقد ضيق عينيه مستطلعا ..

فلما رأى ان الدار امان ترك أمه وقفز على كتفيه
صارخا :

— انت شأيل عيال فى القفة ؟!

فجذبت أمه بشدة :

— أوعى يا سدامى توسخ هدومك .

فتكدر عبدالتواب جدا . . وأخذ يقلبها فى دماغه
ساعة ثم نسيها تماما . رمع ذلك فقد بلغ به الحنق
والغضب فجأة آخر النهار ، وهو داخل الحارة للبيت يجر
عربته الصغيرة التى صنعها من خشب صناديق للمهمها
من زمان . . بلغ به الغضب ان ملح ابنته الوحيدة زهرة
تلعب مع الصبية فى 'الترات كما تلعب كل يوم . .
وما ان لمحتة هى حتى قفزت اليه وقد تهللت أعوامها
الخمسة النظرة فى وجهه . . الا انه فاجأها بصوت
قاسى :

— متدرمفة كده ليه يا بت ؟!

فجمدت مكانها، وتفرست فيه بهدوء لتتأمل ما يكون
منه . .

– بلعب يا با ..

ثم صرخت حين وضع كفه القوي على كتفها ،
فأهاجه صراخها فدفعها أمامه .. بينما تفرقت الأطفال
من حوله خائفين .

– بتلعبى مع مين يا بت ؟!

فجرت زهرة الى أمها وانكمشت فى صدرها وهى
لا تزال تطالع أباهما بعينين واسعتين جدا ارتسم فيهما
الذعر . وقالت الأم وهى تمسح يديها وتتناهض من
جنب طشت الفسيل ..

– قول سالخير طيب ..

– البنت دى معادتشى تلعب تانى مع الصبيان ..

– صبيان ايه ؟! هى البنت طلعت من البيضة ..

– شايفه وشها مطين ازاي .. لكن حقول لمين ؟

هو انت لكى عقل تفهمى بيه ؟ أنا حاخذ البنت معايا
من بكره الصبح .. معادتشى قاعدة معاكى هنا ..

فبسملت الأم وهى مذهولة .. وعادت تنظر الى
وجه ابنتها وجلابيتها فلم تر فيهما غير المألوف والمعتاد
من وساخة العيال ، لكنها لم تنبس ، وقالت لنفسها :
« أحسن .. يزيع عن قلبى همها بالنهار . البت بقت
شقية وبتلاوعنى » ..

وفى اليوم التالى خرج عبد التواب يجبر عربته ،
وزهرة بجواره ٠٠ نظيفة نظرة رغم الرقعة الملونة فى
جلابيتها ٠٠ ضفيرتها قصيرة ، ووجهها الأسمر يشع
حلاوة وخفة دم ٠

دار عبد التواب بمربته فى الحى الراقى ٠٠ من
عمارة لعمارة ٠٠ يجلس البنت على حافة العربة ويصدر
اليها تحذيرات مشددة وينطلق الى عمله يقفته ٠٠ وما
ان يدلف فى باب العمارة حتى ترسم الدهشة على وجه
زهرة ، وتستأنف لعبة الازهول التى يقطعها عليها أبوها
كلما ظهر ٠٠ فتبدأ تعد طوابق العمارة وتقول ٠٠
ياه ! وترقب الأولاد الراضحين والغادين لا يكادون
يلعبون شيئاً ، فاذا حطت أنظار أحدهم عليها أخرجت
له لسانها ٠٠ ثم تنظر نحو باب العمارة فى خوف ٠٠
فلما تجد أن أباه قد تأخر ، تأخذ فى الفناء بصوت
خافت ٠٠ وما أن تمرق سيارة من خلفها حتى تصيح :
فووو ٠٠ وتقرقر ضاحكة ٠

ساعة بعد ساعة ، من عمارة لعمارة ، أخذ يجذب
انتباهها أكثر وأكثر ٠٠ جلسة البوايين بعمائمهم
النظيفة جوار الباب ، ووقوفهم الأنيق للداخل والخارج ،
وانحناؤهم اللطيف وهم يرفعون أيديهم بالتحية ٠٠

المرّة بعد المرّة ٠٠ حتّى أنّها صارت تثبت عينيها
على البواب ٠٠ تنتظر ٠٠ ثم يخرج خارج أو يدخل
داخل فيحدث بالضبط ما رسمته فى مخيلتها وتوقعته
وانتظرتة ٠٠ فتضحك بملء قلبها مشفوفة جدا ،
متسلية جدا ٠٠

أغرته اللعبة بقوة ، واخذت تغالب خوفها ساعة
بعد ساعة ٠٠ ففى لحظة من تلك اللحظات التى يصمد
فيها الطفل بجراة خارقة نزلت من فوق العربية وقعدت
على الرصيف فى محاذاة البواب ٠٠ وانتظرت صيدها
وقلبها يدق ٠٠ فما ان لمحت رجلا سميّا أنيقا يخطو
خارجا من الباب متلفتنا حواليه حتّى نهضت وانحنى
ورفعت يدها بالتحية ووجهها يضوى بالسُرور ، ويكاد
يغلبها الضحك -

دهش الرجل ٠٠ بل رفع حاجبيه بالفعل ٠٠ ولما
كان متعجلا ، لم يعن حتّى بالاجابة على تساؤله ٠٠ بل
دفع يده فى جيبه ، بحركة آلية وناولها قرشا أطبقت
عليه يدها غير مصدقة ، وهو ينادى :

- تاكسى ٠٠

أفاقت من ذهولها مذعورة وأبوها قابض على كتفها
بقوة ، فحملت فيه ٠٠ لكان الأرض انشقت عنه ٠٠

— ايه الى نزلك يابت ؟ هه !

— لا والنبي يابا .. ده هو الى ندهلى وادانى ده .. والنبي يابا .

وفتحت كفها فى تسليم ، فاختطف أبوها القرش
معنقا بعنف ، ورماء على الأرض .. وحملها بفلظة
فأجلسها على العربة وهى ترجف، وصاح ووجهه صارم:

— لازم تروحي المدرسة من بكره ! ان كان ديته
جنيه فى الشهر حوديكي المدرسة يابنت أمك !

وبصق على الأرض ، وهى منكمشة .. كل همها أن
تتوقى غضبه :

— حاضر يابا .. أروح ..

العدوان

قبل أسابيع كان مرزوق أفندي يحسب حساب
أجازته السنوية فيغتاظ ويهمهم :

— يعنى ماكانوش أدونا الخمستاشر يوم فى
أغسطس ؟ كان الواحد فرد رجليه على البلاج ..
فتقول زوجته :

— نسافر لأختى فى السنبلالوين ياسى مرزوق، نقعد
يومين *

— حد يسيب بلاج بور سعيد ، ويروح الأرياف !

— بلاج ايه الى فى نوفمبر ده ؟

— نوفمبر نوفمبر * خلاص احنا أخذنا أجازتنا

فى نوفمبر ٠٠ ح نقعد ع البلاج فى نوفمبر ٠
— يادى الكلام !

— نوفمبر ٠٠ نوفمبر ٠ بقى !

ولكن أمورا جرت فقلبت ذلك رأسا على عقب ٠
فقد أصبحت بور سعيد ذلك اليوم والحرب تحلق فى
سمائها ٠ وفى ذلك الصباح كانت عيون زوجته — هذه
المرّة — لتصبح أقدر على اقناعه بالسفر ٠٠ ولكن مرزوق
أخذته دوامة من العصبية والضيق ٠

وقعد فوق الكنبة ذلك الصباح ، ثانيا رجله تحته ،
لا يتحدث الا نادرا ٠٠ وينفخ ووجهه قد تحجر وصارت
زوجه تحوم حوله . وتشفق لو كلمته أن تمس مواطن
الثورة فى نفسه ٠ ومن وقت لآخر تحاول أن تجس
مداخل الحديث اليه ٠٠

— أعمل لك قهوة ياسى مرزوق ؟

— لا ٠٠

عيبا !

وبعد الظهر دوى أول الانفجارات فدفعت الكلمات
التي فى حلقها رغسا عنها :

– نسافر ياسى مرزوق • الانجليز يعملوها وينزلوا
علينا بر مصر •

فصاح :

– ينزلوا ! احنا ح نسيب لهم بيوتنا ؟
فـاقتربت منه جدا ، وقد امتلأ وجهها بعينين
واسعتين تبتهلان :

أنا مش عشانى ياسى مرزوق • عشان الولد •

– اخلصى بقى من السيرة دى !

وقام متوترا فلبس على عجل ومضى •

وكان الولد قد تنسم نذيرا موحشا فى الهواء
فأخذ يلح على أمه :

– ايه البمب ده يا ماما ؟

– ما تخافش يا بابا • ح نسافر عند خالتك •

ولكنه كان خائفا ، وقد انقلب مزاجه ، وأخذته
نوبة من النكد والشكاسة • وما كان أسهل أن يتدفق
هذا كله من قلب ذى السنوات الأربع • • دموعا وصراخا:

– عايز جزمة جديدة • • ماليش دعوة !

وحارت به امه ثور عليه مرة ، وتحتضنه مرة
تقبله وتمسح دموعه . . وهى واقفة طيلة الوقت على
رجليها ، ذاهبة آتية من انبلكونة البحرية للشـبـاك
الغربى ، لشباك المنور ترد على نداءات الجيران :

— ح تعملى ايه يا أم حسين ؟

— مش عارفين لسه والنبي يا أختى .

— الواد ابنى خش الحرس . يا ضناى .

وقلبها يستمر يردد :

— يا رب يسوقك ياسى مرزوق .

كانت المدينة كلها تبذل جهدا خارقا لتتحول الى
قلعة . فقد حفرت الخنادق فى شوارعها ، وكومت أكياس
الرمل ، ونصبت المدافع . . ومع ذلك فلم تسكن لحظة .
كانت دوريات الحرس ، والمدافع الجارية والدبابات ،
وضجيج الراديو فى كل مكان والانفجارات ، واحتشادات
الجماهير تجعل طريق مرزوق أضيق ما يكون فى المعركة
ومع ذلك فلم يكن همه الا أن يجد طريقا له وسط هذا
كله .

وقد كانت الحركة العنيفة فى قلب المدينة تثير فى
أرجائها حمى الحماس والنشاط والاقبال .. ولكن
الحماس يتسلسل الى قلب مرزوق فيلتوى ويتخشب
ماجزا عن التفتح ، وتمس سخونته الملهبة قلق مرزوق
فتزيده شوبوا ، وتجعله يرى - فى الصباح فى المساء
بان - كأنه ينحنى نحو الأرض يلاطف الصغير حسين ،
يمعلق الولد ذراعيه فى عنقه .. ولكن فجأة يلهب ظهر
الأب سوطا ما ، فينتصب ، ويصرخ الولد وهو يسقط ،
فينحنى مرزوق ليقبل ابنه . فيصعوا ، فإذا هو متنى
الظهر كمن يبحث عن ملهم فى تراب !

.. ويرى فى الغفوة أو فى الصحو فى ذات نفسه
كان قنابل شديدة الانفجار قد فتتت العمارات من حوله ،
وقذفته بالأحجار .. فيجرى بعزم مستشيط فإذا سور
فى مواجهته يسد عليه الطريق فيمد اليه ذراعيه
وقبضتيه .. يتقيه ويدفعه من الطريق . ولكن عبثا
فاستدار مضطربا وأسند اليه ظهره ، ويا عجباً ! فقد
داخله حينذاك اطمئنان عجيب ، مع أن قلبه يخفق
بشدة ووجهه يتصبب عرقا وهو يفيق .

وفى اليوم التالى تطمئن قدم مرزوق الى أرض
الوطن ويقوده الى الأماكن التى ألفها حافز شيق ..

فمن القوة ومجلس المعارف والقلق المشترك والعزم
الذى يشعده الكلام فى بطاء ٠٠ الى الحضرى والجزار ،
وتعية الجيران فى الطريق ٠٠ مارا دائما بطريق
الشاطئ ، متمليا فى البحر ، وقد ألح عليه خاطر
أكيد : انه من المستحيل أن يكون البحر طريقا للانجليز!

وكان بوده لو استطاع أن يقطع أجازته ويعود الى
مكتبه ليلقى زملاءه ، ويحدثهم فى هذا الأمر الخطير ،
هو ، مرزوق أفندى ، الذى شقى لينتزع أجازته . يود
اليوم لو أنه بقى أياما أخرى جالسا الى مكتبه يتبادل
مع زملائه الأنباء والتعليق ٠٠

واذ هو راجع الى بيته رأى البقال على باب دكانه
يصيح بنبرة مداعبة :

ـ يالله يا زباين ، أوكازيون النهارده أبو قرش
بنص قرش ٠٠

والناس تتزاحم عليه ٠٠ فقال مرزوق :

ـ ايه الحكاية ؟ انت فلست ؟ ٠٠

ـ عايزين قرشين النهارده قبل بكرة ٠٠ والبندقية
أبدى من لقمة العيش ٠٠

— ح تشتري سلاح ؟ •

— السلاح أخذناه • لكن لازمنا قرشين نستقضى
بيهم حاجات للفدائيين •• انت ح تسفر العيال يامرزوق
الهندي ؟ •

— على ايه ؟ •

ومشى ، وقد امتلاً بشعور أنه لم يعد لازماً لأحد
•• انه فضولى على البلد •

وعلى سلم بيته زاحمه رجل من خلفه •

— عن اذنك يا أفندي ••

ونظر مرزوق ، فاذا أربعة جنود من الحرس
يحملون مدفعا أسود ثقيلا ، ويهرولون صاعدين السلم
•• وتفتحت أبواب الشقق ، وحملق الناس فى
استغراب ، وتبعهم الأطفال رغم صياح الأمهات ••
واستقبلته زوجته مضطربة :

— حيعملوا ايه ياسى مرزوق ؟

ولكنه لم يسمع قولها •• كان يحملق فى ولده وقد

جلس فى ركن هادئا ، وفى كل يد فردة حذاء لامع .
ويرتل مبتهجا :

— أنا عندى جزمة جديدة .. ماما جابت لى جزمة
جديدة ..

وكان يأسر مرزوق أفندى انفعال يكاد يدفع دموع
الحسرة لعينييه والغبطة فى قلبه مع ذلك :

— انت جرى لك ايه يا راجل ؟ يالله نسافر زى
الناس ما بتسافر ..

— والولد ؟ .. هم لو نزلوا هنا وخذوا بيوتنا
وحاجتنا يبقى الولد يشحت فى الصعيد !

ورمى جاكته على كرسى ، وانطلق الى السطح ،
كالهارب ، كاللاجئ .. وما أن خطا بقدمه من باب
السطح حتى دوى المدفع فى الهواء ملتهبا مرعدا ،
وأحس مرزوق أن روحه نفسها انطلقت منفلة من
أمرها الى رحاب أملأ بالهواء النقى .. ولكن ما أن
أغمض عينييه وفتحهما حتى عاد قلقا عاجز النشاط .
ومن حوله كانت الناس تتجمع وأحد الجنود يدفعهم
فى قسوة :

– مش عايزين حد هنا • خلونا نشوف شغلنا ،
جربناءه وخلاص •• عايزين تشوفوا ايه تانى ؟

والصبية والصغار يرقصون ويصيحون ويضربون
الأرض بالأقدام فى ايقاع منتظم •
تحيا مصر •• تحيا مصر ••

وداخل مرزوق سرور خفى وهو يرقب الجنود وهم
يخفون المدفع بالخرق الملونة والحبال • وتسلك الى
الأومباشى كطفل فضولى رساله فى حذر :

– والمدفع ده يبقى يعنى •• عشان الطيارات ؟
فنظر اليه الاومباشى جامدا •• ولم ينبس •

وارتبك مرزوق • لم يسمع نداء زوجته أول
الأمر ولكنه التفت بمد ذلك فاذا هى واقفة بباب
السطح ، وفى عينيها صفاء ! صفاء اطار كل ذعر ••
رآه مرزوق فاستغربه •• وكان الولد على كتفها ، وفى
يدها صينية عليها أربع أكواب شاي •

لا يذكر مرزوق انه نعم بلحظة اغتباط كهذه منذ
أسابيع •

وقدم مرزوق الشاى ، ولكن الأومباشى ردد الطرف
بينه وبين الصينية . واهتز وجهه الجامد بحرج طفيف:

— متشكرين . احنا معانا شاينا وحاجتنا .

— لأ . عيب احنا ولاد عرب .

فابتسم الأومباشى .

★★★

فى تلك الليلة لم ينم مرزوق ، ولم تنم زوجته .
أما الصغير فقد تخاطفه النوم والصحو، ومزاجه منقلب .

وقام مرزوق من سريره فى الظلام يريد أن يذهب
الى الحمام . فتعثر فى شئ سقط على الأرض فأحدث
دويا قفزت له زوجته :

— مالك يأسى مرزوق ؟

فاضطرب وصاح :

— أبدا مفيش حاجة . مش عارف ايه الى وقع .

وقبل أن تتبين زوجته شينا آخر . دوى مدفع
السطح بعنف . وانطلقت المفرقات فى كل الأنحاء كأن
مظلة جهنمية انفتحت فجأة فوق البلد . .

- انت فين ياسى مرزوق ؟

- انا هنا ..

ومد كل منهما ذراعيه يريد الاخر فى فحمة الظلام .

وحين تماسكا مالت عليه زوجته جدا واستطاع ان

يسمع فى كلماتها نبرة بكاء محتبس :

- الولد ياسى مرزوق ..

- هاتيه وتعالى ننزل تحت ..

واندفع مرزوق فى موجة بشرية الى الشارع ..

وتفرق الناس يحتمرون بمدخل البيوت العالية . ومست

يد كتف مرزوق . فالتفت .. كان الاومباشى يبتسم

وهو يقول له :

- ادخل البيت الى هناك ده . مبنى بالمسلح .

متخافش . احنا شلنا مدفعنا للناحية دكته .

فانطلق من فوره جارا زوجته الى مدخل البيت ،

ولاحظ ان زوجته تحمل صرة صغيرة .

- ايه ده ؟ ..

- دى حاجتنا .

فهمهم :

— ايه يعنى احنا خدنا مدفعنا الناحية دكهة
متخافش ؟ •• احنا مش قادرين نشيلكو والا ايه ؟!
قلة ذوق •

وهكذا جلس مرزوق أفندى فى فحمة الظلام .
موجع الروح من كل ناحية • وتستفز أوجاعه وخزات
الشعور بالاهانة • وتفوص آلامه فى فورة غضب .
لتأخذ من لونه ، وتشرب من سخونته •

ومع ذلك فلم يورثه الغضب وهو قاعد هناك غير
التوتر والضيق • وفاضت فى نفسه نقمة صبها على
الناس جميعا :

— ايه ده ! كل واحد يشوف حاله • انت مالك
خايف والا مش خايف • الله !

★★★

وفى أول الصباح عادوا الى البيت ، كانت أشياء
قد سقطت من فوق الرفوف وتحطمت ، وزجاج النوافذ
تشرخ •• والبيت موحش مقلوب • قال مرزوق :
— يالله لى حاجتك بسرعة •

وشهقت زوجته • وانطلقت تلم حاجياتهم الخفيفة
على عجل •

— بلاش مكنة الحلاقة •

فتوقفت مدهوشة :

— انت مش جاي معنا ؟

— بلاش عدة الحلاقة قلت لك • خلاص •

فوضعتها وهي تغالب دموعها وأشاحت بوجهها

— أمرك •

كانت الشوارع مزدحمة جدا ، وكل مشغول بمهام
عديدة • وكانت المدينة تقلب نظامها رأسا على عقب
بسرعة جنونية وفي عزم ، وبأقصى جهد •• لتواجه
مرحلة مختلفة تماما من حياتها •

وكان مرزوق ، المندفع ممسكا بيد زوجته ،
وولده على كتفها •• يثقله احساس بالوحدة •• بأن
شيئا ما يزيحه عن طريق الناس ، وتدفقت نفسه وهو
يشق طريقه في الزحام •• تتمسح بمعالم المدينة التي
أحبها ، وتلمس في وجوه المتزاحمين المشغولين بما بين
أيديهم ، ملمحا واحدا مألوفا •• وجه صديق كان يشق

طريقه . . وبصره يمتد كالأذرع الملهوفة . . تريد من
تعرفه .

وفي الميدان رأى محروس أفندى وطالب أفندى
مرؤوسيه فى ملابس الحرس الوطنى ، فصاح بهما
كالمستغيث :

— محروس أفندى ! . . محروس أفندى ! . .

فالتفت محروس نصف التفاتة ، وصاح بدوره :

— من هنا يا مرزوق أفندى . انهض شوية .

— ولكن طالب أفندى قال له :

— سيبه فى سكته يا راجل . . ده مش جاي معانا .

ودارا حول الناصية بلا كلمة أخرى .

واستغرق مرزوق فيما يعاوده من القلق العصبى ،

لم ينتبه للولد يبكى بحرقة على كتف أمه ، الا عندما

وصلوا الى شاطئ البحر .

— مالك يا حسين ؟ . .

— فردة الجزمة وقعت منى .

— بس . طيب بس . حاجيب لك جزمة غيرها .

— لا . أنا مالى . عايز جزمتى .

فاذا احساس مؤلم يمتلكه فجأة ، زادته نبرة الولد
العنيدة المتوجعة عمقا فى القلب •

وعلى صفحة البحيرة كانت القوارب مفرودة الأشرعة ،
والنساء والأطفال والرجال فى مختلف الأزياء ينعقدون
حلقات صاخبة ، وبعضهم يدقون الطبول ويفنون
الأغاني •

وقبل أن تستقر زوجة مرزوق أفندى وولده فى
القارب قال المراكبى بصوت خشن غليظ :

– استنى انت شوية يا أفندى • ادينا زقة للنبي
الا الفالوكة شاحطة •

وهو لا يتوقف يغنى بصوته الخشن الغليظ
الخافت :

– « بلدى يا بلدى •• أنا نفسى أروح بلدى • »
نظر اليه مرزوق مليا ، وهبطت عليه سكينه ،
ونزل بقدميه فى الماء ولم يبال •• ودفع القارب دفعة
مينة فى الماء فاهتز ، وانزلق منحدرًا فوق البحيرة •
صاحت زوجته :

– اطلع ياسى مرزوق ! •• الحق يا ريس •

ولكن قدمى مرزوق كائنا مغروستين فى الأرض ،
التفت عليهما حفنات الطمى وضنطتهما ضنطاً هينا •
- ابقى سلمى عليهم ، متخافيش على ، سلم على
خالتك يا حسين ، أنا جايلكم بعدى •

وزوجته تلوح وتصيح :

- رايح على فين ياسى مرزوق ؟ ••

- ح أبعت لك جواب والا تلغراف • ح أقولك على
كل حاجة • خللى بالك من الولد • هاتى له جزمة
جديدة •

والقارب يتباعد ويشق صفحة الماء المضيئة
وزوجته واقفة لاتزال تصيح ، وصيحاتها تبتعد
وتخفت ••

وتدفقت روحه حبا لزوجته •• وكان شيئاً عجيباً
قفز من صدره ليقع فى صدرها ناعماً به ، وليا له •
لم يطمنن مرزوق ، ولم تهدأ روحه • وانما
التهمت آلام الفراق كل آلام نفسه ، وتفوقت عليها •
وقد استفزت فيه هذه الآلام فورة غضبه ، فاستدار الى
المدينة تحت وطأة التدمير ، وبخطا اليها بعزم •

راحار

هذه الليلة بالذات كان الجو صافيا ، رغم ان البرد لم تخف لدعته ..

ورغم الضوء الخافت الذي ترسله النجوم والقمر الصغير ، كان محمد يستطيع ان يرى من مكمنه بين أحجار الجبل .. الكتل الصماء التي تميز معالم الوادي من تحته والهضبة في مواجهته .. كان ينتظر وعيناه على لوحة الرادار ، واذنه تحصى نبض ذلك الجهاز الساحر اليقظ الذي يرى ويسمع ويرصد على مسافة أميال ..

وكعادة النوبتجي في الليل .. يبدأ محمد يبحث عن تسلية .. يبدأ بالتفكير فيما لمس أوتار نفسه من كلمات الخطاب الذي تسلمه في الصباح ، ثم يشرع

يحصى الأحجار والكتل السوداء المستقرة على مدى
البصر ، ثم يتسلى بتمتقب الأشجار البعيدة وكل
الأشياء القائمة على صفحة الافق . . فى حركتها الوهمية
التي توحى بها حركة السحب الصغيرة فى السماء . .
ويقول لنفسه : أهى الأرض بتلف زى ما بيقلوا ! ثم
يبتسم وينظر فى ساعته فىرى أنه لم يمض من الوقت
الا عشر دقائق . .

فيعود ليبدأ من جديد . .

كانت السرية قد قضت نهارا حافلا بالنشاط . .
درست شمعاب الهضبة . ورسمتها على الورق وأكدت
مواضع منافذها بالدبابيس ثم ركزت فى موقعها على
كتف الجبل المواجه ، وأحكمت حصار المنطقة ورصد
مسالكها بأعين الرادار العجيبة . . ونام البعض ، وقام
الآخرون بالنوبتجية . .

عاد محمد يترثر مع نفسه دون أن ينبس ، فقرا
من جديد فقرات هذا الخطاب الذى تسلمه فى الصباح
. . أول خطاب يصله من الشلة .

« يصعب علينا أن نأكل من غيرك يا محمد . أو
نشرب الشاى الخمسينى الساخن ، أو نمشى على النيل

.. ومع ذلك نحن نعمل حسابك .. نخط لك نصيبك
.. ونشربه نيابة عنك .. ومحتفظين لك بنايب، من
السرمة والذى منه .. والحكايات .. متى تجيء ؟

ابتسم على الرغم منه . يخرّب بيتك يا حسين ..
هذه كلماتك انت لا شك أمليتها على جميل الذى كتبها
بخط يده ..

سأرد عليك يا واد .. ساكتب لك :

« الحرب فرضت على الرجال ، وشرب الكركديه
للعيال » ..

وتدفقت ذكرياته على الرغم منه .. لذيذة متتابعة ،
وأحس حيننا جارفا لأمه ، فقبلها فى خياله ولكن
سرعان ما نبشت أصابع الشلة هذه الصورة وتدفقوا
الى مخيلته كما يتدفق اللصوص من منفذ فى الجدار ..

« أمك بخير وبتسلم عليك .. واحنا نقضى لها
مصالحتها .. ونمى لنطمئن عليها وعلى أخيك كل يوم
.. ونجلس عندما على الكنية بوقار شديد .. فتقول
لنا : ياريت محمد كده عاقل وهادى زيبك أسم النبى
حارسكم شفت يا واد أكلنا عقلها ازاي ! » ضحكت عيناه
بينما خفق قلبه بحب عميق لأمه ، وللشلة .. بل للناس

جميعا .. ذلك النوع من الحب الكامن القوي الذي
تفجره وتهيجه مداعبة صغيرة ..

أخذ يخاطبهم فى سره :

— وازاى خديجة دلوقت ؟

وكاد يقهقه ضاحكا وهو يتصور سمير صاحبهم
الماشق المخدوع الذى طالما عيروه بفشله ، فكان يفضى
ويذوب خجلا . فاذا ما شددوا عليه النكير تألب عليهم
متمردا شاتما بأقذع الشتائم فينفجرون ضاحكين .
وعادت سطور الخطاب تنساب فى مخيلته ..

« اوعى يا وله تقصر رقبتنا عندك .. اوعى
تفضحننا .. نخلى ليلتك طين ! »

فهتف بقلبه فقط ، لا بلسانه .. ساخطا بحق ،
الا أن انفراجه مشوقة محبة مسحت وجهه فى نفس
الوقت :

— ياولاد ال .. آنا واقف هنا بعد نص الليل فى
عز البرد ، فى الجبل العريان ، بيندقيتى بدافع عن
رقابيكم ..

ثم ابتسم كمن أشفى غليله ، وتراقصت أمام
عينيه صورهم . سمير أولا .. تلميذ الصناعات الخجول

القصير الأبيض .. وحسين البراد الميكانيكى الشقى
المهزار البوهيمى ، وجميل محضر المعمل ، وتابع حسين
الامين .. تصورهم جلوسا فى قهوة بطاطا ، وقد
شربوا الشاي ودخنوا السجاير .. ثم ضرب حسين بيده
على المائدة – كما يفعل دائما ليفتح موضوع الجلسة –
وزعق بصوته الجمهورى :

– ماتيجوا نكتب للواد محمد جواب ..

فردد جميل :

– فكرة عال ، والله مشتاقين يا محمد .

ويرفع يده بالسلام كأنما ليحيى طيف الصديق
الغائب .. فينفجرون بالضحك ويسرعون بشراء الورق
وطابع البريد ..

ثم يقول سمير :

– نعط له صورة بريجيت باردو ..

فيرد حسين :

– لا .. احسن ياخذها منه الشاويش ..

ويضجون ثانية ..

ثم يتصورهم آخر الليل .. وقد أفرغت صدورهم
كل الضحك .. ماشيين منهكين .. حينئذ يقول سمير :

— تعرفوا يا أولاد ان محمد وحشنا خالص ..

فيجاوبون بصمت عميق كله شجون .

ومحمد يعرف ان هذه اللحظة بالذات هي التي
أملت عليهم جملة آخر الخطاب :

« اوعى لنفسك يا محمد .. وفتح عينك خليك
راجل تمام .. احنا بنقول للناس لنا واحد صاحبنا
بيدافع في اليمن » .

وانتبه أنتباهة الديديبان الذي يرى ويسمع ويشم
بحسه لا يحواسه .. مرور ..

فشدد يديه على مقابض الجهاز وانتظر وعينه
لامعتان .

ثم .. قف من انت ! تقدم !

.. مفيش حاجة يا فندم .. كله تمام ..

وأخذ شعور بالوحدة والحب ، عميق أصيل ..
فهنا في جبال اليمن ، في الجو الصحو البارد .. قبل
الفجر بقليل يقف محمد .. قلبه جرانيت ، جسده
صوان ، ولكن روحه مع ذلك تترقرق حبا وشوقا للوطن

.. امه .. اخود الصغير والصحاب .. كورنيس
الذيل .. وجلسة القهوة الانيسة .. والضحكات ..

وعلى مرمى البصر شعاب فى الهضبة ، وممرات
درستها السرية بامعان ، ثم اختارت موقعها وركزت
تنتظر طيلة الليل ، وأعين الرادار العجيب تدور على
محاورها تمسح وترصد المنطقة من يمين وشمال ..

لا حركة ! فلم تكن تلك الليلة مثيرة ، نوبتجية
مرور .. مفيش حاجة يافندم .. كله تمام .. ثم
يحدث شئ مما تهتم له الصحف فى تلك الليلة .. لم
تطلق رصاصة ، ولا تحركت سحابة سوداء ، ولا تسفل
شبح فى الظلام ..

ولكن قلب المقاتل فى الموقع الأمامى .. ذلك رادار
أعجب .. يأز بلا توقف ويرصد بدقة أعجب من الآلة
الصماء همسات الاحباء فى الوطن البعيد ، وحركتهم
الدائبة ، وانشغالهم بأحبائهم هناك ..

قلب المقاتل .. يرى ويسمع ويحس بدقة بالغة
من بعيد .. ولا يتوقف بعد النوبتجية ، بل يسترسل
بعد أن يسلم محمد موقعه لزميله ويصطف فى التمام
وينصرف ..

بينما يتوجه العريف للضابط النوبتجي ويؤدي
التحية ويقدم التقرير : مفيش حاجة يافندم .. كله
تمام .. ثم الى قائد السرية .. وباللاسلكي الى قيادة
الميدان : الموقع رقم ٢٦ - لا شيء .. كله تمام .. حول ..
ثم يقعد محمد ويتناول كوب الشاي الساخن اللذيذ ..
وتسترخي عضلاته .. وعندئذ يأخذه ذلك الشعور
اللطيف الجارف الذي يأخذ المقاتل في الميدان اذ يدرك
أن التضحية التي يقدمها عظيمة .. وان الدور الذي
يؤديه أعظم ..

فيتمدد على السرير .. ويفطى عينيه بظاهر يده ،
ويستأنف جلمه من جديد وعلى شفثيه ابتسامة وادعة ،
وتطرق أذنيه أصدااء ، أربعة تمام ..
فيتخيل أصدقاءه الثلاثة .. فيضحك ..

الشيال

كانت العصافير تفرح وتثب من غصن لغصن في
الشجرة العجوز الضاربة في بلاط الرصيف ، بعد أن
بكرت في الصباح فجمعت غذاء نهـارها وأطفالها
وانطلقت تلعب •

ولكن بسيوني لم يلق باله للعصافير ، فقد كان
لا يزال يجري على رزق نهـاره وأطفاله وفي وقدة
الشمس قبل الظهر بقليل وقف كالشجرة العجوز يقيس
بنظرة ثابتة مضبوطة كالميزان أبعاد ووزن بوفيه الزان
المنقوش الرابض أمام الباب •

قال له البواب : هيه • حـتـقـدر تشيله ؟

فألقي عليه التفاتة خاطفة حانقة ، ولم ينبس .
ثم رفع بصره يقيس طول العمارة التي يقف ببابها .
ومال كثيرا الى الوراء برأسه حتى يتبين طرف سطوحها
الذاهب في الهواء . وعجب بسيوني للعمارات التي
يتبارى أصعابها في الارتفاع والناس التي تتكاثر
بأذن الله .

وصاح به البواب :

— ماتشيل بقى يا جردع . ماتقفش كده قدام
البوابة .

ولكن بسيوني لم يطلق لحنقه العنان ، وانما
أغرقه في موجة هدوء . . كما اعتاد دائما أن يفعل
وهو يعمل . لم يكن يبذل أدنى قدر من الانفعال وهو
يشتغل ، فهو يدرك أن السنين لم تترك له فضلا من قوة
يهدرها في الزعيق أو الخناق أو الاستجابة للاستفزاز ،
وراض نفسه على الاستهانة بهؤلاء المتعصافين الذين
يبذلون نصف نشاطهم في الفارغ .

وكانت المعصافير لا تزال تتسابق وينقر بعضها
عنق بعض حين ارتفع صوت نسائي حاد ملء من فوق :
— ما تشيل بقى يا أسطى . خلصنا ؟

فرفع بـسيونى رأسه وضيق عينيه ليرى .. ولوح
بيده فى الهواء :

• - طيب ياست. • متستعجلش كده قوى على رزقك .
ثم بدأ ..

قعد القرفصاء وحنى ظهره وطأطأ رأسه ، بينما
نشط البواب بالاشتراك مع عابرى سبيل جمعتهم الرغبة
الغامضة لمد اليد فى مأزق العمل . كما يتجمعون لدفع
سيارة وقفت بلا معنى فى الطريق بمجرد الإشارة :
• - ايدك والنبي ياجدع •

وامال الجميع الحمل الخشبي الكبير الى أن حط على
ظهر بـسيونى ، فارتج هذا لوقعه ارتجاجة كادت تغلغ
قلب الهائم صاحبة المال وهى ترقب الكل بدقة من
شباكها فوق ..

وصاح بـسيونى من تحت حملة :

• - الحبل يا جدع • لف كويس عشان مايتزحلقش •
فداروا بالحبل حول الأرجل والنتوءات وشده
شدا قويا ثم أسلموا طرفه لبـسيونى الذى قبض عليه
يعزم بعد أن وضع طرف جلبابه فى فمه وعض عليه •

•• ثم خطا خطوة قصيرة جدا ليختبر توازن الثقل فوق ظهره وتوكل على الله وبدأ رحلته •

ومن أعلى السلم كانت الهانم تكتم أنفاسها إشفاقا على الحمل الثمين أن يسقط فيتهشم تماما ، ولكنها من وقت لآخر كانت تصيح على رغمها :

— حاسب تحك في الحيط ••

والبواب من خلفه خطوة خطوة ، يسند باصبع لا مبالى طرف البوفيه وهو يكرر على بسيونى :

— على مهلك • هانت • شد حيلك ••

أما بسيونى فقد كان يدفع القدم ، ويتحسس بها موطنها جيدا ، ويقيس بعينه توسط قدمه على درجة السلم قبل أن يميل الى الامام متوازنا ليرفع قدمه الأخرى ويحطها جنبها بثبات •• درجة درجة ، خطوة خطوة ، وقد جرى عرقه فى مجاريه المألوفه التى خبر طريقه فيها سنين طويلة ، ولعل هذا العرق هو الذى خطها على الوجه المفضن الصامد من طول ما جرى عليه •

ولم يكن بسيونى يسمع التحذيرات التى تطلقها السيدة من فوق أو عبارات التهوين التى يرميه بها البواب من ورام •

لم يكن حتى يفكر فى عياله أو يحسب وقته أو رزقه أو يعلم بgende . فان وطاة العمل لا تدع للعقل أو للحواس فسحة لهذا التجوال المترف ، ولا هى تترك للعقل أو المخيلة فضلة مجال للحركة ، فان من يعيش تحت وطاة مثل هذا العبء العجيب يتكيف عقله بحيث تحتشد كل ملكاته فى تدبير التوازن المدهش بين الحمل وميل الجسم والخطو بكل هذا التوازن الى الامام ، والى فوق . . تدبرا ميكانيكيا نعم ، الا أنه خارق فى احساسه المرهف ويقظته الحادة لمقتضيات الحركة .

ومن السذاجة أن تظن البلادة التى ترسم على هذا الوجه حينذاك صورة لما خلفها ، فما هى الا قنـاع مشدود . كصفحة الآلة الحاسبة الدقيقة فى ثباتها . وفى القدرات غير المحدودة التى تنطوى عليها .

هل تستجيب الآلة لتحذيرات تتساقط عليها من فوق أو عبارات تترامى فوقها من وراء ؟ ومع ذلك تشق طريقها بكل قدرة ودقة .

كانت أعصاب السيدة تزداد توترا لحظة بعد أخرى وهى ترقب الرحلة الشاقة فى صعودها البطيء العجيب ، وتكتم صيحاتها المتفجعة التى تتجمع كلما اهتز الحمل فوق ظهر بسيونى فتكاد تنطلق . .

وعندما حط بسيونى حمله فى مكانه تنهدت
يعمق ، كأنها كانت تحمل معه ، وحشدت كل همها فى
صيحة واحدة :

— أنا عارفه صحاب العمارات العالية دى مبيركبوش
أسانسيرات عفش ليه ؟

فصاح الشيال :

— يا ست ماتخريش علينا ، الله يلعن المكن على
الى بدعوه كمان •

وتناول الورقة المالية الصغيرة بيد مرتعشة فقبلها
ودسها فى جيبه وهو ساخط •

فى بنر

ليس يكفينا العلم بأعضاء الانسان ودمه ولحمه ،
وليس يكفيننا جدول الجراثيم الخبيثة التى تأكل من
بنيانه •

ان للعلم مجالا حيويا آخر ، يكاد الأطباء لا يهتمون
به : روح الانسان • ففى الأرض والسماء ، فى الليل
وفى مبرة النهار ، فى مكنون النفس وفى روح الجماعة •
مرتفع آخر لجراثيم خبيثة أخرى مجهولة ليست فى جداول
الأطباء ولا يستطيعون تربيتها فى مزارعهم لاختبارها ،
لأنها غير ذات وجود مادي •

أنا الطبيب الجراح أقول لك هذا • فمنذ عشر

سنوات ، في مطلع حياتي العملية ، أجريت جراحة خطيرة
بنجاح عظيم ، ومع ذلك فلم يكن الا نجاحا مؤقتا .

كان في عنبر الجراحة بمصحة الأمراض الصدرية
حينذاك مريضان اثنان ، هما محمود أبو الكريم
ومحفوظ عبد الوهاب وقد استأصلت لكل منهما ستة
ضلوع حتى التصق جلد الصدر بالرئة فضغطها . عملية
باهرة في كتب الطب ! .. وقد قدرت أن محمود
أبو الكريم ومحفوظ عبد الوهاب سيعيشان عمرا آخر
رغم جراثيم السل الخبيث .

ولهذا كنت مزهوا بمريضى ، وقد شددت الأمر لكل
منهما بالألا يغادر السرير الا لحاجة ماسة .

وفى خلال الاسبوع التالى للعملية كنت أمر بهما
يومية ، حالتهم عال .. النبض ، التنفس ، درجة
الحرارة ، الأشعة .. كلها كانت تملأنى بشعور مريح .

فما الذى كانا يضيقان به ؟!

فاجأنى محمود مرة بقوله ، وهو يغالب خجلا
صبيانيا مضحكا :

— ألا يا دكتور الواحد لا يمشى كأنه يميل كده على جنب ! •

فصاح به محفوظ من فوق سريره :

— الله • انت اسه زعلان يا محمود اكمنى قلت لك يا قنند ؟ •

وضحك ضحكة ذات رنين بارد عجيب ، مستنى برجفة . فقد ومض فى ذهنى لبرهة قصيرة أن محفوظ يسخر مما صنعه العملية بصاحبه ، من ضيقه بما صنعه العملية به • فقد أصابهما نفس الانحناء والميل عند الوقوف نتيجة لانتزاع الضلوع ، ولكن أحدهما لا يرى حقيقة ما طرأ على مشيته الا بالنظر الى زميله • • زميله وصديقه القديم الحبيب أصبح مرآته المؤلمة • • ومع ذلك فقد كنت أعرف أنهما صديقان قديمان جدا ، عاشا عامين فى سريرين متجاورين فى عنبر نمرة ستة وكان المرضى يتفكهون بأن محمود أبو الكريم ومحموظ عبد الوهاب لا يطيب لهما الأكل الا اذا خلطا أطباقهما معا •

ولم أعبأ أنا لمزاحهما ولكنى اهتمت جدا — انزعجت جدا — بل غضبت • • حين أبلغنى الممرض بعد

أيام أنهما تسلا سويا بعد منتصف الليل وخرجا يتمشيان
فى فناء المصحة تحت ستر الظلام . وكان من الممكن
ألا يلحظهما أحد ، لولا أنهما تعاركا وتلاعنا ، وعادا
مغضبين حانقين بعد أن أقلقا راحة النائمين .

وذات يوم فى الظهر أقبل التمرجى بالغداء ، فصاح
فيه محفوظ .

— هات غدايا هنا .

فوضع التمرجى أمام كل منهما غداءه وتهيأ
للخروج . لكن محفوظ نهض من سريره واندفع نحو
غذاء محمود . ووقف فوق طبق الخضار محنى الظهر
منطويا يحملق فى الطبق جيدا ، ثم التفت الى التمرجى :

— دى اللحمه دى يا حرامى !

وذهل محمود لحظه ، ثم همس بصوت خفيض :

— عيب يا محفوظ .

— وانت كمان حرامى .

فارتفع صوت محمود قايلا :

— لا . . ابن الأصول ميغلطش .

فوقف محفوظ يغلى لحظة ، ثم اندفع خارجا الى
الفناء ، وعلى وجهه ملامح شر وندم وغيظ . وظل هناك
ساعة ثم عاد فرقد على سريره ، وأغمض عينيه ، لم
يأكل .

ويومها جعلته يبتلع برشامة تهدى أعصابه ، وعدت
أشدد عليهما الأمر بالتزام السرير .

وفى صباح اليوم التالى وقف محفوظ على باب
العنبر ينتظر الافطار فما ان وصل التمرجى بصنية
الطعام حتى أوقفه على الباب ونظر فى الاطباق ولكن
التمرجى مر بها من تحت أنفه ووضع لكل منهما طعامه ،
وأدركه محفوظ عند سرير محمود ، ووقف يرتجف كمن
أصيب بالحمى ، ويزفر أنفاس الغضب ، ثم دفع بيده
فى طبق محمود فاختطف الجبنة وكاد أن يدسها فى عين
المرض :

— دى الجبنة دى يا واد !

فانتفض محمود واقفا وصاح :

— الراجل ده ماله ومال الأكل يا مغفل .

فاختطف محفوظ طبق الفول ، ودفعه في وجه محمود ، فصفعه محمود على وجهه فأمسكه محفوظ من ملابسه ، وكأنما امتلأ بقوة جهنمية ، وجرجره على الأرض نحو الباب ، وهو يصيح فيه :

— مالكش قعاد هنا تانى ، واوع تببت فيها ليلة تانى لأقتلك !

ولاص التمرجى بين الاثنين ، واستبد به الذعر أن يموت أحدهما ، فجعل يصرخ :

— الحقونى ! •

وتدافع المرضى من كل اتجاه يخلصونهما حتى أرقدوا كلا منهما على سريريه . واحتاطوا بهما . وكل منهم بكلمة :

— عيب يا جدعان •

هى حصلت ؟!

— انتم صفار ؟! •

— انتم من يـ. ومكم أصحاب الروح بالروح ايه الحكاية ؟ •

— يعنى عايزين الادارة تنعشر فينا ؟! •

— خلو عندكم تصريف امال ، هي الحكاية هبش ؟
الى آخره . . الى آخره . .

ولكنهما لم يصفيا لأحد . . فمحفوظ راقد على صدره يرتجف ويكاد يمزق الوسادة بيديه ويزفر بقوة .
ومحمود قاعد على سريرته يحملق فى الهواء مذهولا .

جرى التمرجى المذعور لفوره يبلغ المدير ، ويخلى نفسه من المسؤولية . وما أن سمع المدير حتى قام ولم يقعد . واستدعى زميلي الدكتور مفتاح على عجل .

وهكذا امتلأ زميلي الدكتور مفتاح من هياج المدير ، ومن استشاطته فقصد العيادة فورا وأمر باستدعاء محمود أبو الكريم ومحفوظ عبد الوهاب للتحقيق .

أما الصديقان الخصيمان ، فقد تحاملا على نفسيهما ، واتجها الى العيادة فى جمع غفير من الصحاب والعاطفيين والفضوليين . . تزاحم كلماته بعضهم بعضا :

— ح تكشفوا سر بعض قدام الادارة يا جدعان ؟

— دانتم بقالكم سنين اصحاب ، والواحد فيكم مستأمن أخوه على كل شئ .

– وطول عمر الواحد فيكم سره فى بير •

ولم يكن الكلام يزيد محفوظ عبد الوهاب الا غليانا
وضراوة ، ولم يكن يزيد محمود أبو الكريم الا تضعفعا
وانكسارا ! •

قال محمود فى وهن :

– أنا رايع أقول انه اتعدى على وبس • أنا مستجير
منه يا ناس •

ح يموتنى ! •

أما محفوظ ، فقد كانت عيناه تزدادان احمرارا •
ومر وقت لآخر يهيج فجأة فيصرخ بصوت متشرخ حاد :

– أنا رايع أوديه فى داهية ! •

– ماليش قعاد فى المصحة دى تانى •

– ح أكسر شوكتة اللومانيجى •

★★★

وفى العيادة ، واجه محمود الدكتور مفتاح ، وهو
كتلة من اللحم الطرى اللاهث المازوم • كان شعوره بأنه
أضعف من محفوظ ، وبأن محفوظ مرغفه فى التراب

يقبض رنتيه بكلاية قاسية ، وخوفه الغريزي من الادارة
يمقد كلوح الثلج على نفسه • كان خجلا من خوفه ،
ومنساقا له ، ومنهارا انهيارا انثويا مستغيثا •

فبكلمات متلعثمة روى واقعة الجينة والمراك •
فلما انتهى وقف وطالعه وجد الطبيب البارد الصارم
فعاد وجلس يهمهم :

— أنا في عرضك ، مترفدنيش • أنا لسه عامل
العملية من خمستاشر يوم • أنا ماليش حد • مترمونيش
على الرصيف •

ولكن ما أن خرج في صحابه حتى استجمع نفسه
لحظة ليسب الأخضرين لكل شيء في الوجود ، وهاج :
— يرفدوننا بقى ! هى موته والا اثنين • مع
السلامة !

وفى قلبه يتكلس السخط والأسى ، وشعور بالذنب
أيضا •

وقد التقط محفوظ من عيني محمود هذا الشعور
بالذنب ، فأدرك لفوره أنه اتهمه بشيء ما ، فما انتظر
لحظة واحدة ، واندفع الى العيادة يصرخ :

– أيوه ضربته . .

– قلت له يا حرامي ؟

– وأقول المنيابة كمان .

– سرق منك حاجة ؟

– وأنا حيلتي حاجة يسرقها يا سعادة الدكتور . .

ده سارق المصححة واللى فيها . انتو مش مسجلين فى
فى دفاتركم كل يوم عشرة اتناشر لمبة تنحرق من
العنابر ؟ هى ايه ؟ حريقة ؟! هو الى بيخش العنابر
بعد نص الليل يسلمت الللمبة زلسليمه ويعط لمبة
محروقة .

– ماحدث بيحس بيه ؟

– مرة عمنون حسوا بيه فى عنبر نمرة تسعة قاموا

عليه ضربوه علقه تمام مانجدوش من ايديهم غيرى أنا .
الحق على أنا .

– ولا بلغوش الادارة ؟

– يا سعادة الدكتور . دى ناس عيانين فى قلب

بعضهم وتقول بلاش الادارة تدخل بيناتنا .

وهدأت ثورته – لا لم تهدأ وانما تعجرت فى صدره .

فاصبحت كتلة صماء من امنية الشريرة تطفح بالايتهام
على وجهه ..

— وبعدين ؟

— أبدا . بقى يجيب هدايا كل ليلة للعنبر الى
يدخله . وقفة برتقان ، موز .. أى حاجة . ساعة
مايخش بالنيل الكلى يعمل نايم ، ويقولوا لبعض : أهو
القشاش وصل ! وتانى يوم الصبح يحصل التتمين
والدفع واللازم ..

— وبيجيب المحروق منين ؟

— يا سيدنا ده متفق مع محل كهربائى فى شارع
المحلاوى . يورد له السليم وياخد المحروق ويقبض
التمن .

— وبيخرج ازاي كل يوم لشارع المحلاوى ؟

— يا سيدى ! قرش للنوبتشى ، وقرش للـبـواب
يضرب له تعظيم سلام وهو خارج . أعوز بالله . ياسعادة
الدكتور ده حرامى ابن حرام .. أيوه أبوه مات فى
اللومان .. أنا اتعديت عليه ؟! أنا ؟! طيب استلقى
وعدك بقى يا محمود يا ابو الكريم . أما نشوف مين ح
يقدر على أذية التانى .

وخرج محفوظ • وعلى الباب نادى زميله :

– يا محمود لما انت ما انتش راجل وقد عشرة

الرجالة ، ابقى خد هدومك وروح عنبر الحريم •

فاصفر لون محمود تماما ، وأحس من ابتسامة

الانتصار على وجه محفوظ أنه أوقع به ، فحقنه الخوف

برغبة جامحة للثأر ، واحتقنت عيناه •

ودخل بدوره للتحقيق • ولكنه كان متلهفا هذه

المرة •• يزفر في حرقه • فما أن واجهه الدكتور

مفتاح باتهام محفوظ حتى انتفض صارخا :

– طيب والله ، والله العظيم ثلاثة ان محفوظ

عبد الوهاب بيتاجر فى طعام العيانيين ••

– بيتاجر ازاي ؟ •

– يعنى مثلا •• رغيف عيش زيادة عند حد فى

العنبر ، طبق خاصوليا مش لازمه ، حنة لحمه ، برتقالة

•• أى شئ الفرد مش عايزه •• خد يا محفوظ ••

ومحفوظ يلم الشئ ده كله ، وعلى عنابر الدرجة يبيعه

للعينانيين هناك ، هناك فيه ولاد ناس برضه الواحد فيهم

يحب ياكل ويشرب • يلزمه شئ بقرش بقرشين • أهو

محفوظ ياخذ قسمته ويورد باقى المبلغ لصاحب

الحاجة • امال هو كان زعلان ان حنة اللحمه فى طبقى
صغيرة ليه ؟ وكان حنة الجبنة فى طبقى مش مالىه عينه
ليه ؟ كان بيتخانق ويسب التومرجى علشان عيونى ؟
علشان انا كنت باييعها له •

وتطلع الى نظرة الدكتور الصارمة ، فتهدج صوته
ومهم :

— انا ح اقولك على الحقيقه يا سعادة الدكتور •
انا مش عارف اقول ايه ؟ احنا طول عمرنا كنا صحاب •
لكنى انا عدت خايف منه • امبارح بالليل اتسحب من
سريره ، وفتحت عينى التقيته واقف فوق رأسى وعنيه
بتطلق شرار ، فى الضلمة • انا قلبى وقع فى رجليه ••
قلت له :

— عايز ايه يا محفوظ ؟ جاى تقتلنى يا محفوظ؟
لقيته راح راجع سريره زى المخزول ، وشاتمنى بكلام
وسخ • انقلونى من جنبه اعملوا معروف ••

وخرج محمود فى هذه المرة يخفى قلقه ، يترنج
ويضحك ويلوح بذراعيه فى هستيرية ، ولكن عينيه
لا تستقران •

وما ان دخل محفوظ العيادة وواجه الاتهام الجديد
حتى صرخ :

— أنا ؟! طيب قسما بالله العظيم تلاته يا سمعاده
الدكتور ان الراجل ده حشاش ، وبيتهياله حاجات .
— حشاش ١٩

— زى ما بقول لك كده . . هو صحيح بيبيع اكله ،
ولا ياكلش غير طقة واحدة فى اليوم ، لكن أنا ؟! ان
شالله ما أوعى أشوف بعينى اذا كان ده صحيح . انما
هو يبيع عياله علشان نفسين حشيش . وبياخد خضاره
ولحمته وعيشه ويخرج من العنبر معرفش يروح فين
ويبيجى معاه سيجارة الحشيش . ينام على ظهره ويعط
رجل على رجل ودراعه تحت دماغه ويشد فى السيجارة
ويقول :

« يا محفوظ يا وزير النحاس . أنا السلطان
عبد الحميد . . » وياما كلمته . أقول له ده مش كويس
على صحتك . صدرك خرب وبقي حالته منيلة . . وده
ولا هو هنا . عامل وذن من طين وودن من عجين ، راجل
خرفان . .

ولم يكن شئ ليثير الدكتور مفتاح قدر هذا . قتل
وحشيش فى مصعة سل ! فاستدعى محمود أبو الكريم

على الفور • وواجهه بأقوال محفوظ ، فانهار المسكين ،
وتندت عيناه بالدموع ، وقال بصوت خافت :

— صحيح ••

— بتجييه منين ؟

— منه يا سعادة الدكتور • من محفوظ •• أمرنا
لله •• هو بيتاجر فى الأكل على ايه ؟ علشان يصرف
بضاعته ، الحشيش ••

ولم يطق الدكتور مفتاح مواصلة التحقيق ، فانتقل
على الفور الى مكتب المدير ، وأطلعه على الأوراق فمزقها
المدير قطعاً صغيرة جداً وقد انقلب غضبه الى خوف •

— اذا رفدناهم ، الريحه تفوح ، الجرايد مستنياها ،
لا حول الله • ايه الى جرى لعقلهم •

وأمر باستدعائى • ولكنى كنت أكثر الناس حيرة
فى أمرهما • العملية عال • النبض ، والتنفس ،
والأشعة •

أما محمود ومحموظ •• فقد أفرغا ما فى
صدريهما من خصومة ، وعادا الى العنبر فى جمع غفير
من الأصدقاء والعاطفين والفضوليين ، وكل منهم بكلمة :

– بقى تفتشوا سر بعض يا ولاد ؟

– وهم بعد كده حيسيبيوكم ؟ لا يمكن • لا بد من
الرغد والنيابة كمان ••

– بكره تشوفوا ••

وراحت السكره الحبيثة ، وجاءت الفكرة • اما
الغضب والغل والحنق فقد تسرب اليه الخوف المشترك
فغمره وأغرقه فقالوا :

– رايحين نعمل ايه ؟

كان محفوظ أسرع الاثنين خطرا •• فصاح يأمر
محمود :

– تعالى • تعالى يا واد • انتوا اعملوا شوشرة برة
لغاية ما نخبي الحاجات •

وأغلق محفوظ باب العنبر بالترباس والصحاب
والعاطفون يغنون ويضحكون ويصفقون ويضجون فى
الخارج ، بينما عكف الصديقان المدوان على جمع
اللمبات والحشيش وخزين الطعام المشتري وجعلوها
فى صرة واحدة • وتحت رجل السرير ضرب محفوظ

الأرض بالقادوم يحفرها بينما انحنى محمود يلم التراب
من الحفرة بكفيه ، ويوسعها بأظافره . .

— شهل ياواد . مفيش وقت .

وقادوم محفوظ طالع هابط فى سرعة جنونية ،
يكاد أن يدق أصابع محمود نفسها .

— حاسب !

— انهض سويه .

والبئر يغور فى الأرض بوصة بعدد بوصة ببطء
ثقيل، والدقائق تغل من ضراوة محفوظ ولكنها لا توهن
من نشاطه :

— تفتكر صحيح ياواد ح يبلغوا النيابة . دى تبقى
داهية !

ومحمود يضيق بخوفه ، فتنتفض فى روحه المرأة
لحظة خاطفة ، تكفى ليزعق :

— وماله . ولا يهمنا . احنا جينا العنبر لقيناه
كده . احنا عارفين بقى مين الى حافر البئر وحاطط
سره فيه ؟!

— طيب واذا فتشوا ولقوا اللمبات والحشيش زى
ما حكيينا بالضبط ؟

— يفتشوا • احنا ماليناش هنا غير هدومنا •

— والقادوم ؟ زى بعضه • مطرح ما ترسى بقى •

والقادوم ينهال على الأرض ، ومحمود يوسع الحفرة
ويرفع التراب ، وقطرات العرق تتناثر حولهما ، وهما
يلهثان بعنف :

— محمود •• افتح الشباك •• الدنيا كتمة ••

وقام محمود يفتح الشباك ، ثم عاد الى صاحبه
فألفاه يدلى بالصرة فى قاع الحفرة وينحنى عليها
بجسمه طويلا •• ثم يفرقها دما ••

صرخ محمود • ولـكن صرخة محفوظ التهمت
صرخته • وانتفض كالمدبوح وفمه كنبع الدم الفائض.
وطوح جسده الى ناحية السرير ، ولكنه وقع على الأرض
يحشرج •• وكان محمود قد أدرك الباب ففتحه ، واندفع
المرضى الى الداخل بينما انكفا محمود على سريريه يبكي
وينكمش كطفل مذنب صغير •

الزمار

كنا اذا عدنا الى فصولنا بعد الفسحة . وقد أنهكنا
اللعب العنيف والشجار .. نمد أرجلنا باسترخاء ،
ونصطنع الانصات التام لمعلم التاريخ وهو يروى حديث
المعارك العسكرية ومصائر الملوك .

أما أرواحنا فقد كانت تفرد أشرعتها .. أو كما
تنفخ بالونا فيخلق في الهواء ، يطل على عالم من محض
تصورات كل منا ، عالمه الهادئ السعيد .

وتهبط علينا - نحن المشهود لنا بالشقاوة والشيطنة
- سكيئة غامرة .. عيوننا مفتوحة ، عضلاتنا مرتخية ،
نتظاهر بالجد .. بينما كل حواسنا ووجداننا المنطلق
غائبة هناك ..

وعندئذ ، فى نفس الموعد كل يوم ، يستقر فى
أذاننا ذلك اللحن الغريب . . يتهادى من بعيد ، يسبح
تحت شباك الفصل المطل على الشارع . . ثم يمضى .
وقد تعلقته به أرواحنا على نحو عجيب . كأنه قد أرسل
فى الهواء خيوطا سحرية اقتنصت بالوناتنا الهائمة
ومضى . . أرواحنا فى أعقابها قافلة من الأسرى .

لحن بسيط قصير فيه شجن ، وفيه صدى من دنيا
غير دنيانا . .

وكانت تنتاب التلاميذ حينذاك حالات مختلفة –
اعترف انى كنت أغوص فى صدهاء وأحلم بقوة ،
وبعضنا كان اللحن يذيب حيويته تماما ويفكك أعضائه
حتى ليكاد يتناثر. فاقد الوعي ، وبعضنا كان يتملص
من التأثير السحري ، ويستفزه اللحن لتحدى سلطانه
بالمشاغبة فيرمى صيحة مازحة من الشباك :

– بلاش دوشة . احنا فى مولد ؟

لكن صمت الأكثرية كان يفرق صيخته يطويها حتى
تبوخ وتموت . . كأنها وقمت فى بشر . . وصاحبها
لا يكف عن التفرز والقلق ، يعاود الكرة بالتضاحك أو
بنكتة متكلفة ، فيسكته المعلم بإشارة ونظرة وعيد .

أما صاحب اللحن العجيب فلم يكن له اسم نعرفه
به ، مجرد رجل طويل جدا ، أسمر ، حافى القدمين ،
جلبابه رث ، شعر ذقنه نابت ، حاسر الرأس ، ملبس
الشعر ، لا يفارق مزماره أبدا . .

لم يكن شعاذا فيشحن ، ولا بائعا فيبيع ، ولعله
كان أخرس فلم يكن يتكلم فى حيننا أبدا ، أو يكف عن
الزمر . . وهو يخترق الشوارع هادئا متئدا فى نفس
الموعد كل يوم .

وكان الصفار الذين لم يبلغوا سن التعليم يتوقفون
عن لعبهم اذا جاء . . وينظرون اليه فى فضول وعجب
. . من بعيد ، ومنهم من كانت تتيح له جسارته أن
يتبعه الى آخر الشارع ، وان لم يجسر أحدهم أبدا على
أن يدور معه حول الناصية .

ولم تكن رحلة الزمار تمر فى كل يوم بسلام ،
فقد كان منظره الرث يثير عند الأمهات الجزع على
أطفالهن وهم يلعبون فى الشارع فما ان يطرق أسماعهن
الصوت حتى تطل الواحدة منهن من الشباك و . .

— اطلع يا سمير . اطلع أما أقول لك . اطلع بقول
لك أحسن والله العظيم . .

أما الرجال وأصحاب الدكاكين فلم يكن يكبح
حنقهم عليه غير هزاله وضياعه . لم يكن منهم من يعتبره
بشيرا بخير . كانوا يخافونه أيضا رغم جسمه الهش .
كانه جنى يملك قوة غامضة ، ومع ذلك كان اذا لاحظ
أحدهم انه تباطأ ، أو اذا رآه قعد في ظل الشجرة التي
تمد فروعها فوق سور الحديقة الى الشارع ، نهره بشدة
وتوعده . . فيمضي الزمار ، نافخا في مزماره ، لا يكف
ولا يتوقف . . مرسلا لحنه العجيب الذي لا يعزف
غيره أبدا .

مضت الأيام وكبر التلاميذ الصغار ، وكنت
وأصحابي نقرأ عن أوربا وتبهرنا معالم المدنية ، وكان
أكثر ما يأخذ بالبابنا مظاهر القوة والمرح عند الأوربيين ،
كان يفتننا رقصهم وأغانيهم الحديثة ذات الايقاع المرح
النشط . . وكانت تغلبنا حتى نازية النازيين منهم ،
وقوة محركات الطائرات ، ومغامرات صماليكهم في
الادغال .

كنا ندور ساعة بعد ساعة في شوارع حيننا كل
يوم ، حتى يفرقنا المساء ، نتحدث بعنف وبسخط عن

بلادنا وطباع شعبنا ، فاذا تصادف أن مر بنا الزمار
رميناه بنظرات المقت والضيق والاشمئزاز . ويقول
قائلنا :

— أهو طول ماشعبنا آغانيه حزينه كده ، ومتخاذلة .
مش حنتقدم أبدا .

وينتهى الأمر عند هذا الحد ، ولكن سخطنا كان
يتراكم ، ففي مرة تصدى له أحدا بقلب متهور وصفعه
على وجهه :

— انت يا واد ان جيت هنا تانى حكسرك . امشى!
فجرى الزمار وقد استبد به زعر شديد ، وصار
كلما ابتعد يلتفت، إلينا وعيناه لم يفارقهما الذعر .

ولكن سخطنا آنذاك لم يكن يتصف بالصدق .

والا فكيف تفسر ما حدث لى بعدها بأيام ، اذ كنت
على موعد معها فى الشارع المشجر الذى اعتدنا أن
نتمشى فيه ساعة المغرب وننطلق على أجنحة الصبا القوية
المنتشية . .

انتظرتها ذلك اليوم ولم تحضر ، انقبض قلبي ،
وشملني مع اقتراب المساء كمد وغيظ وشعور ضياع
زلزل نفسي ..

وحينئذ التقطت أذني لحن الزمار فأرهفت ،
وأذهلني اللحن جدا ، وللمجب انفتأ كل غضبي وغيظي ،
وشعرت بنفسي تتماسك ليستغرقها بعد ذلك حزن
صوفي سمح ، واكتئاب هادئ رزين ، وأخذت أتهد
بعمق حتى انطفأت براكين صدري .

تبعته بعيني وأذني .. وبقدمي بعض الطريق ،
بلا سخط ..

★★★

دارت الأيام بعد ذلك .. سمعنا تشايكوفسكي
وليست .. طربنا واهتزت أعطافنا مع أم كلثوم
وعبد الوهاب وليلى مراد ، ودخلت حياتنا المواويل
الريفية أيضا . ثم سمعنا عن الفولكلور .

ومع ذلك فإن كل معارفنا عن الفولكلور بما لها من
تأثيرات علمية باردة ، وكل الأغاني الشعبية التي كان
يقدمها إلينا محاضرون خلال محاضراتهم العلمية ..

لم تكن قادرة أبدا على أن تثير فى ذلك الجيشان العميق
السخن الذى ينتابنى كلما تذكرت حكاية اللحن القديم ،
اللعن الذى نسيته تماما ، ولم تنطمس أبدا ذكريات
تأثرى به .

وفى يوم من الأيام كنت فى زيارة بعض صحابى
فى حيننا القديم ، وتشعب بنا الحديث فى كل اتجاه ،
فومض فى ذهنى خاطر وأنا فى الشارع عائدا من
زيارتى ، فسألت صاحبى :

— فاكرك الزمار الأسمر بتاع زمان ؟ بتشوفه ؟

فعمد ما بين حاجبيه وجعل يتذكر :

— ياه ! تقصد الأخرس ؟ تعيش انت .

— مات ؟!

— انتحرف فى الخرابة الى ورا دكان البقال ، قطع
شريانه بقرازة ومات .

لم تلتقط أذننى بدقة شرحه المسهب للواقعة ، فقد
امتلكنى على الفور شعور عجيب وتصور أعجب .. !

لأول مرة أحس بشخصية الرجل وراء اللحن ..
بأن هذا الرجل عاش مأساة طويلة ما .. واجه قدرا ما

.. يوما بعد يوم ، دقيقة بدقيقة .. احتج على مأساته
بلحن واحد .. بسيط وعميق ضاع نهائيا من ذاكرتى
.. ولكنه على نحو ما ربانى .. ساهم فى تربية نفسى
وذوقى ، نقل الى معان كثيرة متباينة ، فى كل مرحلة
من حياتى نقل الى معنى جديدا .. وهو هو كالحقيقة
لا يتغير أبدا ونحن كسائر البشر نكبر مع الأيام ونتغير .

مأساة صغيرة

« فى حياة كل منا مأساة ! »

.. كلمة نسمعها ونقولها فى الصباح أو فى المساء ،
فى المدرسة أو فى العمل أو فى القهوة أو فى الكافتيريا ..
نسمعها أو نقولها بلهجة مرحة أحيانا أو جادة فى بعض
الأحيان، لا نقصد بها الحقيقة ولا هى تعبر عن كل الحقيقة
.. انها كلمات تكشف حبنا العميق، حبنا المريض لاستدراج
العطف والشفقة .. كلمات أجدر بنا دائما أن نضيف
لها : « وكل منا يساهم فى مأساة غيره ! » توخيا للحق
والانصاف .

لم نكن حينذاك فى السن الرشيد الذى يسمح لنا
أن نتساءل : « لم يمانى الرجل كل هذه الآلام ؟ ! »

لم يكن يشغلنا الا الحديث ، ومعاودة الحديث ..
عن جنون محفوظ أفندى ..

ويبدو أن التلاميذ الذين كانوا في المدرسة قبلنا
.. من فرط ما أعادوا وكرروا نفس الحوادث والأحداث
قد أكسبوا الافتراض صلابة الحقيقة .. بحيث تأكد لنا
سلفا أن محفوظ أفندى رجل مجنون .

ولعقولنا الصغيرة بدت الظروف كلها مؤيدة
الافتراض ..

محفوظ أفندى يدرس الجغرافيا والتاريخ والتربية
الوطنية .. حصصه وكل ما استطاع أن يتصيده من
حصص غيره من المدرسين ومن الحصص الإضافية ..
في فصوله وغير فصوله متطوعا مجاهدا .. طيلة النهار
ثانيا مرفقيه ماذا ساعديه للامام وفوقهما كراريسنا
وكراريسه ، خرائط القارات كلها والخرائط التاريخية،
مؤشرات طويلة وقصيرة ومتوسطة .. وكل ما تسنى له
العثور عليه من مؤشرات قديمة مهشمة ، وفوق هذا كله
كومة من الطباشير الأبيض والملون .. وعلى هذا كله
طربوشه المعفر ..

ما ان يدق الجرس حتى يكون محفوظ أفندى في

وسط الفصل ، فإذا لم يسكت كل صوت فى الحال أو لم يتحقق الهدوء الشامل .. توجه من فوره للشباك وألقى بكل ما فوق ساعديه من حاجاته وحاجاتنا بقلب لا يعرف التردد ، وقعد على كرسية ينتظرنا لنستعطفه !

وإذا تحقق له الهدوء فور دخوله الفصل يبدأ متوثباً للشرح .. ويفيض فيه ويكرر ويفصل ويعيد ويزيد .. فيروق مزاجه ، وكلما تجمعت على جبينه حبات عرق ترقص عيناه جذلاً .. وينطلق مشرقاً ومغرباً فيتجاوز الدرس الى السياسة .. والى حضارة الأمم .. والى أهمية الموارد الاقتصادية مع الثقافة .. ويعود من ذلك ليدلل على كلامه من واقع أوروبا وأفريقيا ، وفى كل يد مؤشر .. يقفز بهما من بلد لبلد على الخريطة .. ومن موقع لموقع ، فيستخفه الطرب فيصيح ملوحاً بالمؤشر :

— محفوظ بك رجل جدع .. زيه متلاقيش !

دارت الأيام .. كم سنة ؟ عشر ؟ خمس عشر ؟ .. لا أعرف بالضبط غير أن الحديث لم ينقطع أبداً عن ذكريات محفوظ أفندى .. سمعنا مرة أنه أوقف ..

حكايات - ٤٨٩

انه نقل .. انه أحيل الى المعاش .. انه يجلس فى قهوة
السمر .. ألخ ... فكنا نبتسم فى ابتهاج حقيقى
لذكراه ، ونبره بالتعهد .. أو بكلمة طيبة أو .. خسارة
الرجل !

لقد كنا دائما نحب أن نرى فيه عنصر المأساة ..
لا أحب الينا من أن يكون محفوظ أفندى محل عطفنا
وشفقتنا .. أقول لكم الحق لم يكن محفوظ أفندى
مجنونا ... رغم غرابة أطواره - على الأقل فى ذلك الحين
لم يكن بالرجل المجنون .. الا أننا كنا نؤكد جنونه
لنبرر شقاوتنا .. لنبرر سخریتنا وهزءنا به .. لنبرر
ضحكننا عليه .. أما الوزارة فلم توقفه أبدا .. ولم
تنقله أبدا .. ولم تحله الى المعاش قبل السن القانونى
لجنونه وعن طريق القومسيون الطبى .. وانما أعفته
من مشقة العمل فى أواخر السنين لأنه لم يعد له من قوة
الشخصية والمرونة ما يتيح له القدرة على ضبط واخضاع
شياطين ذلك الجيل ..

راحت أيام وآتت أيام .. وذات صباح اذا بى وجهها
لوجه مع محفوظ أفندى فى الطريق .. تهللت له وأقبلت
عليه ..

— سلامات يا محفوظ بك .. مش فاكرنى ؟ ..
انا كنت تلميذك .

فتفرس فى وجهى وقال بلهجة حادة جهمه :
— اسمك ؟

وأخرج من جيبه ورقة صغيرة .. لعلها اتصال
قديم ، وقلم كويلا صغير . وأخذ يدون ما أقول على
ظهرها ..

— فى سنة ايه ؟

— كنت فى سنة تانية أول ..

— منقول ولا بايت ؟

فغشيني استغراب وقلق ..

— كنت منقول ..

— معانا هنا السنة اللى فاتت والا جاى محول من
مدرسة تانية ؟

— يا محفوظ. بك أنا اتخرجت من زمان ..

— رد على كويس !

فغشيني خوف .. لم يكن يخيفنا فيما مضى .. أما

الآن! غيابة اثابتان قويتان .. وعلى زغمي اخذتني
موجة طاغية من الشفقة زاحمت مخاوفي ..

— لا .. من المدرسة ..

عال ! يبقى تعرف محفوظ بك .. محفوظ بك
ياجل شهيد ! زيه متلاقيش ..

يا .. انت استاذنا ووالدنا ..

وانا اتلفت حولى لأتدبر منفذا للانسحاب .. فاذا
به ممسك بذراعى بقوة حديدية المتنى جدا ، ويقول
مؤكدًا :

— مش انت بس .. بص ! كل الناس دي تلايمتى
.. كل الوزراء والمديرين والقضاة والحكما والمهندسين
دول اللى قدامك أنا اللى علمتهم .. كل المحامين والمدرسين
والطيارين اللى انت شايفهم دول .. خلى بالك معايا
كويس تشوف مشكلك .. تتمايع مافيش غير الشدة
.. فاهم كويس !

تلفت حولى استقيث بعملة انسحب بها .. وذراعى
يؤلننى جدا .. وأنا أقول :

لدا! — حاضر ..

— كل المصانع دى أنا إلى بانيتها .. كل الشوارع
الضيقة الكويسة .. الكهرباء والميه أنا إلى بمشيهم ..
والجنان والفيضان أنا إلى زارعها .. أما الشوارع
الوسخة والخرابات إلى تلاقىها وانت ماشى دى .. إلى
عملها الأولاد الأشقياء يتوع تالته خامس إلى قاعدين
ورا يقزقزوا لب .. حتقعد تقزقز لب ورا ١٩ ..

— أبدا يا محفوظ بك .. أنا مامعش لب .

— باين عليك ولد كويس .. وأبوك موصينى عليك
.. عن اذنك عندى حصه .. ذاكر يا ولد ! فاهم !

ونظر فى ساعته .. وانتظرنى لأقول له : حاضر
.. ثم مضى .. وأنا أتنفس الصعداء .

مرت الأيام ، وذات مساء كنت جالسا على القهوة
مع شلة من الصحاب تتسامر ونضحك .. فاذا أحدهم
يقول فجأة :

— مش محفوظ أفندى مات ..

.. مات ؟ !

وتفجرت فى قلوبنا دهشة وأشجان وألم ..

— مسكين .. كان قاعد على القهوة وفاتت عربية
اسعاف بترن الجرس .. هو سمع الجرس من هنا وقام
مفتور رامي نفسه عليها بيقول : « الله ! ده أنا اتأخرت
عن الحصّة الرابعة ! » .. وراح تحت المربية ..
وتهيا الراوى ليضحك ، ولكن شيئاً ما فى عيوننا قتل
ضحكته .

الفهرس

الصفحة

٣	★ حكايات الزمن الضائع هي قرية مصرية
٥	— مقدمة
٩	— الفصل الأول :
٢٧	— الفصل الثاني :
٥٧	— الفصل الثالث :
٦٩	— الفصل الرابع :
٨٥	— الفصل الخامس :
١٠٥	— الفصل السادس :
١٢٥	— الفصل السابع :
١٤٣	— الفصل الثامن :
١٧١	— الفصل التاسع :
١٩٥	— الفصل العاشر :
٢١٩	★ مجموعة قصص قصيرة
٢٢١	— مقدمة — آثار أقدام على الأسفلت
٢٢٥	— أفندينا

القصص :

- حكايات الزمن الضائع فى قرية مصرية (رواية)
- ايام وليالى السندباد (رواية)
- مجموعة قصص قصيرة

كتب اخرى :

- دليل المتفرج الذكى الى المسرح
- الملاحة فى بحار صعبة (مقالات)
- صور أدبية (ترجمة)

يرجو المؤلف الفرق المسرحية ومؤسسات التلفزيون والاذاعة
الحصول على اذن كتابى منه قبل انتاج اى من اعماله مراعاة للتقاليد
الثقافية والحقوق القانونية .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٩/٣٤٥٦
ISBN ٤ - ٢١٣٥ - ٠١ - ٩٧٧

١

● **بقبق الكسلان :** (فصل واحد) أنتجت بتلفزيون القاهرة ١٩٦٦ ثم أنتجت بالمرح الحديث بوارسو بولندا ١٩٨١ .

● **عسكر وحرامية :** أنتجت بالمرح الكوميدي بالقاهرة ١٩٦٦ ثم أنتجت بمرح مدينة الكاف بتونس ومرح برج الكيفان بالجزائر والمرح الوطني بطرابلس ليبيا .

● **الزير سالم :** أنتجت بالمرح القومي بالقاهرة ١٩٦٧ ثم أنتجت بمرح مدينة الكاف بتونس والمرح القومي بدمشق ومرح دائرة الفنون بالأردن والمرح الوطني بطرابلس ليبيا ومرح مدينة البصرة بالعراق .

● **على جناح التبريزي وقابعه قفه :** أنتجت أول مرة بالمرح الكوميدي بالقاهرة ١٩٦٩ ثم أنتجت بالمرح القومي ببغداد والمرح الأهلى بالكويت والمرح الوطني ببغداد والمرح القومي بالخرطوم ومرح الفن العربى بالقاهرة ومرح مدينة صفاقس بتونس ومرح الشعب بحلب وفرقة مايباخ الألمانية الغربية .

● **النار والزيتون :** أنتجت بالمرح القومي بالقاهرة ١٩٧٠ ثم أنتجت بإذاعة برلين الشرقية الألمانية وفرقة معهد الفنون ببغداد .

● **الزيارة :** (فصل واحد)

- **زواج على ورقة طلاق :** انتجت بالمرح الحديث بالقاهرة ١٩٧٣ ثم انتجت بمرح مدينة الكاف بتونس وبمرح توكاد بلندن والمرح القومي بدمشق والمرح الوطنى بطرابلس ليبيا .

● **العجب لعبة**

- **اغنياء فقراء ظرفاء**

- **رسائل قاضى اشبيليه :** انتجت بالمرح المتجول بالقاهرة ١٩٨٧ والتلفزيون العراقى ببغداد ومرح الكويت بالكويت .

- **رحمة وامير القابة المسحورة :** (للأطفال) انتجت فى مسرح القامشلى بسوريا .

- **الغريب :** (فصل واحد) انتجت لتلفزيون الجمهورية السورية .

- **العين السحرية** (فصل واحد)

- **دائرة التبن المصرية** (فصل واحد)

- **الحان على اوتار عربية**

- **هرديس الزمار** (للأطفال)

وانتجت معظم مسرحيات المؤلف عديدا من المرات بمسارح الثقافة الجماهيرية بمصر .

٢٤٣	• • • • •	حالة
٢٥٩	• • • • •	اللعبة
٢٦٩	• • • • •	قليل من الجنون
٢٨١	• • • • •	السمسار
٢٨٩	• • • • •	هارب
٢٩٥	• • • • •	التيار
٣٠٧	• • • • •	حلاوة روح
٣١٥	• • • • •	حلم بالقمر
٣٣٩	• • • • •	خطاب غرام
٣٥٩	• • • • •	وقع في عالمنا
٣٧٣	• • • • •	خيال المائة
٣٨٥	• • • • •	الحب زمان
٣٩٩	• • • • •	مغامرة أخطر مما كان يتصور
٤٠٩	• • • • •	الجن الأزرق
٤١٥	• • • • •	زمرة
٤٢٣	• • • • •	العدوان
٤٣٩	• • • • •	رادار
٤٤٧	• • • • •	الشيال
٤٥٣	• • • • •	فى بئر
٤٧١	• • • • •	الزمار
٤٧٩	• • • • •	ماساة صغيرة

للمؤلف

المسرحيات :

- **صوت مصر :** (فصل واحد) انتجت بالمرح القومي بالقاهرة ١٩٥٦ .
- **سقوط فرعون :** انتجت بالمرح القومي بالقاهرة ١٩٥٧ .
- **حلاق بغداد :** انتجت بالمرح القومي بالقاهرة ١٩٦٤
ثم بمرح الشعب بحلب ومرح الفن بطبرق
ومرح دائرة الفنون بالأردن ومرح بغداد
بالعراق ومرح الخليج بالكويت ومرح الفن
العربي بالقاهرة .
- **سليمان الحلبي :** انتجت بالمرح القومي بالقاهرة ١٩٦٥
ثم بمرح جامعة الجزائر .
- **الشيخ :** (فصل واحد) انتجت بالمرح الحديث بالقاهرة ١٩٦٥ ثم بمرح توكاد بلندن
وتلفزيون الشارقة .

رواية « حكايات الزمن الضائع في قرية مصرية » كتبها المؤلف اثر زيارة لقريته عام ١٩٧٦ بعد غيبة طويلة .. والرواية يختلط فيها أسلوب الفلاحين الفكاهى والخيالى فى حكاية القصص مع منطق الراوى وتمسكه بالمعقول .

إنها قصة رجل بسيط يبحث عن همار له مرقه اللصوص ولكن أحداثها تجرى على أرض عريضة وعميقة وفى المجتمع الريفى ونصف الحضري كله .. وللقصة فى ظروف ذلك المجتمع فعل التصل الصغير للمحراث وهو قلب التربة فى الحقول المترامية الواسعة .

وفى الكتاب ، إلى جانب الرواية ، مجموعة من القصص القصيرة التى كتبها المؤلف فى مختلف مراحل حياته الفنية منذ الخمسينيات الباكسة إلى السبعينيات .. وهى صور للناس والظروف فى حياة اجتماعية متغيرة .